بسم الله الرحمن الرحيم

فن الرسائل في العصر الأيوبي

دراسة فنية بلاغية

إعداد

راكان حسين علي بكار

ليسانس اللغة العربية -جامعة اليرموك- ١٩٨٥م

دبلوم أساليب تدريس اللغة العربية – جامعة اليرموك – ١٩٩٧م

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية في جامعة اليرموك تخصص: أدب ونقد

الفصل الدراسي الأول

٢٠٠١-٢٠٠٢م

فن الرسائل في العصر الأيوبي

دراسة فنية بلاغية

إعـــداد

راكان حسين علي بكار

ليسانس اللغة العربية -جامعة اليرموك- ١٩٨٥م

دبلوم أساليب تدريس اللغة العربية – جامعة اليرموك – ١٩٩٧م

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أعضاء لجنة المناقشة:

الأستاذ الدكتور: يوسف أبو العدوس.....	مشرفاً ورئيساً
الأستاذ الدكتور عفيف عبد الرحمن.....	عضـــــواً
الأستاذ الدكتور محمد الربيع	عضـــــواً
الأستاذ الدكتور سعود عبد الجابر	عضـــــواً

الفصل الدراسي الأول

٢٠٠١-٢٠٠٢م

الإهـــداء

إلى النبراس الذي أقف أمام محرابه بإجلال وقداسة... إلى من علمني المحبة بالتسامح... إلى من علمني السمو بالتواضع... إلى أتقى وأرق قلب... إلى من هو مبعث فخري واعتزازي...

إلى روح والدي

ترتعش الكلمات على شواطئ الجلال فيتألق الفيض من حنايا الروح وترتسم في ظلال الأمن كلمة تقدس الله خالقها... كلمة يقف الجلال أمامها انحناءة العرفان والخشوع... كلمة تحمل في معانيها ينابيع الحب والحنان الخالد... إلى من حملت همي وأمدتني بالقوة في لحظات ضعفي...

إلى أمي يرحمها الله

إلى بدر الدجى وأجمل الرؤى وعطر الندى...

زوجتي

إلى كل من كان الصدق رمزاً لصداقته...

أحبائي وزملائي

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

شكر وتقدير

لا يسعني وقد انتهيت - بحمد الله وتوفيقه - من إعداد بحثي هذا إلاّ أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور يوسف أبو العدوس، الذي كان خير مشرف وخير معين الذي منحني من وقته وجهده وخبرته وتجاربه وتوجيهاته، ما كان له الأثر الأكبر في إخراج هذا البحث بالصورة التي هو عليها الآن.

وكما أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى استاذي الأستاذ الدكتور عفيف عبد الرحمن الذي لم يبخل بعلمه ووقته وجهده بإبداء الملاحظات القيمة، التي كانت منارا يهتدي به الباحث، فكانت موضع الاهتمام والتقدير.

كما أتقدم بالشكر والعرفان إلى كل من الأستاذين الكريمين الدكتور محمد الربيع والدكتور سعود عبد الجابر عضوي لجنة المناقشة على تفضلهما بقبول مناقشة هذا البحث، شاكراً لهما كل جهدٍ يبذلانه في دراسته، ومرحّباً بآرائهما وملاحظاتهما التي ستكون موضع الاهتمام والتقدير.

ولا يفوتني أن أتقدم بكل الشكر والتقدير والعرفان والاحترام لكل يد بيضاء أسهمت في إخراج هذا الجهد المتواضع إلى حيز الوجود.

الباحث

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قائمة المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
الإهداء	أ
الشكر والتقدير	ب
قائمة المحتويات	ج
الملخص باللغة العربية	و
المقدمة	١
الفصل الأول	٥-٢٢
١-الحالة السياسية في عهد الدولة الأيوبية	٦
صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية	٦
الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين	١٤
٢-الحياة الثقافية في العصر الأيوبي	١٧
أهم مؤلفات هذا العصر	٢٠
الفصل الثاني	٢٣-٦٨
المبحث الأول: الرسائل الديوانية	٢٦
أنواع الرسائل الديوانية	٣٠
أولاً: الرسائل السياسية	٣٠
أ. رسائل تصدر إلى الخلفاء العباسيين	٣١
ب. رسائل صادرة من الخلفاء إلى الولاة والحكام	٣٣
ج. المنشورات	٣٥
د. التقاليد	٣٧
هـ. المراسيم	٤٠
ثانياً: الرسائل الحربية – الجهادية	٤٥
أ. رسائل الحث على الجهاد	٤٥
ب.رسائل البشارة والتهنئة بالانتصارات	٤٧
ج. رسائل الاستنجاد	٥٠
د. رسائل التهديد والوعيد	٥٢

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هـ. رسائل التحريض والمواساة	٥٣
المبحث الثاني: الرسائل الإخوانية	٥٥
مفهوم الرسائل الإخوانية	٥٥
أنواع الرسائل الإخوانية	٥٧
أ. رسائل التهنئة	٥٧
ب. رسائل التعزية	٥٨
ج. الاعتذار والمعاتبة	٥٩
د. المهاداة وطلب المودة	٦٠
هـ. رسائل الشكر	٦٢
و. رسائل الشوق	٦٤
ز. رسائل الشفاعة والعناية	٦٦
الفصل الثالث: البنية الفنية في أسلوب الرسائل	٦٩-١٤٢
المبحث الأول: الوحدة الفنية في الرسالة	٧٠
أ. المقدمة	٧٠
ب. العرض	٧٦
ج. الخاتمة	٨١
المبحث الثاني: الألفاظ	٨٥
المبحث الثالث: الصور البيانية	١٠٢
المبحث الرابع: المحسنات البديعية	١١٣
الجناس	١١٥
الطباق	١١٩
السجع	١٢٥
الموازنة	١٢٩
المبحث الخامس: الإيجاز والإطناب	١٣٢
المبحث السادس: العاطفة	١٣٧

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الرابع: البنية الفنية لمضمون الرسائل الأيوبية	١٤٣-١٨٥
المبحث الأول: الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف	١٤٤
أ.الاقتباس من القرآن الكريم	١٤٤
الاقتباس بين الجواز والمنع	١٤٧
أقسام الاقتباس	١٤٩
الاقتباس المباشر	١٥٠
الاقتباس غير المباشر	١٥٠
ب. الاقتباس من الحديث الشريف	١٥٦
المبحث الثالث: التضمين من الموروث الشعري	١٦٣
المبحث الرابع: الوضوح والغموض	١٧٣
الخاتمة	١٧٩
المراجع	١٨٣
الملخص باللغة الإنجليزية	١٩٥

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ملخص

فن الرسائل في العصر الأيوبي

-دراسة فنية بلاغية-

راكان حسين علي بكار

تناولت الدراسة في أسلوب الرسائل من خلال الرسائل الديوانية والإخوانية في العصر الأيوبي، دراسة فنية بلاغية، فتم البحث بداية في وصف الحالة السياسية والحربية التي سادت تلك الفترة الزمنية، التي شهدت حروباً مستمرة بين المسلمين والصليبيين والتي سميت فيما بعد "بالحروب الصليبية".

تلك أهم الدواعي التي أدّت إلى ظهور الرسائل الديوانية، التي يمكن أن تعد تلك الدواعي ذات دور كبير في تطور هذا الفن عمّا كان عليه في العصور السابقة، وهذا ما نلحظه في اهتمام الحكام والولاة بالرسائل من خلال الدعوة إلى تولي ديوان الرسائل وفق معايير خاصة، وما نلحظه في اهتمام الكتاب برسائلهم وكتاباتهم، حيث جزالة الألفاظ، وعمق المعاني الإسلامية فيها، مما قد يجعل هذه الرسائل سجلاً حافلاً، وتصويراً دقيقاً لطبيعة الأحداث السياسية والحربية والعلاقات الاجتماعية بين الناس في ذلك العصر.

وبينت الدراسة دور الأيوبيين واهتمامهم بالعلم بشكل عام وبالكتابة والرسائل بشكل خاص، مما أدى إلى ظهور المؤلفات التي أفادت المكتبة العربية "كالمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، وجريدة القصر وجريدة العصر، والنوادر السلطانية، وكتاب الاعتبار ... الخ.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وكذلك ظهور بعض الأدباء الذين اهتموا بالعلم والأدب، أمثال القاضي الفاضل الذي كان له الأثر الأكبر في تطور هذا الفن، وإنشاء مدرسة خاصة باسمه سميت المدرسة الفاضلية، وقد نقلت مؤلفاته إليها وتقدر بمائة ألف مجلد.

وتناولت الدراسة أنواع الرسائل، وقد قسمت إلى نوعين الديوانية والإخوانية، وبينت أقسام كل نوع منها مع الأمثلة التي أوردتها من المصادر العربية، حيث اشتملت على رسائل التهنئة، والتعزية، والاعتذار، والمهاداة، والشوق، ثم رسائل الشفاعة والعناية.

هذه الرسائل –الديوانية والإخوانية– كانت مدار الدراسة التطبيقية التي أدت إلى إبراز بعض الخصائص لها، كالبناء الفني في الرسائل، من المقدمة إلى العرض وانتهاء بالخاتمة، وتميزها من حيث الألفاظ والتراكيب بالجزالة والسهولة بالنسبة لأهل عصرها، وبينت كذلك الصور البيانية والمحسنات البديعية، والتزام الكتاب بهذه الأساليب، كالسجع والجناس والموازنة والطباق، التي تعد سمة بارزة من سمات هذا العصر، فالتزام الكتّاب بهذه الصنعة في النثر بشكل عام نراه قد شمل الرسائل، هذا التميز ميزته مقتضيات الأمور التي تواجه المسلمين أثناء صراعهم مع الصليبيين.

وأبرزت الدراسة البنية الفنية لمضمون الرسائل الأيوبية، فاشتملت الرسائل على الاقتباس للآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، التي قد يكون لها مدلولها الجهادي ضد الغزاة المعتدين، واستنهاض الشعور الديني لدى المسلمين، كذلك التضمين من الموروث الشعري العربي، خاصة لشعراء مشهورين كالمتنبي وأبي تمام والبحتري، الأمر الذي يدعو إلى القول بالتذوق الفني للشعر العربي القديم في تلك الفترة.

وتطرقت كذلك إلى البحث في الوضوح والغموض، والعاطفة، والإيجاز والإطناب، فبينت أن الرسائل الديوانية، قد امتازت بعاطفة جياشة ومؤثرة، جنباً إلى

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

جنب مع الوضوح والإيجاز والإطناب، ولكنها أحياناً تكون كذلك ضمن أحوال خاصة، وأحياناً تكون ذات مميزات يصعب على القارئ العادي أن يفك رموزها.

وخلاصة القول، إن الرسائل في العصر الأيوبي، قد خطت خطوات كبيرة في تطورها عمّا كانت عليه في العصور السابقة كظهور المعارضات في الرسائل أسوة بالمعارضات الشعرية، وظهور أنواع جديدة من الرسائل، كالتهنئة بفتح حصن أو معقل، أو مدينة .. الخ. لذا لم يكن هذا العصر عصر جمود وانحطاط كما وصفه بعض الباحثين في الأدب.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المقدمة

الحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، والصلاة والسلام على نبينا الكريم محمد -صلوات الله عليه وأتم التسليم-.

وبعد:

فإن علوم اللغة العربية ، تهدف في دراستها ونتاجها إلى خدمة المسلمين والدين الإسلامي، وبيان وإيضاح خواصه وآدابه، وتعمل على تسخير طاقاتها وإمكاناتها البيانية والبلاغية لمعرفة مناحي الإعجاز في كتاب الله عز وجل، وبيان روائع البلاغة في السنة النبوية الشريفة المطهرة.

ولما كان الأدب أحد فنون العربية، فله الحق كل الحق أن يؤدي ذلك الدور، ويسمو بذلك الغرض، وفي الوقت نفسه يكون الأدب الواجهة الأساسية للدفاع عن الدعوة الإسلامية والوقوف في وجه أعداء الأمة الإسلامية في كل زمان ومكان.

فالأدب منذ صدر الإسلام، كان يستخدم سلاحاً فعّالاً في مواجهة الأعداء، والانتصار لحقوق المسلمين، فالشعراء في زمن الرسول -عليه السلام- وقفوا للرد على المشركين، ويظهر ذلك من قوله عليه السلام لحسان بن ثابت أن روح القُدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله.

فالأدب كان وما يزال يدافع به سلاحاً يحارب به المسلمون لمواجهة أعداء الأمة الإسلامية فلم يختلف موقف الأدب هذا على مر العصور، فأدب العصر الأيوبي كان كغيره من العصور مدافعاً بقوة وصلابة عن الأمة وقضاياها، والدعوة إلى الجهاد، لاسترداد المسجد الأقصى من براثن الأعداء الغاشمين، الذين اجتاحوا الأراضي الإسلامية وعاثوا فيها فساداً في هذه الحقبة الزمنية المسماة بـ "الحروب الصليبية".

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ونظراً لاتساع رقعة الدولة الإسلامية آنذاك من جهة، ولحاجة الولاة والقادة في الولايات والمراكز المنتشرة في أرجاء الدولة الأيوبية إلى الاتصال بمركز الدولة والخلافة من جهة أخرى، ظهرت الحاجة الماسة إلى فن الرسائل، فأخذ هذا الفن يتطور وينمو عما كان عليه في العصور السابقة، واختلفت أنواعه وأقسامه من حيث الموضوعات والمضمون، فظهرت الرسائل الديوانية والإخوانية.

وقد قامت الرسائل في العصر الأيوبي بذلك الدور الفعال، وحملت على كاهلها أعباء كثيرة في مواجهة أخطار الحروب الصليبية، والذود عن الأمة الإسلامية ومقدساتها ضد هذه الأخطار، فكانت اللسان المعبر عن حال الدولة، وما تعانيه من كفاح مستمر لأعداء الأمة.

ومن جهة أخرى، كانت رسائل العصر الأيوبي بمثابة صورة واضحة للسياسة والحكم في الدولة، وذلك بطرق مختلفة منها المنشورات التي تعرض على الشعب وفيها رسم للسياسة الداخلية للدولة، وكذلك الرسائل المرسلة بين الولاة والقادة كانت بمثابة إعلام نشط يربط بين القيادة والشعب، وما بين القيادة وأمرائها وولاتها داخل حدود الدولة الأيوبية، فانتشرت الرسائل وأصبحت بمثابة سجلاً حافلاً صورت طبيعة الأحداث السياسية والحربية تصويراً دقيقاً، مما حدا بصاحب صبح الأعشى أن يقول: "أنه لو جمعت دفاتره لاجتمع منها تاريخ كامل". ورغبة مني في إلقاء الضوء على الرسائل في العصر الأيوبي قمت بإجراء هذه الدراسة وأتمنى من الله أن تكون محققة للهدف المنشود فقد جاءت الدراسة في أربعة فصول:

ففي الفصل الأول تحدث فيه الباحث عن الحياة السياسية التي سادت فترة الدولة الأيوبية من حوادث وحروب، واحتلال للأراضي والمقدسات الإسلامية وما تبعها من ويلات نتيجة لهذه الحروب، واستمرار الحملات الصليبية، وبالمقابل كانت مقاومة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المسلمين ضد هؤلاء الغزاة، لا سيما في عهد رمز الدولة الأيوبية ومؤسسها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وبعد تمكنه من القضاء على الفتن الداخلية، وتفرغه للوقوف في وجه هذه الحملات.

ثم عرّج الباحث في هذا الفصل على بعض الأدباء ومصنفاتهم في العصر الأيوبي، الذين كتبوا كتباً كانت ولا تزال من المصادر النفيسة للمكتبة العربية، كل ذلك ما كان لولا حب ورعاية الملوك والسلاطين لأهل العلم. حتى وصل الأمر بالقاضي الفاضل أن يبني مدرسة على نفقته الخاصة، وقد سميت بالمدرسة الفاضلية وتم نقل بعض مصنافته والتي تقدر بمائة ألف مجلد اليها.

ثم انتقل الباحث إلى الفصل الثاني حيث نظر في أنواع الرسائل فكانت كالأتي:

أولاً: الرسائل الديوانية: وقسمت إلى رسائل سياسية وجهادية وتم بحث مفهوم كل نوع منها وما تبعه من فروع، مع إيراد بعض الأمثلة التي تبين ذلك.

ثانياً: الرسائل الإخوانية: وهذه تشعبت في العصر الأيوبي، حيث أنها اشتملت على سبعة عشر نوعاً من الرسائل التي سادت تلك الفترة -سيأتي ذكرها- ولم يتناولها الباحث جميعها، بل تناول بعضاً منها كنماذج للدراسة كرسائل التهنئة والتعزية، والاعتذار، والمعاتبة، والمهاداة، وطلب المودة، والشوق، ثم رسائل الشفاعة والعناية.

وبعد دراسة الرسائل وجد الباحث أن الرسائل الديوانية نشأت نتيجة الأحداث السياسية والعسكرية التي مر بها العالم الإسلامي آنذاك، من أجل توحيد العالم الإسلامي في وجه الأخطار الصليبية، ولإشعال فتيل الحماس للجهاد في سبيل الله.

أما الرسائل الإخوانية فكانت تمثل العلاقات الاجتماعية الحافلة بالعاطفة والمشاعر الإنسانية، للتعبير عن خواطرهم ومشاعرهم.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثم تناول في الفصل الثالث الدراسة الفنية في الشكل حيث درس البناء الفني لفن الرسائل في العصر الأيوبي، والتراكيب، والمصطلحات، والألفاظ، والصور البيانية، فضلاً عن بعض المحسنات البديعية التي توافرت في هذه الرسائل.

واختتم الباحث الدراسة في الفصل الرابع حيث تناول الدراسة الفنية في المضمون فاحتوت دراسة هذا الفصل على التضمين من القرآن الكريم والسنة النبوية والموروث الشعري والأمثال، وأبان الباحث أن الرسائل تُكْثِرُ من استخدام التضمين من القرآن الكريم، وذلك راجع إلى الظروف السياسية التي اعترت تلك الحقبة الزمنية.

ثم أبان الباحث الإيجاز والإطناب في الرسائل، فالموضوعات الحربية والسياسية غالباً ما تمتاز بالإطناب، أما الرسائل الإخوانية غالباً ما تمتاز بالإيجاز لكونها نابعة من مشاعر شخص معين تجاه شخص آخر معين.

وقد أنهى الباحث البحث بخاتمة أشار فيها إلى أهم النتائج التي توصل إليها من خلال الدراسة.

وأخيراً أني لأرجو أن يجد هذا البحث قبولاً، وأسال الله السداد والتوفيق، واستمد منه العون والتأييد ونختم بأن الكمال لله وحده، عليه التوكل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الأول

١-الحالة السياسية في عهد الدولة الأيوبية

-صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية

-الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين

٢-الحياة الثقافية في العصر الأيوبي

-أهم المؤلفات في هذا العصر

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١-الحالة السياسية في عهد الدولة الأيوبية

صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية

اختلف المؤرخون في نسب بني أيوب، أهم أكراد أم عرب؟ فوردت في ذلك ثلاثة أقوال: فمن المؤرخين من ذكر إنهم من العرب، ومنهم من قال: إنهم من الأكراد الروادية، ومنهم من قال: إنهم من الفرس. وقد ناقش الملك الأمجد: الحسن بن داود الأيوبي، جميع ما قيل من نسب أجداده في كتابه "الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية"، وقطع بأنهم ليسوا أكراداً، ولكن نزلوا عند الأكراد، فنسبوا إليهم[١].

وبعض المصادر نسبت صلاح الدين بقولهم: "هو يوسف بن أيوب بن شاذي وكنيته أبو المظفر، ولقبه الملك الناصر، وهو من أصل كردي"[٢].

كان والده نجم الدين أيوب بن شاذي، حيث ولد نجم الدين والد الملوك الأيوبيين ببلد شبختان وأقام في بادئ أمره مع أسد الدين شيركوه في دوين، وقدما إلى العراق، وخدما مجاهد الدين بهروز، فولاه قلعة تكريت لما رأى منه من رجاحة عقل وسداد رأي، ولكن الحال لم يدم على ما هو عليه، وسرعان ما وقع خلاف بينهما وذلك بسبب قتل شيركوه كاتباً نصرانياً بتكريت لملاحاة جرت بينهما، فخرجا - شيركوه ونجم الدين- معاً إلى مدينة الموصل في عام ٥٣٢هـ. وأثناء خروجهما من تكريت صادفت تلك الليلة أن ولد صلاح الدين، فتطيروا به وحل عليهم التشاؤم من هذه الولادة، وقال شيركوه أو غيره: لعل فيه

---

[١] عبد الباسط بن خليل الملطي، نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تح/ محمد كمال الدين عز الدين علي، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٥١.

[٢] انظر: الإمام شمس الدين محمد أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح/ د. بشار عواد معروف، د. محيي هلال السرحان، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤، ج٢١، ص٢٧٨. ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح/ د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج٧، ص١٣٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الخير وأنتم لا تعلمون... وكان شيركوه أرفع منزلة عند نور الدين، فإنه كان مقدّم جيوشه[1].

ولما وصلا مدينة الموصل، التقى بهما عماد الدين زنكي في تكريت، وقد أحسنا الصنع معه، فما كان منه إلا أن قابل الإحسان بالإحسان، فأكرمهما إكراماً عظيماً، وأقطعهما إقطاعاً حسناً، وعندما فتح حصن بعلبك جعل أيوب مستحفظاً لها، وفي هذه الفترة تربى صلاح الدين في بعلبك، تربى في حجر والده نجم الدين، حتى ظهرت منه علامات الذكاء، وفيها تعلم القراءة والكتابة، وكانت قصص التاريخ والحروب، هي أحب القصص إلى نفسه، ولاحت عليه علامات الذكاء والفصاحة، فقدمه أبوه إلى نور الدين محمود زنكي فقرّ به، ولم يزل كذلك حتى وجّهه مع عمه أسد الدين إلى مصر. أما بالنسبة لعمه -أسد الدين شيركوه- فقد وجد حظوة كبيرة لدى حاكم حلب نور الدين محمود، وبعد إظهار شجاعته وقوته وحكمته وإخلاصه، في خدمة حاكم حلب، أقطعه نور الدين محمود مدينتي حمص والرحبة.

وهكذا أصبح لصلاح الدين، عمّ نافذ الكلمة في حمص، وأبٌ نافذ الكلمة في دمشق، وما أسرع أن تبدلت الأمور، فأصبح العم قائداً للقوات في حلب، والأب قائداً للقوات في دمشق. أما عمه أسد الدين شيركوه، فقد توجه إلى مصر بقيادة جيوش الشام وأمضى فترة من الزمن في مصر وعمل كوزير للعاضد في مصر.

ولما توفي أسد الدين شيركوه طلب جماعة من الأمراء النورية ولاية الوزارة للعلضد العلوي صاحب مصر، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين بن أيوب بن شاذي أمراً بإحضاره

---

[1]) انظر: سير أعلام النبلاء، ٢٨٣/١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إليه وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه، ولقبه الملك الناصر وكان اسمه يوسف. بموجب العهد الصادر عن ديوان الإنشاء ببغداد بتوليته ملك مصر وأعمالها والصعيد الأعلى، والأسكندرية وما يفتحه من بلاد الغرب والساحل، يقول فيه:"ولما كان الملك الأجل، السيد، صلاح الدين، ناصر الإسلام، عماد الدولة جمال الملك، فخر الملة، صفي الخلافة... اقتضت الآراء الشريفة- لا زال التوفيق قرينها، والتأييد مظافرها ومعينها- إمضاء تصرفه وإنفاذ حكمه في بلاد مصر وأعمالها، والصعيد الأعلى، والأسكندرية، وما يفتحه من بلاد الغرب والساحل[1].

وأوصاه بالوصايا والمواعظ الإرشادية التي يوجهها الخليفة إلى الولاة من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وسياسة الرعية والتفقه في الدين والجهاد في سبيل الله والحفاظ على الديار الإسلامية من الكفار، واتباع شريعة الله تعالى في جميع أمور الدولة الخاصة والعامة، ومحاربة المعتقدات الباطلة التي من شأنها إضعاف الأمة الإسلامية ... إلى غير ذلك من الوصايا.

ومن هنا ثبت قدم صلاح الدين في مصر، وأظهر في الحملات العسكرية شجاعة عالية وقدرات عسكرية فائقة، تجلت بوضوح في الحملة العسكرية التي حاصر فيها الصليبيون الأسكندرية، وقاوم صلاح الدين هذا الحصار وأجبرهم على طلب الصلح على الرغم من صغر سنه، إذ لم يتجاوز سبعة وعشرين عاماً من عمره وكانت هذه الحملة تسمى بالحملة الثانية[2]، وقد شارك كذلك صلاح الدين عمه أسد الدين في إرساء الأمن والاستقرار في مصر

---

[1]) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح/ د. جمال الدين الشيال، ١٩٨٠، ص٣٠٠-٣٠١.

[2]) د. قاسم عبده قاسم ورفيقه، الأيوبيين والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٢٢-٢٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وساعده في تحمل تبعات الوزارة، ثم تولى الوزارة من بعده في سنة ٥٦٤هـ[١]، فساس الأمور أحسن سياسة، وشرع في استمالة الناس إليه، وكانت معاملته بلطف أخلاق، وسماحة معاملة، وكان صلاح الدين يبلغ من العمر آنذاك ٣٢ سنة، وبتوليه الوزارة الفاطمية تبدأ صفحة جديدة في تاريخ مصر والشام.

لقد كان هدف صلاح الدين وقائده نور الدين محمود هو الحفاظ على وحدة الجبهة الإسلامية وتوحيد الصف الإسلامي في مواجهة الصليبيين، لذا نراه يقطع الخطبة على المنابر– بأمر من نور الدين– للفاطميين وإقامتها للعباسيين، وذلك في أول جمعة من شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ[٢]. دون أن يدعو للخليفة الفاطمي العاضد، وإنما دعا للخليفة العباسي المستضيء بنور الله، فلم ينكر عليه أحد ذلك.

فلما كانت الجمعة التالية، أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة للمستضيء في جميع مساجد مصر والقاهرة، وبذلك يكون قد انتهى آخر خيط يربط مصر بالدولة الفاطمية، وصادف عند إلغاء الخطبة أن توفي الخليفة الفاطمي العاضد بتاريخ العاشر من المحرم سنة ٥٦٧هـ، وبوفاته سقطت دولة الفاطميين بعد أن حكمت مصر قرابة قرنين من الزمان، وقد وصف ابن المقدسي في الروضتين ذلك بقوله: "ولما خطب بالديار المصرية لبني العباس ومات العاضد، انقرضت تلك الدولة، وزالت عن الإسلام بمصر بانقراضها الذلة واستولى على مصر صلاح الدين وأهله ونوابه"[٣].

---

[١]) شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، بيروت، د. ت، ج١، ص١٥٤.

[٢]) عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩، ج١١، ص ٣٦٨-٣٦٩.

[٣])انظر: الروضتين، ١/٢٠٠. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت، د. ت)، ص٢١٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وبعد سقوط الدولة الفاطمية، أصبح صلاح الدين صاحب الكلمة الأولى، وهو الأمر الناهي في مصر، وتهيأت له الفرصة لإصلاح ما أفسده الفاطميون خلال حكمهم الذي دام قرنين من الزمان كما أسلفت آنفاً.

عمل صلاح الدين على إصلاح الأنظمة السياسية والاجتماعية، بتحصين الحدود المتاخمة للصليبيين، بعدما ظلت منطقة مستباحة في زمن الدولة الفاطمية، كما قضى على الفتن الداخلية وأهمها "فتنة مؤتمن الخلافة"[1]. الذي قاد المؤامرة للقضاء على صلاح الدين وذلك بالاتصال مع الصليبيين سراً في بيت المقدس يدعوهم لنصرته، ولكن سرعان ما تكشفت خيوط هذه المؤامرة لصلاح الدين، فتمكن من القضاء عليها في مهدها، وأقام بدلاً منه بهاء الدين قراقوش[2] الذي أصبح مؤتمناً للخلافة بعد جوهر.

وتعرض الفاطميون بعد زوال دولتهم للتضييق والخناق والتشديد عليهم، نتيجة محاولاتهم اليائسة للقضاء على الأيوبيين، ونتيجة كشف معتقدهم الباطل للناس، وتصدى بعض العلماء والمؤرخين لفضح كثير من أسرارهم في كتب ومصنفات كثيرة لذلك الغرض[3].

---

[1])مؤتمن الخلافة: هو جوهر القائد، وكان أحد الأستاذين المحنكين بالقصر الفاطمي انظر: د. السيد عبد العزيز سالم ورفيقه، دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٢، ص٤٥.

[2])بهاء الدين قراقوش: هو قراقوش بن عبد الملك الأسدي، الخادم الصلاحي وقراقوش لفظ فارسي معناه العُقاب ويطلق على الإنسان الشهم الشجاع، اتصل بخدمة صلاح الدين بعد عمه أسد الدين شيركوه، وكان صلاح الدين يثق به ويعتمد عليه في مهماته .. الخ، توفي سنة ٥٩٧هـ. العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تح/ محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، د. ت)، ص٢٠٩.

[3])انظر ما قاله ابن المقدسي في الروضتين في نسبهم، ومن الكتب التي ألفت في ذلك وللطعن في معتقداتهم ونسبهم "كشف أسرار الباطنية لعلي القاضي أبو بكر بن محمد بن الطيب، وكتاب "الرد على الباطنية" للإمام أبو القاسم بن علي بن نصر الشاسي، وكتاب "كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد" لابن المقدسي. انظر: الروضتين ١/٢٠٠-٢٠٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وبعد أن أرسى صلاح الدين قواعده الداخلية، وتأمين هذه الجبهة، وترسيخ معالم الأمن والاستقرار، توجه إلى هدفه الأسمى، والذي طالما سعى إلى تحقيقه ألا وهو جهاد الصليبيين، وتحرير بيت المقدس، يقول ابن شداد: "ولقد سمعته يقول: لمّا يسر الله لي الديار المصرية، علمت أنه أراد فتح الساحل، لأنه أوقع ذلك في نفسي"[1].

وخرج صلاح الدين من مصر متخذاً طريقه عبر سينا إلى أيله، وشنّ الغارات ضد الصليبيين من هناك على أطراف بيت المقدس الصليبية، وشن هجوماً على بلدتي الكرك والشوبك وذلك لتحرير الطريق بين الشام ومصر وتأمينها، بعد أن تجمع الصليبيون في الكرك فنازلهم، وأبلى بهم بلاءً حسناً، وكان قد سبقه نور الدين محمود إلى قتالها. من هنا كانت الانطلاقة الرئيسة، الذي بدأ منها القائدان مرحلتهم الجهادية ضد الفرنجة من أجل تحرير بيت المقدس.

ولكن الأمور جاءت بعكس ما يريد نور الدين، حيث شاءت الأقدار ألا يستطيع مواصلة هذا المشوار الجهادي، ليسلم الراية صلاح الدين ويعهد إليه بمواصلة الجهاد في سبيل الله من بعده. ففي الحادي عشر من شوال سنة ٥٦٩هـ[2] وافته المنية والتي حالت دون إكمال المشوار.

وبعد وفاة نور الدين، حرص صلاح الدين على مواصلة تلك السياسة التي بدأها عماد الدين زنكي، وسار عليها ابنه نور الدين، والتي تهدف بالدرجة الأولى إلى توحيد كلمة المسلمين تحت راية الإسلام، وجمع صفهم، لذلك سعى منذ البداية إلى توحيد بلاد مصر

---

[1]) بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تح/ د. جمال الدين الشيال، ط١، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤، ص٤١.

[2]) الكامل في التاريخ، ١٢٤/٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والشام تحت رايته وقيادته، فتحقق له ذلك وأمكن من أخذ الاعتراف من كافة الممالك والأقاليم بالدولة الإسلامية، والتي كانت تحت إمرته وسيطرته.

فقد وجه صلاح الدين أخاه شمس الدين توران شاه في سنة ٥٦٨هـ لفتح بلاد النوبة، وذلك لسوء الأحوال السياسية بها، واستولى على قلعتها وحصونها، ثم عاد محملاً بالكثير من الغنائم والعبيد والجواري[١]. و توجه بعد ذلك إلى اليمن سنة ٥٦٩هـ. وتمكن من السيطرة عليها، وأعاد الأمن والطمأنينة إليها[٢]، وبذلك أصبحت الدولة الأيوبية دولة شاسعة المساحة، مترامية الأطراف مشتملة على مصر، والشام، وشمال العراق، واليمن ... الخ.

وامتاز الأيوبيون بالعدل والسماحة، فقد نشروا العدل والأمن في هذه الممالك، ورفعوا المفاسد والمظالم التي كانت واقعة على كاهل هذه الممالك من قبل الفاطميين، لتعود هذه الدولة إلى جسد الأمة الإسلامية، وتسهم في رفعتها، ومحاربة الغزو الصليبي الذي كان يجتاح الأمة الإسلامية آنذاك.

وبتحقيق صلاح الدين لأهدافه السامية هذه، من توحيد الأمة الإسلامية وجمع شملها، وتوحيد صفها أمام المخاطر المحدقة بها، والإعداد الحربي، والأخذ بالأسباب من إعداد الجيوش عسكرياً ومعنوياً لقتال الصليبيين، عند ذلك أعلن صرخته المدوية بإعلان الجهاد في سبيل الله، وجمع عساكره من جميع الممالك الإسلامية، وهيأهم لمعركة حاسمة، انتصر فيها المسلمون انتصاراً حاسماً وكبيراً في معركة حطين الشهيرة سنة ٥٨٣هـ، التي استطاع بهذه الموقعة أن يحطِّم أسطورة الجيش الصليبي تحطيماً، ويهزمه شر هزيمة،

---

[١]) الكامل في التاريخ، ٣٧٨/١١.

[٢]) الروضتين، ٢١٦/١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وتمكن من كسر شوكتهم، وأباد قوتهم و استطاع أخيراً من استرجاع بيت المقدس بعد أن ظلّ يرزح تحت نير الاحتلال ما يزيد على تسعين عاماً.

لم يكن طموح هذا القائد المسلم الفذ ليقف عند هذا الحد، بل أراد أن يتمثل سيرة الفاتحين الأوائل، فيسير بجيوشه شرقاً وغرباً، حتى يتحقق له ما يصبو إليه من أهداف وطموحات، وقد ذكر ابن شداد وقد أسَّر له صلاح الدين نفسه بقوله "في نفسي متى يسر الله لي فتح الساحل، قسمت البلاد، وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت"[1].

غير أن المنية عاجلته قبل أن يحقق هذه الأمنية، فقد لقي ربه في السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩هـ[2].

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

[1]) النوادر السلطانية، ص٢٢.

[2]) دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٣٨. الروضتين، ٢١٣/٢. ج. شوفيل، صلاح الدين بطل الإسلام، ترجمة جورج أبو صالح، دار الأميرة، بيروت، ١٩٩٢، ص ٤٤٢.

الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين:

كانت وفاة صلاح الدين بداية الانهيار والتشتت لهذه الوحدة التي أقامها بكفاحه وجهاده المستمر طوال حكمه، فقد كان صلاح الدين قد أسند لأبنائه وإخوانه بعض الممالك لمساعدته في حمل أعباء الدولة الواسعة الأرجاء، فالديار المصرية أسندت لابنه الملك العزيز عماد الدين عثمان[1]، وأسندت الشام بما فيها بيت المقدس لابنه الأكبر الأفضل نور الدين علي[2]، وحلب لابنه الملك الظاهر غازي[3]، والكرك والشوبك لأخيه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب[4]. واليمن لأخيه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب[5] وحمص والرحبة لأسد الدين شيركوه بن محمد[6].

---

[1])هو السلطان الملك العزيز أبو الفتح عماد الدين عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب مصر، ولد في جمادى الأولى سنة ٥٦٧هـ تملك مصر بعد أبيه، مات في العشرين من المحرم سنة ٥٩٥هـ عاش ثمانية وعشرين عاماً، دفن بقبة الشافعي. انظر: سير أعلام النبلاء، ٢١/٢٩١-٢٩٢.

[2])هو : أبو الحسن علي بن يوسف، تملك دمشق، ثم حاربه العزيز أخوه وقهره، ثم لما مات العزيز أسرع الأفضل إلى مصر، توفي الأفضل في سميساط في صفر سنة ٦٢٢هـ، وكان خيراً، عادلاً، وفاضلاً، وحليماً، وكريماً. انظر : سير أعلام النبلاء، ٢١/٢٩٤-٢٩٦. أبي الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح/ لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، د. ت)، ج٥، ص١٠١.

[3])هو الملك الظاهر غياث الدين أبو منصور غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، مولده بمصر سنة ٥٦٨، تملك حلب ثلاثين سنة، توفي سنة ٦١٣هـ. عن خمس وأربعين سنة.

انظر: سير أعلام النبلاء، ٢١/٢٩٦-٢٩٨، الكامل في التاريخ ٩/٢٢٧، شذرات الذهب، ٥/٥٥-٥٦.

[4]) هو أبو بكر محمد بن نجم الدين أيوب بن شاذي، ولد في بعلبك سنة ٥٣٤هـ، واختلفت الأراء في ولادته منهم من قال أنه ولد سنة ٥٣٨هـ، ومنهم من قال أنه ولد سنة ٥٤٠هـ.وكان يصغر أخيه صلاح الدين بعامين، وقد شارك في الحروب مع أخيه، كان ذا عقل ودهاء، استولى على البلاد بعد وفاة أخيه وساس الأمور أحسن سياسة، توفي سنة ٦١٥هـ.

انظر: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الاتابكي، "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج٦، ص١٤٤-١٤٥.

[5]) هو: سيف الإسلام، طغتكين بن أيوب بن شاذي، أرسل إلى اليمن سنة ٥٧٩هـ، مات في شوال سنة ٥٩٣هـ، ودامت دولته أربع عشرة سنة. سير أعلام النبلاء، ٢١/٣٣٣.

[6])هو أسد الدين شيركوه بن محمد، أعطاه صلاح الدين حمص والرحبة بعد وفاة أبيه محمد بن شيركوه سنة ٥٨١هـ، فأقام بها وحفظ المسلمين من الفرنج وخونة العرب، ومات بها سنة ٦٣٧هـ. النجوم الزاهرة، ٦/٣١٦. المرتضى الزبيدي، ترويح القلوب في ذكر الملوك من بني أيوب، تح/ د. صلاح الدين المنجد، ط٢، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣م، ص٣٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

واستقرت جميع تلك الممالك في أيديهم بعد وفاته، وكان ينتظر أن تسير الأسرة الأيوبية على الخطى التي سار عليها صلاح الدين، وتتواصل الفتوحات الإسلامية، ويسود الأمن والاستقرار جميع تلك الممالك، ولكن ما لبث الحال أن تغير، فقد دبَّ الخلاف بين الأفضل والعزيز، فقد استوزر الأفضل ضياء الدين بن الأثير[1]، وفوض إليه أمور مملكته، فما كان منه إلاّ أن قدم النصح والإرشاد له بطرد وزراء أبيه، واستبدل بهم غيرهم من الأمراء، وما كان منه إلا أن استجاب لابن الأثير، وذهب هؤلاء الأمراء إلى أخيه العزيز وأعلموه بما آلت إليه الأمور في بلاد الشام من أمر الأفضل وابن الأثير، وقام العزيز بعزل أخيه عن الشام سنة ٥٩٢هـ، غير أن العزيز توفي سنة ٥٩٥هـ، بعد أن التف حوله الأدباء والشعراء، فآل الحكم إلى ابنه الصغير محمد الذي لم يتجاوز التسع سنين، ولكن هذا الأمر لم يرق للأمراء، فراسلوا الملك العادل ليحكم مصر، فحضر إلى مصر وأخذ بزمام الأمور سنة ٥٩٦هـ.

ودارت المناوشات بين ملك مصر وملك الشام، مع محاولة التدخل من أمير حلب، وكانت المحصلة النهائية أن استطاع الملك العادل من إحكام سيطرته على الشام[2].

هذا النزاع داخل البيت الأيوبي، كان ذا أثر على قوتهم مما جعل الصليبيين يدخلون عكا ويستولون على القدس، فعز هذا على الملك العادل، فأمر بتجهيز الجيش الإسلامي

---

[1])هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، نسبة إلى جزيرة ابن عمر، لأنه ولد فيها، اتصل بخدمة صلاح الدين الأيوبي، وعمل كذلك بخدمة الملك الظاهر غازي بحلب، واستوزره الملك الأفضل، له من المصنفات "المثل السائر في أدب الكاتب، توفي ببغداد سنة ٦٣٧هـ.
انظر : عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م، ص٢٥١-٢٥٢، وفيات الأعيان، ١٥٨/٢.

[2]) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح/ محمد مصطفى، ج١، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م، ص٢٧٩-٢٨٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لتحرير بيت المقدس، إلا أن الموت عاجله فأخذ ابنه الكامل على عاتقه إتمام ما سار عليه أبوه وهو إخراج الصليبيين من دمياط.

واستمر الصراع بين الملوك في الدويلات الأيوبية، وبالمقابل استمرت الحروب بين الأيوبيين والصليبيين إلى أن جاء الملك الصالح الابن الأكبر للملك الكامل، والذي استولى على الحكم بعد سجن أخيه الملك العادل محمد بن أبي بكر بن أيوب.

ومن السمات الظاهرة في سياسة الملك الصالح بعد توليه الحكم اهتمامه بالجند، والاستكثار من شراء المماليك، حتى ضاقت بهم القاهرة، وبنى لهم قلعة في جزيرة الروضة وأسكنهم فيها، وسمّاهم "المماليك البحرية".

وكانت آخر معاركه ضد الفرنج -الصليبين- تلك المعركة التي حدثت عند بلدة المنصورة، وقد اشتد المرض عليه، فلقي وجه ربه في الرابع عشر في شعبان سنة ٦٤٧هـ[١].

ولكن، على الرغم من تلك الانتصارات التي حققها المسلمون في المنصورة، إلا أن الخلافات ظلت قائمة في البيت الأيوبي، حتى كانت النهاية عند مقتل تورانشاه بأمر من زوجة أبيه شجرة الدُّر ولم يتجاوز حكمه واحداً وسبعين يوماً[٢].

وبموت تورانشاه تكون أسدلت الستارة على حكم الدولة الأيوبية، وقامت دولة المماليك البحرية.

---

[١] زين الدين عمر بن الوردي، المختصر في تاريخ أخبار البشر، تح/ أحمد رفعت البدراوي، ط١، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠م، ج٢، ص١٧٨.

[٢] مفرج الكروب ٣/١٢٣-١٢٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٢-الحياة الثقافية في العصر الأيوبي

نشطت الحياة العلمية والثقافية في عهد الدولة الأيوبية، وقد تعددت مناحيها وألوانها وذلك بسبب الأحداث السياسية والعسكرية التي تعرضت لها الأمة الإسلامية في هذه الفترة (٥٦٧هـ-٦٤٨هـ)، فقد شهدت هذه الفترة اهتماماً بمختلف العلوم والمعارف الدينية واللغوية والأدبية، حتى وسم العصر الأيوبي بأنه "عصر إحياء للفكر والثقافة الإسلامية والعربية"[١].

ولعل من أبرز العوامل التي ساعدت على هذه النهضة:

أولاً: اهتمام الحكام الأيوبيين بالعلم والعلماء وتشجيعهم، وإنزالهم المنزلة الرفيعة، وإحاطتهم بالإجلال والإكرام، ويذكر السبكي "أن صلاح الدين جمع حوله رجال العلم، وكان يشهد مجالسهم، ليستمع إليهم ويشاركهم في علومهم"[٢].

وصف ابن شداد صلاح الدين بقوله "وكان رحمه الله شديد الرغبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذي دراية عالية وسماع كثير، فإن كان يحضر عنده استحضره وسمع عليه، فأسمع من كان يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له؛ وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه"[٣].

---

[١]) د. محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ط٤، منشأة المعارف، الأسكندرية، ١٩٩٧م، ص٨٣.

[٢]) تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب أبي نقي السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ج٤، ص٣٣٠.
بدائع الزهور في وقائع الدهور، ١/٢٧٩-٢٨٦.

[٣]) النوادر السلطانية، ص٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما الكامل في مصر فقال عنه المقريزي "كان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم، وعنده شغف بسماع الحديث النبوي، وحدث بالإجازة من أبي محمد بن بري، وأبي القاسم البوصيري، وعدد من المصريين وغيرهم، وتقدم عنده أبو الخطاب بن دحيّة، وبنى له دار الحديث الكاملية بالقاهرة وكان يطلق لمن يأتيه منهم الأرزاق الوافرة الداره"[1].

ثانياً: الانتصارات العظيمة التي حصلت في زمن صلاح الدين على الصليبيين كانتصاره في معركة حطين، واسترجاعه لعدد من القلاع والحصون، كما أضحت هذه الانتصارات أرضية خصبة للأدباء والتغني بها. فهذا ابن سناء الملك[2] يمدح صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ، ويهنئه بكسر الفرنج بعد معركة حطين، مشيداً بهذا الانتصار[3]:

لستُ أدري بأي فَتحٍ تُهنّا ... يا مُنيلَ الإسلام ما قد تَمنّى
أنُهنيك إذ تملكتَ شاماً ... أم نُهنيكَ إذا تملكت عَدْنا
قد ملكت الجنان قصراً فقصرا ... إذا فتحت الشآم حصنا فحصنا
لك مدحٌ فوق السماوات ينشا ... ومحلٌ فوق الأسنة يُبنَى

وأنشد العماد الأصبهاني قصيدة سنة ٥٨٣هـ يهنئ فيها السلطان صلاح الدين بفتح القدس[4]:

---

[1]) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، السلوك في معرفة دول الملوك، قام بنشره محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦، ج١، ص٢٥٨.

[2])أبو القاسم هبه الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن المعتمد سناء الملك، ولد في حدود ٥٥٠هـ وقيل ٥٤٥هـ، أخذ الحديث عن الحافظ السلفي، والنحو عن ابن بري المقدسي، شاعر مصري مشهور. انظر: وفيات الأعيان، ٦/٦١-٦٦.

[3]) القاضي السعيد عز الدين أبو القاسم هبة بن جعفر سناء الملك، ديوان ابن سناء الملك، صححه وعلق عليه/ د. محمد عبد الحق، وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، ط١، ١٩٥٨م، ص٨١٣-٨٢٠.

[4])ديوان عماد الدين الأصبهاني، جمعه وحققه وقدم له/ د. ناظم رشيد، مطابع جامعة الموصل، العراق، ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م، ص٢٣٠-٢٣٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

رأيت صلاح الديـن أفضـل مـن غـدا وأشرف من أضحى وأكرم مـن أمسـى

سـجيتُه الحسـنى، وشـيمتُهُ الرضـا وبطشتُهُ الكـبرى وعزمتُـهُ القَعْسـا[1]

فلا يستحقُّ القدس غـيرُك فـي الـورى فأنتَ الذي مـن دونـهم فتـح القدسـا

واستمر حب العلم والعلماء بعد موت صلاح الدين، فابن تغري بردى يقول عن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل "فإن المعظم كان في غاية ما يكون في الكمال في عدة علوم وفنون، وهو رجل بني أيوب وعالمهم بلا مدافعة"[2].

ثالثاً: المدارس العلمية كانت رغبة الأيوبيين الجامحة في حب العلم، سـبباً مباشـراً فـي تأسيس المدارس، لما لها من أهمية تكمن وراء المعارف التي تدرسها هذه المدارس. ومـن هذه المدارس: المدرسة الكاملية والتي أنشأها الملك الكامل محمد بن الملـك العـادل سـنة ٦٢١هـ، وهي ثاني دار عملت للحديث[3]. والمدرسة الصالحيـة والتـي أنشـأها الملـك الصالح نجم الدين أيوب، وامتدحها الشعراء أمثال السّراج الوراق[4].

مليـكٌ لـه فـي العِلْـمِ حـبٌّ وأهلـهُ فللـهِ حـبٌّ ليـسَ فيـه مـلامُ

يُشـيدُها للعِلـمِ مدرسـةً غَـدَا عِـراقُ أهلِـها إذْ ينسـبونَ وشـامُ

ولم يقتصر بناء المدارس على الملوك، بل تعداه إلى العلماء والأدباء ويذكـر أحمـد شلبي "ويمتاز هذا العهد بأن الأمراء والأميرات والتجار وغيرهم من الأهالي حتى الخـدم

---

[1])القعسا: الثابتة العالية.

[2]) النجوم الزاهرة، ٢٦٨/٦.

[3]) الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، حسن المحاظرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح/ محمد أبـو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٦٨م-١٣٧٨هـ، ج٢، ص٢٦٢.

[4]) حسن المحاظرة، ٢٦٣/٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أسهموا في إنشاء المدارس، ورعاية العلم"[1]. فالمدرسة الفاضلية التي أنشأها القاضي الفاضل[2] سنة ٥٨٠هـ، وتعد هذه المكتبة من المكتبات المعدودة في هذا العصر من جهة، وكون القاضي الفاضل نفسه محباً للعلم والأدب، وقد ذكرها المقريزي في خططه أنه "جعل فيها من كتب القصر مائة ألف مجلد"[3].

أهم المؤلفات في هذا العصر:

أما النتاجات في هذا العصر فكثيرة، منها مؤلفات أدبية، وبلاغية، ونقدية، ودينية، وجغرافية، وتاريخية وغيرها كثير، ولكني سأورد هنا بعض المصنفات التي ألفت حول موضوع النقد والبلاغة، وقد نشطت هذه الدراسات نتيجة تأثرها بالدراسات السابقة لهذا العصر أمثال عبد القاهر الجرجاني في كتابيه أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، والصناعتين لأبي هلال العسكري، ونقد قدامه بن جعفر، وبديع ابن المعتز، والعمدة لابن رشيق، والبديع للتبريزي، ورسالة الآمدي في الرد على قدامة، وإعجاز القرآني للباقلاني، وحلية المحاضرة للحاتمي، وتنقيح البلاغة للعبيدي، وغيرهم[4].

---

[1]) د. أحمد شلبي، التربية الإسلامية نظمها – فلسفتها وتاريخها– ط٦، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م، ص١١٧.

[2])هو أبو علي عبد الرحيم بن علي بن سعيد اللخمي العسقلاني المولد، المصري الدار، ولد سنة ٥٢٩هـ في عسقلان، وكان والده قاضياً في بيسان، كان يعمل في ديوان الإنشاء، استوزره صلاح الدين، وجعله مستشاره لما يمتاز به من رجاحة عقل وقوة فكر، توفي سنة ٥٩٦هـ. انظر: وفيات الأعيان، ٣/١٥٨-١٦٣.

[3]) تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، دار صادر، بيروت، ج٢، ص٣٦٦.

[4]) أحمد أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت)، ص٢٣٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولقد تشعبت كتب الأدب في هذا العصر، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر[١] لابن الأثير.

٢-البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ.

٣-خريدة القصر وجريدة العصر "لعماد الدين الأصبهاني المتوفى ٥٩٧هـ .

ومن مؤلفات هذا العصر كذلك: "الوشي المرقوم في حل المنظوم" و"الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنثور" و"ديوان رسائل ضياء الدين بن الأثير" و"السرقات الشعرية"[٢] وهذه من مؤلفات ضياء الدين بن الأثير.

وعبد الرحيم بن علي بن شيت المتوفى سنة ٦٢٥هـ والذي ألف كتاب "معالم الكتابة، ومغانم الإصابة"[٣].

والقاضي الفاضل الذي ترك مختارات من الرسائل الفاضلية وهي"الفاضل من كلام القاضي الفاضل، والتي جمعها ابن نباتة المصري، وكذلك "الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم" والتي جمعها كذلك العلامة القاضي محي بن عبد الظاهر وقد قام بتحقيقها الدكتور أحمد أحمد بدوي وكذلك "فصول الفصول وعقود العقول" والتي جمعها ابن سناء الملك[٤].

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

[١])قدمه وعلق عليه الدكتور أحمد الحوفي والدكتور بدوي طبانه، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة.

[٢]) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، ص٢٤٥-٢٤٩.

[٣]) الأدب في العصر الأيوبي، ٢٦٧/١.

[٤]) محمد سيد كيلاني، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٤٩، ص١٦٢-١٦٣.

ولابن دحيّة الكلبي المتوفى سنة ٦٣٣هـ، كتابٌ سماه "المطرب في أشعار أهل المغرب" وهو المؤلف الوحيد له في الأدب، إذ يغلب على مؤلفاته السيرة النبوية والحديث، والفقه، والبلدان[١].

ومن أدباء الصعيد جعفر بن شمس الخلافة المتوفى سنة ٦٢٢هـ، والذي ألف كتاب الآداب، والذي يبين تأثره بابن المقفع من خلال ما قرأ له وخاصة كليلة ودمنة[٢].

وعبد العظيم بن أبي الإصبع المتوفى سنة ٦٥٤هـ، ألف كتاباً سماه "تحرير التحبير في علم البديع" وكتابه "الشافية في علم القافية" و"الخواطر السوانح في كشف سرائر الفواتح"[٣].

وما ذكرته من المؤلفات العلمية والأدبية، إنما هو قليل من كثير حاولت في ذلك أن أقف عليه لمعرفة اتجاهات الحركة الأدبية التي شهدها هذا العصر.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

[١]) الأدب في العصر الأيوبي، ص٣١٨-٣١٩.

[٢]) المرجع نفسه، ٢٦١-٢٦٣.

[٣]) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، ص٢٤٩-٢٥٠.

الفصل الثاني

المبحث الأول: الرسائل الديوانية

- الرسائل الديوانية ونشأتها في العصر الأيوبي
- أقسامها

أولاً - الرسائل السياسية

أ. رسائل تصدر إلى الخلفاء العباسيين

ب. رسائل صادرة من الخلفاء إلى الولاة والحكام

ج. المنشورات

د. التقاليد

هـ. المراسيم

ثانياً - الرسائل الحربية - الجهادية

أ. رسائل الحث على الجهاد

ب. رسائل البشارة والتهنئة بالانتصارات

ج. رسائل الاستنجاد

د. رسائل التهديد والوعيد.

المبحث الثاني: الرسائل الإخوانية

-مفهوم الرسائل الإخوانية

-أنواع الرسائل الإخوانية.

أ. رسائل التهنئة

ب. رسائل التعزية

ج. رسائل الاعتذار والمعاتبة

د. رسائل المهاداة وطلب المودة

ه. رسائل الشكر

و. رسائل الشوق

ز. رسائل الشفاعة والعناية

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

دلت الدراسات على أن الأدباء والنقاد السابقين للعصر الأيوبي ، قد بينوا أن للكتّاب ثقافة لا يستغني عنها أي كاتب .

فقد قال عبد الحميد بن يحيى في رسالة للكتّاب " فنافسوا معشر الكتّاب في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين ، وأبدأوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض، والعربية ، فإنها تقاف ألسنتكم ، وأجيدوا الخط ، فانه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ..."[1].

هذه إرشادات من عبد الحميد الكاتب أوضح فيها لزملائه الكتّاب، الثقافة التي يجب أن يأخذوا بها، فهو قد جمع بين الثقافة الدينية والثقافة العربية، ثم معرفة الكاتب بأيام العرب والمعجم.

وتعددت آراء النقاد بعده، حيث كثرت الأحاديث عن صنوف الثقافات التي ينبغي أن يتمتع بها الكاتب، وعن العلاقة بين موضوع الكتابة ونوع الثقافة التي يحتاج إليها الكاتب.

فابن قتيبة الذي خصّ كتّاب الرسائل الديوانية بما يلزمهم من ألوان المعرفة والعلوم، حيث قال " يجب أن يزود الكتّاب ببعض النصائح والإرشادات التي يجب مراعاتها عند ممارسة الكتابة، كأن يتجنبوا في كتاباتهم الوحشي الغريب، وتعقيد الكلام، وأن يجانبوا التقعير والتعقيب، وأن يراعوا المقام، فينزلوا ألفاظهم في كتبهم على قدر الكاتب والمكتوب إليه، وألاّ يعطوا خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس وضيع الكلام كما يوصيهم بالعمل على تناسق كتبهم والمجانسة بين الألفاظ والغرض، وافتتاح

---

[1]) ابو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، الوزراء والكتّاب، قدم له/د. حسن الزين، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٨، ص٥١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الكتاب وموضوعه ثم معرفة مواطن الإيجاز ومواطن الإطالة.." [1] وعند الاطلاع على ما أورده ابن المدبر، نرى أن ابن قتيبة كان يتحدث بشكل عام للمترسلين، حيث قسم ابن المدبر المترسلين حسب طبيعة عملهم، ولكل واحد منهم ثقافة ولون من المعارف خاص به " فكاتب المجلس محتاج إلى أن يكون حاذقا باقتصاص الكتب وترتيب أبوابها في المعاملة..."[2]. أما كاتب العامل فيحتاج إلى أن يكون متحرفاً (متمرسا) بعلم الزرع والمساحة..."[3].

أما ابن الأثير، فقد عدد بعض المعارف أو الأدوات التي لا يستغنى عنها:

١. معرفة علم العربية من النحو والصرف.

٢. معرفة أمثال العرب وأيامهم، ومعرفة الوقائع التي جاءت حوادث خاصة بأقوام، فان ذلك جرى مجرى الأمثال أيضا.

٣. معرفة ما يحتاج إليه من اللغة، وهو المتداول المألوف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشي الغريب، ولا المستكره المعيب.

٤. الاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة.

٥. معرفة الأحكام السلطانية في الإمامة والإمارة والقضاء والحسبة وغير ذلك.

٦. حفظ القرآن الكريم، والتدرب باستعماله وإدراجه في مطاوي كلامه.

٧. حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبي عليه السلام والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال..."[4].

---

[1]) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أدب الكاتب، تح/ محمد الدالي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، ص ١٢-٢٠.

[2]) أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تح/ د. احمد مطلوب و د. خديجة الحديثي، ط١، جامعة بغداد، ١٩٦٧م، ص ٣٥٧.

[3]) المصدر نفسه، ص ٣٥٩.

[4]) المثل السائر، ص ٣/٤٠-٤١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الأول: الرسائل الديوانية

يمكن تعريف الرسائل الديوانية بأنها "لون من المكاتبات الرسمية الصادرة عن ديوان الرسائل"[1] وتكون هذه الرسائل معالجة لشؤون الإدارة والحكم في الدولة، ويرجع سبب تسميتها بالديوانية لأنها تصدر عن ديوان[2] الإنشاء، والذي كان يعرف أيضاً بديوان الرسائل.

وقد سميت كذلك "بالكتابة السلطانية والتي تعنى بأمور الدولة وأمور السلطان في الداخل والخارج[3] نسبة إلى السلاطين الذين تصدر عنهم هذه المكاتبات، وقد عُدت الرسائل بنوعيها الديوانية والإخوانية نوعاً من أنواع دائرة الأدب لإسلوبها الأدبي الفني الرفيع،لأنه من الواضح، أن من كان يقوم على ديوان الإنشاء يجب أن يتمتع بميزات تؤهله لأن يكون من كبار الأدباء، لذلك عند صياغة هذه المراسلات تكون ذات صبغة أدبية بلاغية مع مراعاة أصول العمل الأدبي وعناصره الفنية.

وقد عرف غانم جواد الرسائل الديوانية بأنها "ما يصدر عن ديوان الرسائل من مكاتبات رسمية مختلفة، أُمليت على الكاتب أو أنشأها بنفسه، وحبرّها بأسلوبه على لسان

---

[1]) غانم جواد رضا، الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، نشر جامعة بغداد، ١٩٧٨، ص٢١٧.

[2]) هو مكان مجتمع الصحف ، وهو الذي يجلس فيه الكتّاب وهو بكسر الدال، وقال ابن الأثير: هو الدفتر الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء. وهي كلمة فارسية معربة، أبو الفضل جمال الدين بن محمد ابن منظور. لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ت). مادة دون). المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ، مطابع دار المعارف، جمهورية مصر العربية، ١٩٨٠، ج١، ص٣٠٤.

[3]) احمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط٢، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٣٠٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الخليفة، أو من ينوب عنه "[1]. إذن ، جميع هذه التعريفات أراها تتفق على جملة واحدة فيما بينها ألا وهي مكان صدور هذه الرسائل وهو ديوان الإنشاء.

ويجدر بنا إن نبين متى نشأ هذا النوع الأدبي – الرسائل الديوانية –

يرجع صاحب صبح الأعشى نشأة الديوان إلى عهد الرسول عليه السلام فيقول: "اعلم أن هذا الديوان أول ديوان وضع في الإسلام ، ذلك أن الرسول عليه السلام كان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه ... ويكاتبونه..." [2].

أما نشأة الرسائل الديوانية ، فيجدر بنا العودة إلى الوراء، إلى زمن الرسول عليه السلام، إذ تعددت آراء الباحثين في هذه النشأة، فمنهم من يرى أن هذا النوع من الأدب، يعود تاريخه إلى عهد الرسول عليه السلام، ولكنه كان بشكل غير فني، يقول طه حسين:"احتاج المسلمون إلى أن يكتبوا، فكتب النبي رسائله، وكتب الخلفاء من بعده، ولكن هذه الرسائل التي كانت تُكْتَبُ كانت مختصرة لا يُقْصَدُ منها إلاّ مجرد الأداء، في غير تفنن أو إثارة لجمال فني خاص "[3].

ونتيجة للأحداث التي توالت على الدولة الإسلامية في زمن أبي بكر رضي الله عنه – ظهر هذا النوع من الرسائل، وكانت تسمى بالرسائل الحربية[4].

ومنهم من يرى، أن ظهور هذا النوع على يد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان[5]، حيث يذكر غانم جواد ويقول " ولعل أول مراحل هذا اللون من المكاتبات الصادرة عن الديوان الرسمي، كان في مطلع هذا العصر – الأموي – على عهد

---

[1]) غانم جواد. الرسائل الفنية، ص ٢٠٣.

[2]) ابي العباس أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج١ ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، د. ت)، ص ٩١.

[3]) د. طه حسين، من حديث الشعر والنثر، ط١٠، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م، ص٢٦.

[4]) الرسائل الفنية ، ص ٨٣ وما بعدها.

[5]) هو معاوية بن ابي سفيان، توفي بدمشق في رجب وله ثمان وسبعون سنة، ولي الشام لعمر بن الخطاب، ثم لعثمان عشرين عاماً، ثم لعلي بن أبي طالب، كان من دهاة العرب وحلمائها، وهو أحد كتبة الوحي، وهو الميزان في حب الصحابة، مؤسس الدولة الأموية ، توفي سنة ٦٠هـ. انظر: شذرات الذهب، ٦٥/١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

معاوية"[1] ويذكر الجهشياري " بان عبد الله بن أوس الغساني كان يكتب لمعاوية على الرسائل"[2] وهذا ملمح واضح أن معاوية أول من أنشأ هذا الديوان المختص، نظرا لحاجة الدولة لهذا الديوان.

وترى طائفة أخرى أن ديوان الإنشاء لم يتشكل ويظهر بمفهومه الحقيقي إلا في أواخر العصر الأموي، حيث أصبح الكتّاب هم الذين ينشئون الرسائل بأسلوبهم [3] ولم تكن وظيفتهم مجرد كتابة ما يملى عليهم دون زيادة أو نقصان كما كان سابقاً.

أما في الدولة الأيوبية – مجال الدراسة –، فقد ورثت هذه الدولة ديوانين أحدهما في مصر عن الدولة الفاطمية، والذي كان يقوم عليه أحد أعلام الكتابة وهو القاضي الفاضل وهو الذي أحتل المكانة المرموقة، والذي قال عنه السلطان صلاح الدين " والله ما ملكت البلاد بسيوفكم ولا برماحكم، ولكن بقلم القاضي الفاضل"[4] ويذكره صديقه العماد الأصفهاني " رب القلم والبيان واللسن واللسان، والقريحة والوقارة، والبصيرة النفادة، والبديهة المعجزة...[5] هذا القاضي الفاضل الذي بلغ شأواً بعيداً في ترسله، فضلا عن أنه كان يجمع الكتابة والوزارة في الدولتين من جهة، والبراعة الأدبية والحنكة السياسية والإدارية. وقال عنه النويري " إلى القاضي الفاضل انتهت صناعة الإنشاء ووقفت، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت، ومن بحر علمه رُوِيَت ذوو الفضائل واغترفت، وأمام فضله ألقت البلاغة عصاها، وبين يديه استقرت به نواها، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره، وناثر ألوية الفضل في مصره وغير مصره، ورافع علم البيان لا محالة،

---

[1]) الرسائل الفنية، ص ٢٠٣.

[2]) كتاب الوزراء والكتاب، ص ٢٢.

[3]) د. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ط٥، دار العلم للملايين ، بيروت، ١٩٨٤، ج١، ص٣٧٥.

[4]) شذرات الذهب، ٣٢٧/٤.

[5]) د. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط٦، دار المعارف بمصر، ١٩٧١م، ص ٣٧٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والفاضل بغير إطالة"[1]. وقال عنه الأدباء المحدثون أمثال شوقي ضيف " كـــان القـاضي الفاضل هو الدولة الصلاحية، كان كاتبها ووزيرها، وصاحبها ومشيرها، والحاكم في كلـها، والمجهّز لبعوثها"[2].

أما الديوان الآخر الذي ورثته الدولة الأيوبية فهو ديوان دمشق، الذي كـــان يقـوم عليه العماد الأصبهاني والذي كان يحتل المرتبة الثانية بعد القاضي الفاضل.

وكان هناك كثير من الكتاب في هذا العصر، أذكر منهم:

- كمال الدين بن النبيه[3]. الذي كتب في ديوان الأشرف موسى بن الملك العادل[4].
- عبد الرحيم بن شيث الإسنائي[5]. الذي كان صاحب ديوان الإنشـــاء للملـك المعظـم عيسى في دمشق.
- البهاء زهير[6]. رئيس ديوان الإنشاء للملك الصالح نجم الدين بن أيوب بمصر.

---

[1]) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصريـة العامـة للتـأليف والترجمة والطباعة والنشر، نسخة مصورة عن دار الكتب، القاهرة، د.ت)، ج٨، ص١.

[2]) الفن ومذاهبه ، ص ٣٦٩.

[3]) هو العلامة كمال الدين أبو الحسن علي بن محمد بن النبيه المصري، الكاتب الشاعر، صاحب ديـوان رسـائل الملك الأشرف موسى بن العادل. له ديوان شعر كله مَلْحٌ. توفي سن ٦١٩هـ. انظر: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٠٠ نسخة مصورة عن دار الكتب).

[4]) هو الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن السلطان الملك العادل، كان أمير الرها في أيام أبيه، ولد سنة ٥٧٨هـ بقصر الزمرد بالقاهرة، كان حليماً وكريماً، وكثير العطايا للرعيه، وواسع ا لصدر، مات بدمشق سنة ٦٣٥هـ. النجوم الزاهرة، ٣٠٠/٦ نسخة مصورة عن دار الكتب).

[5]) هو عبد الرحيم بن علي بن الحسين بن شيث الإسنائي، ولد بإسنا سنة ٥٥٥هـ، ولي ديوان الإنشاء بقوص ثـم بالإسكندرية ثم بالقدس، وبعد ذلك ولي كتابة الانشاء للملك المعظم عيسى في دمشق، صاحب كتاب معالم الكتابة ومغانم الإصابة، توفي سنة ٦٢٦هـ، وفي بعض المصادر ٦٢٥هـ.

النجوم الزاهرة، ٢٤٠/٦.

خير الدين الزركلي، الأعلام، ط٣، ١٩٦٩، ج٤، ص١٢١.

[6]) هو أبو العلاء بهاء الدين زهير بن محمد بن عاصم، كاتب وشاعر مشهور، صاحب ديوان البهاء زهير، ولد سنة ٥٨١هـ بالقرب من مكة المكرمة، كان أديباً بارعاً في النظم والنثر والترسل، اتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين بن ايوب في حياة أبيه الكامل، توفي سنة ٦٥٦هـ. النجوم الزاهرة، ٦٢/٧ نسخة مطابع كوسـتا تسـاموس وشـركاه، القاهرة).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وبالرغم من الرعاية التي كانت لهؤلاء الكتّاب، إلاّ أن نتاجاتهم تعدُّ قليلـــة إذا مـــا قورنت بنتاج القاضي الفاضل والأصبهاني. وتكمن أهمية الرسائل في غرضين:

الأول: تظهر أهميتها من خلال الدور الذي تقوم به في حمل أعباء الأحداث السياسية التـي تمر بالأمة الإسلامية، فتكون هي اللسان المعبّر عن حال الدولة وما تعانيه مـــن كفاح مستمر ضد أعداء الأمة الإسلامية – كما سنرى–.

الثاني: تبين هذه الرسائل الصورة الواضحة للسياسة والحكم في الدولة، وذلك عن طريـــق المنشورات التي تذاع على الشعب، أو الرسائل التي كانت توجّـــه إلـــى القـــادة والولاة، فهي بمثابة إعلام قوي يربط بين الراعي والرعية، وبين القائد وأمرائـــه وولاته داخل الدولة.

أنواع الرسائل الديوانية:

أولاً: الرسائل السياسية

لقد تعددت أنواع الرسائل الديوانية وفـــق موضوعـــها، إلـــى نوعيـــن: السياســـية والحربية. أما السياسية: فهي التي تعبّر عن طبيعة العلاقة السياسية العامـــة فـــي الدولـــة. ونتيجة لعدة عوامل تعاضدت مع بعضها، كتعقد نظام الحكـــم السياســـي والإداري للدولـــة العباسية، وكثرة الدواوين وتنوعها، وكثرة المؤهلين من الكتّـــاب فـــي مختلـــف الأقـــاليم الإسلامية، والاهتمام بالكتّاب والاعتماد عليهم في تسيير أمـــور الدولـــة وتوليـــهم أرقـــى المناصب وغير ذلك من العوامل. نشط هذا النوع من الرسائل، وتنوعت الرسائل السياسية، وذلك بسبب تعدد أغراضها، ويمكن تقسيمها إلى أنواع:

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أ. رسائل تصدر إلى الخلفاء العباسيين.

ب. رسائل تصدر من الخلفاء إلى الولاة والحكام لتصريف أمور الدولة.

ج. المنشورات.

د. التقاليد.

هـ. المراسيم.

وفيما يلي عرض موجز لهذه الأنواع:

أ: رسائل تصدر إلى الخلفاء العباسيين.

إن هذا النوع من الرسائل السياسية يرصد طبيعة العلاقة بين الخلافة العباسية والدولة الأيوبية، ويظهر كذلك مدى التعاون الإداري بينهما من خلال خلافة العاضد والمستضيء بالله"[1] وفي ظل الظروف السياسية السائدة في ذلك العصر بعد أن ترسم سياسة سلفه نور الدين محمود الذي كان يكن للعباسيين عظيم التقدير والولاء، فمد جسور الولاء، وفوق ذلك كله أن صلاح الدين كان يستمد من الدولة العباسية تفويضها السياسي له على جميع الممالك[2].

من هنا، نرى أن الرسائل الصادرة إلى الخلفاء العباسيين تتخذ طابع الولاء والطاعة للدولة العباسية، لأن الدولة العباسية في نظر الأيوبيين هي الدولة الإسلامية

---

[1]) هو ابو محمد الحسن بن المستنجد بالله، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه، كان عادلا حسن السيرة في الرعية، كان حليما، عاش حميدا ومات سعيدا، في عهده انقرضت الدولة الفاطمية وظهرت الدولة الأيوبية، توفي سنة ٥٧٥هـ. الشيخ محمد الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة العباسية-، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ص ٤٢٦.

[2]) انظر: الفتح القسي، ص ٦٥٠-٦٥٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الكبرى في ذلك الوقت، لذلك كان من الطبيعي أن تكون الرسائل تصدر من إمام المسلمين وولي أمرهم.

وفي الرسالة التي وجهها صلاح الدين إلى المستضيئ بأمر الله، يذكر فيها انتصاراته في البلدان ويبين كذلك المكانة العالية التي يتمتع بها الخليفة العباسي، يقول القاضي الفاضل: " **الأمير الفقيه شمس الدين خطيب الخطباء[1].... يتوجه بعد الاستخارة، ويقصد دار السلام، والخطة التي هي عش بيضة الإسلام، ومجتمع رجاء الرجال، ومتسع رحاب الرجال فإذا نظر تلك الدار الدارّ سحابها، وشافه بالنظر معالم ذلك الحرم المحرم على الخطوب خطابها، ووقف أمام تلك المواقف التي تحسد الأرجل عليها الوؤوس ... ... فليمطر الأرض هناك عنّا قيلا تخطها بأعداد لا نحصلها، وليسلم عليها سلاماً نعتده من شعائر الدين اللازمة وسنن الإسلام القائمة**"[2].

واستمر هذا الولاء وهذا التقدير طيلة العهد الأيوبي، فالملك الأفضل بن صلاح الدين بقي على هذا الولاء. ففي رسالة كتبها عنه العماد الأصفهاني عن الملك الأفضل يقول:"**أصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروع بالولاء ، وقلبه معمور بالصفاء ، ويده مرفوعة إلى السماء للابتهال بالدعاء ، ولسانه ناطق بشكر النعماء ، وجنانه ثابت من المهابة والمحبة بين الخوف والرجاء ، وطرفه مغض من الحياء ، ووجهه مقبل نحو قبلة الاستجداء، وهمته في العبودية فارعة ذروة العلاء، وهو للأرض مقبل، للفرض**

---

[1]) هو شمس الدين بن أبي المضاء البعلبكي ، كان يتولى الرسائل إلى الديوان العزيز في بغداد، وهو أول خطيب بالديار المصرية للدولة العباسية، وكان له مكانة راقية عند الملوك والأمراء، توفي سنة ٥٧٢هـ. انظر : الروضتين، ٢٦٣/١ طبعة دار الجيل).

[2]) صبح الأعشى، ٨١/١٣-٩٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

متقبل، وبالطاعة مائل، وللاستطاعة باذل[1]".ومن هنا يمكن اعتبار هاتين الرسالتين أنموذجين للرسائل التي كانت ترسل إلى الخلفاء العباسيين بين الحين والآخر ، والتي تعبر عن الأحداث العسكرية التي قامت بها الأسرة الأيوبية في ذلك العصر ، والتي أصبحت فيما بعد صفحات متلألئة في تاريخ الأمة الإسلامية .

ب: رسائل صادرة من الخلفاء إلى الولاة والحكام :-

نتيجة طبيعية للأحداث السياسية والعسكرية التي مر بها العالم الإسلامي في تلك الفترة من الحروب الصليبية وغيرها ، حظي الولاة والقادة بنصيب وافر من الرسائل السياسية ، والتي كانت غالبا ما تتعلق إما بالشؤون الداخلية للدولة ، أو الخارجية منها .

ولو تصفحنا هذه الرسائل ، لوجدنا أن جل هذه الرسائل تدور حول موضوع جمع كلمة المسلمين ، وتوحيد صفوفهم للمواجهة ضد الأخطار المحدقة بالعالم الإسلامي وكذلك إشعال فتيل الحماس للجهاد في سبيل الله في نفوس المسلمين , وما إلى غير ذلك من المضامين التي تدور حول كيفية توحيد المسلمين .

وقد كان لصلاح الدين نصيب وافر من تلك الرسائل ، التي كان يسعى من ورائها إلى توحيد الأمة الإسلامية ضد الغزو الصليبي ، ويحث القادة على التوحد والتماسك ، ونبذ الفرقة والانقسام ، ومن تلك الرسائل تلك الرسالة التي وجهها إلى شرف الدين بن أبي عصرون[2] بعد أن وصله خبر الأمراء النورية في الصلح مع الفرنج على قطيعة من بيت

---

[1]) الفتح القسي، ص٦٥١.

[2]) هو أبو سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون التميمي، الملقب بشرف الدين كان من أعيان الفقهاء وفضلاء عصره، درس بالموصل، أقام بسنجار فترة ثم انتقل إلى حلب، قدم دمشق لما ملكها نور الدين محمود، تولي أوقاف المساجد، له من المصنفات: صفوة المذهب من نهاية المطلب، سبع مجلدات، الانتصار، أربع مجلدات، المرشد/ مجلدين وغيرهما، ولد سنة ٤٩٢هـ وقيل سنة ٤٩٣هـ)، وتوفي سنة ٥٨٥هـ بدمشق.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مال المسلمين ، في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين يتأهب لمحاربتهم فيقول: "ورد الخبر بصلح بين الفرنج والدمشقيين ، وبقية بلاد المسلمين ما دخلت في العقد ، ولا انتظمت في سلك هذا القصد ، والعدو لهما واحد ، وصرف مال الله الذي أُعدَّ لمغنم الطاعة ، ومصلحة الجماعة ، في هذه المعصية المغضبة لله ولرسوله ولصالحي الأمة، وكان مذخوراً لكشف الغمة ، فصار عونا ، ....فلما بلغنا الخبر ...سيرنا .. من يُعرّفهم قدر خطر هذا الارتباك ، وأنه ربما عُجِزَ عن الإستدراك، وإن العدو طالب لا يغفل ، وجادّ لا ينكل ، وليث لا يضيع الفرصة ، مجد لا يميل إلى الرخصة ، فإن كانت الجماعة ساخطين فيظهر إمارات السخط والتغيير ، ولا يمسك في الأول فيعجز عن الأخير ، لا سيما ونحن نغار لله ونغير ، ونقصد للمسلمين ما نجمع به صلاح الرأي وصواب التدبير[1].

وقارئ هذه الرسالة، يرى كيف حدد صلاح الدين في بدايتها بالتعريف بهذا العدو الذي لا يفتأ أن يغير على الإسلام والمسلمين في أية فرصة يراها مناسبة له ، ليفتك بهم والإطاحة والتنكيل بالمسلمين ، وتوضح الرسالة كذلك المعاني السامية التي كان ينشدها صلاح الدين والسعي وراء اتحادهم واجتماع كلمتهم في جميع الأحوال . وله كتاب يرد فيه على ابن المقدم بالإنشاء الفاضلي يبين فيه أنه لا يريد أي مصلحه له سوى جمع الشمل وتأليف الكلمة[2].

انظر: وفيات الأعيان، ٣/٥٣-٥٧.

شذرات الذهب، ٤/٢٨٣.

[1]) الروضتين، ٢/٢٣٣ طبعة دار الجيل).

[2]) الروضتين، ١/٢٣٤ طبعة دار الجيل).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ج: المنشورات .

وكانت المنشورات تخرج من الديوان السلطاني وتقرأ على النـــاس بغيـــة التبليـــغ والإفهام في الأمور الإدارية للدولة أو الحربية، ويبدو أن المنشورات في العصر الأيوبـــي كانت تركز على الإصلاحات الإدارية للدولة ،والقضاء على مواطن الفساد ومعاقله ،نتيجـــة الأحوال العامة للدولة التي خلفها العهد الفاطمي، وقد حاول صلاح الدين أن يجعل من هـــذا اللون النثري، وسيلة لإبلاغ الناس الأوامر ومبينا سياسته، وشارحا أهدافه للعمل بما جـــاء بهذا المنشور ومن هذه المنشورات ما كان يرسله ديوان الخلافة إلى الأقاليم يعلن فيه بـــدء السنة الهجرية، أو العيد أو بدء شهر رمضان، وكثيراً ما يكتبون هـــذه المنشـــورات علـــى النهج التقليدي من بدء بالحمد لله،والصلاة على رسوله وذكر مقدمـــة تناســـب الموضـــوع، ويختم الأمر بالدعاء للسلطان.

ومن أمثلة ذلك، ما أصدره صلاح الدين من منشور إلغاء ضريبـــة المكـــوس فـــي الرقة، التي كانت مفروضة على التجار إبان العهد الفاطمي، فيقول:"**إن أشقى الأمراء مـــن سمن كيسه، وأهزل الخلق وأبعدهم من الحق مـــن أخـــذ البـــاطل مـــن النـــاس وســـماه الحق،ومن ترك شيئا عوضه، ومن أقرض الله قرضا حسنا وفاه ما اقرضه** "[1].

من هذه المنطلقات الإيمانية التي نادى بها صلاح الدين التي تنم عن إيمـــان قـــوى نابع من الحرص القوى على الأجر والثواب الجزيل من الله سبحانه وتعالى، وتنبيه للنـــاس بان يتركوا الكسب غير الحلال والحرص على الكسب الحلال والمشروع .

ومن المنشورات الموجهة إلى رعايا الدولة،ذلك المنشور الذي طالب فيه إلغاء نظـــم غير إسلامية في نظر الأيوبيين، كالمنشور الذي قرأه على الناس بإلغاء التقويم الشمســـي،

---

[1]) الروضتين، ٤٧/٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لأنه مخالف للشريعة الإسلامية والاستعاضة عنه بالتقويم الهجري أو القمري، كتب الفاضل عن الملك الناصر كتاباً يقول فيه:

"ولما استهلت سنة كذا الهلالية ، وقد تباعد ما بينها وبين السنة الخراجية إلى أن صارت غلاتها منسوبة إلى ما قبلها، وفي ذلك ما فيه : من أخذ الدرهم المنقود عن غير الوقت المفقود، وتسمية بيت مال ممطلاً وقد أنجز، ووصف الحق المتلف بأنه دَيْنٌ وقد أعجز ، وأكل رزق اليوم وتسميته منسوباً إلى أمسه ، وإخراج المعتد لسنة هلاله إلى حساب المعتد إلى سنة شمسه وكان الله تعالى قد أجرى أمر هذه الأمة على تاريخ منزه عن اللبس ، موقر عن الكبس ، وصرّح كتابه العزيز بتحريمه ، وذكر ما فيه من تأخير وقت النسيء وتقديمه ... فليستأنف التاريخ في الدواوين المعمورة ، لاستقبال السنة المذكورة ، بأن تُوسَمُ بالهلالية الخراجية لإزالة الإلتباس..."[1].

ويبين هذا المنشور الفارق بين السنة القمرية والسنة الشمسية ، وما يلحق من ضرر ببيت مال المسلمين، وأثره على الغلاّت الزراعية . ومن المعروف أن السنة القمرية تقل عن السنة الشمسية أحد عشر يوماً تقريباً، وهذا التأخير المقصود بالأثر السيئ . وكانت هناك عدة منشورات صدرت في العصر الأيوبي كمنشور لإلغاء ضريبة المكوس في حلب وغيرها ، وعادةَ ما كانت هذه المنشورات تُقرأ في المساجد لأن الناس كانوا يجتمعون لسماع ما يَطرأ من أمور سياسية جديدة .

---

[1]) انظر: صبح الأعشى، ١٣/٧١-٧٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

د: التقاليد :

وهو من أنواع النثر الذي يتعلق برأس الدولة، كالتقاليد التي كان يرسلها أو يوجهها الخلفاء أو السلاطين إلى من يريدون توليتهم مركزاً إدارياً في الدولة . فالتقاليد لغة : ما جعل في العنق ، ويكون للإنسان والفرس والبدنة التي تهدى وغيرها .

وقلده الأمر "ألزمه إياه"[1].

وأورد صبح الأعشى معنى التقليد بقوله "ج . تقليد ، يقال قلدته أمر كذا إذا وليته إيّاه"[2] ويمكن القول بأن التقاليد كانت تأتي من بغداد ، منذ سقوط الدولة الفاطمية ، إلى أن عادت الخلافة العباسية ، فلما استقر حكم الخلفاء العباسيون بمصر ، كتبوا التقاليد لسلاطين مصر.

وفي الأغلب أن التقاليد تشتمل على موضوعات تكون ذات صله وثيقة بالدولة والرعية، فتشمل على التوجيهات والوصايا التي تعين صاحب التقليد – المرسل إليه – على القيام بمهام عمله على أتم وجه وخير قيام ، ويتعلق بعضها بالوصايا الدينية وقضاياها، كالعدل والإحسان ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحث على الإخلاص في العبادات والمعاملات. ويتعلق البعض الأخر باختيار أعوانه بدقة – كما سنرى في المراسيم – ، والحث على الجهاد .

---

[1]) المعجم الوسيط، ٧٥٤/٢.

[2]) صبح الأعشى، ١٠١/١١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن هذه التقاليد تقليد كتب ضياء الدين بن الأثير عن الملك الأفضل علي بن صلاح الدين إلى القاضي زين الدين بن بندار[1]، أقتطِفُ بعضاً منه، فقد بين هذا التقليد أهمية منصب القاضي أو القضاء التي يحتلها في الإسلام:

"منصب القضاء من المناصب بمنزلة المصباح الذي به يستضاء، أو بمنزلة العين التي عليها تعتمد الأعضاء، وهو خير ما رقمت به الدول مسطورها، وأجزلت به منذور ثوابها، ... وقد جعله الله ثاني النبوة حكماً ووارثها علماً"[2].

ويحدد هذا التقليد الصفات التي يجب أن تتوافر في صاحب هذا المركز **"وقد أجلنا النظر مجتهدين، وعوّلنا على توفيق الله معتضدين، وقدّمنا قبل ذلك صلاة الإستخارة، وهي سنة متبوعة، وبركة في الأعمال موضوعة، لا جرم أنّا أرشدنا في أثرها إلى من صرّح الرشد بآثاره ... وقد قلدناك هذا المنصب مدينة مصر وأعمالها"[3].**

وقد بين هذا التقليد كذلك أهم الوصايا والتوجيهات، تجعله يستنير الطريق في عمله وهذه الوصايا، كالاعتدال في الحكم والأموال، والنظر في الحكام القائمين على مجلس الحكم، ثم الوصايا للقاضي بأن يأخذ حذره من الشهود، الذي أصبحت الشهادة تسأل وسؤالها من الحرام لا من الحلال، أما الوصية الرابعة فأنها مقصورة على كاتب الحكم

---

[1]) هو زين الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن عبد الله بن بندار الدمشقي، راوي مسند الشافعي عن أبي زرعة بن طاهر، تفقه على أبيه، قاضي الديار المصرية، تميز في المذهب.
مات في جمادى الآخرة سنة ٦٢٢ هـ، وله اثنتان وسبعون سنة.
انظر: سير أعلام النبلاء، ٢٢/٢٩٦-٢٩٧.
حسن المحاظرة، ١/١٩١-١٩٢.
النجوم الزاهرة، ٦/٢٦٣.

[2]) حسن المحاظرة، ٢/١٥٤.

[3]) حسن المحاظرة، ٢/١٥٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

حيث يقول :"لكن عندنا أربع وصايا لابد من الوقوف فيها .. فالأولى منهن وهي المهم الذي زاغت عنه الأبصار، وهلك من هلك فيه من الأبرار... ذلك هو التسوية في الحكم في أقوالك وأفعالك .. وإذا استقللت بهذه الوصية فانظر فيما يليها من أمر الوكلاء القائمين بمجلس الحكم ... فأرح الناس من هذه الطائفة المعروفة بنصب الحبالة التي تأكل الرشاء... وكذلك فأنظر في الوصية المختصة بالشهداء، فإنهم قد تكاثرت أعدادهم وأهمل انتقادهم، وصار منصب الشهادة يسأله، وسؤاله من الحرام لا من الحلال .. وأما الوصية الرابعة فإنها مقصورة على كاتب الحكم الذي إليه الإيراد والإصدار، وهو المهيمن على النقض والإمرار، وينبغي أن يكون عارفا بالحلي والوسوم، والحدود والرسوم، وأن يكون فقيها فيها بالبيوع والمعاملات، والدعاوي والبينات..."[1].

ثم يختتم تقليده بالتذكير بيوم القيامة وما سيلاقيه القاضي من محاسبة من الله سبحانه تعالى "واعلم أنا غدا وإياك بين يدي الحكم العدل، التي لا تكف لديه الألسنة عن خطابها، وتستنطق الجوارح بالشهادة على أربابها، ولا ينجو منه حينئذ إلا من أتى الله بقلب سليم..."[2].

وهناك كثير من التقاليد المنتشرة في المصادر، تدور موضوعاتها حول هذه الأمور، فهناك تقليد من الخليفة العباسي ببغداد إلى الملك العادل، وفيه افتتح الكاتب التقليد بالحمد والثناء، وبالآيات القرآنية، وبين قدرة الله تعالى عز وجل وصانع هذا الكون، ثم عرض إلى كثير من الوصايا والنصائح والإرشادات التي يتحتم على الملك العادل أن يراعيها في الرعية، بحيث يقود رعيته إلى سبيل الهداية والرشد، ونشر العدل والإحسان

---

[1]) حسن المحاظرة ، ٢/١٥٦-١٥٨.

[2]) حسن المحاظرة ، ٢/١٥٦-١٥٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بينهم، واتخاذ سبيل الطاعة والرشاد، والدعوة له بالتوفيق في هذه النصائح وغيرها، كذلك الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله ضد هؤلاء المعتدين، أعداء الأمة الإسلامية، والأمر بالشورى تبعاً لقوله تعالى "**وأمرهم شورى بينهم**"[1] وقوله تعالى "**وشاورهم في الأمر**"[2]. وأشار التقليد كذلك إلى وضع المعايير الخاصة للأشخاص الذين يجب على الملك العادل أن يضعها نصب عينيه عند توليتهم على مرافق الدولة "**وأمره أن يتخير من أولي الكفاءة والنزاهة من يستخلصه للخدَم والإعمال، والقيام بالواجب: من أداء الأمانة والحراسة والتمييز لبيت المال وأن يكونوا من ذوي الإضطلاع بشرائط الخِدَم المعينة وأمورها، والمهتدين إلى مسالك صلاحها وتدبيرها. وأن يتقدم إليهم بأخْذ الحقوق من وجوهها المتيقنة، وجبايتها في أوقاتها المعينة .. وأمره أن يتطلع على أحوال كلٍّ من يستعمله من أمر من الأمور .. وعملاً فيه بقول النبي صلى الله عليه وسلم "كُلُّكُمْ راعٍ، وكلكم مسئولٌ عن رعيته ..**"[3].

هـ: المراسيم:

جمع مرسوم، وهو في اللغة: ما يصدره رئيس الدولة كتابة في شأن من الشئون فتكون له قوة القانون. والمرسوم بقانون : قانون ذو صبغة تشريعية يصدره رئيس الدولة[4].ويقول صاحب أساس البلاغة في توضيح مفهوم المرسوم بأنه " مأخوذ من قولهم

---

[1]) سورة الشورى: الآية ٣٨.

[2]) سورة ال عمران: الآية ١٥٩.

[3]) انظر: التقليد في صبح الأعشى، ١٠/٩٩-١١١.

[4]) المعجم الوسيط، ١/٣٤٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

رسمت له أن يفعل كذا فارتسمه، وأنا أرتسم مراسمك، أي لا أتخطاها"[1]. وزاد على ذلك صاحب صبح الأعشى "رسمت له كذا فارتسمه إذا امتثله أو من قولهم : رسم على كذا إذا كتب، ويحتمل أن يكون منهما جميعا"[2].

وقد وجدت المراسيم في نثر العصر الأيوبي كأحد الأغراض السلطانية، التي قد تكون متقابلة في المعنى مع التقاليد.

من هنا يمكن القول بأن المرسوم يوجه في الغالب إلى من يقوم السلطان بتوليته إقليما من الأقاليم أو مملكة من الممالك التي تقع تحت سلطته. أما التقليد فهو يوجه إلى من يريد السلطان توليته منصبا إداريا في الدولة سواء أكان مديرا لهيئة أو وزيرا معتمدا في الدولة.

وفي الغالب، يرجع سبب انتشار هذا النوع من الرسائل الديوانية إلى اتساع رقعة الدولة الإسلامية، وغالبا ما تستفتح هذه المراسيم بالحمد لله والثناء عليه، ثم الصلاة على الرسول الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين. ومن هذه المراسيم هذا المرسوم الذي أصدره السلطان صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل، يتولى بموجبه الملك العادل مدينة حلب وأعمالها.

يقول فيه: "**الحمد لله ذي السلطان القاهر ، والإحسان الظاهر، والإمتنان الوافر، والبرهان الباهر، نحمده على إنعامه المتضاعف المتظاهر، وإفضاله المتوافد المتوافر، حمدا يؤذن بالمزيد للشاكر ، ونسأله أن يصلي على سيدنا نبيه محمد المصطفى ذي**

---

[1]) جار الله ابي القاسم محمود الزمخشري، أساس البلاغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، ج١، ص٣٤٠.

[2]) صبح الأعشى، ١٠٧/١١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الشرع الطاهر، والنور الباهر، وآله الأكارم الأكابر ، ذوي المفـــاخر والمـــآثر ، ونسـلم تسليما كثيرا " [1].

ويستمر المرسوم بتعداد نعم الله التي لا تعد ولا تحصى، وهذا الأسلوب بالمراســيم إن دل على شيء فإنما يدل على عظم الشعور الديني عند السلطان صلاح الدين. ويمكـــن القول بأن سبب انقياد الشعب لصلاح الدين هو عمق الإحساس لديهم بأنه منقذهم من براثـن الأعداء الصليبيين ، وما عمله هذا إلا إرضاء لله سبحانه وتعالى، وكسب الأجر والثـــواب وهذا ما عبر عنه في نهاية المرسوم الذي اختتمه بالآية الكريمة "**رب أوزعنـــي أن أشـكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه**" [2].

ثم أخذ بهذا المرسوم يوجه أخاه العادل إلى النصائح والتوجيهات، وبيـــان أسـباب النعمة التي من الله بها عليهم، لا لشيء وإنما كانت هذه النعمة بسبب حرصهم على إعـــلاء كلمة الدين والإسلام، والسياسة العادلة في الرعية، فضلا عن ما ذكرت سابقا من مقارعة الصليبين " **وأيدنا عليه بالنصر الماضي النصل، والعز الجامع الشمل، حتى أذل لنا رقـــاب الأعداء، ومهد لنا وبنا أسباب الولاء، وملكنا قياد العباد ... وأوامرنا في إعـــلاء أعـــلام الدين منتظمة الأمور، والجهاد من جميع جهات ممالكنا برا وبحـــرا متسـق الجمـــوع والتوحيد لقمع أهل التثليث ثابت الأصول نامي الفروع**[3].

ويبدو التأثر الديني من قبل السلطان، في ذكر بعض القصص القرآني والتأسى بمـــا جرى مع موسى وهارون من مساندة له في دعوته، والسلطان أراد بهذا مثلا لأخيه الملـــك العادل أن يحتذى به، حيث عدد له الأسباب التي جعلته يأخذ صفة الدوام والرفعة والمـــودة

---

[1]) محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تح/ د. حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٨م، ص١٥٨.

[2]) مضمار الخلائق، ص١٥٩.

[3]) مضمار الخلائق، ص١٥٨-١٥٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وحب الناس لهم، ونصرهم على الأعداء وما إلى ذلك من نعم أنعمها الله عليهم. ومن ذلك كتاب كتبه صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل. يقول فيه:

"ومن جملة نعم الله سبحانه وأجملها وقوعا، وأجلاها في الجلالة طلوعا، وأجدرها منا بالإخلاص والحمد، وأشرفها لنا في مطالع السعد، وأوجبها لفرض الشكر، وأجراها بدوام الإشاعة والنشر، أنه سبحانه وتعالى شد أزرنا بأخينا الملك العادل سيف الدين ناصر الإسلام أبي بكر، أدام الله علوه ورفعته، وسموه ونعمته .. وهو كما قال الله تعالى "واجعل لي وزيرا من أهلي * هارون أخي * أشدد به أزري * وأشركه في أمري"[1].

أما حكم البلاد وقيادها، فهي ليست إلا وديعة من الله سبحانه وتعالى أودعها هؤلاء الملوك، وأمرهم أن يسوسوا البلاد خير سياسة، وجعلها أمانة في أعناقهم، يسأل عنها يوم الدين.

جاء هذا على لسان صلاح الدين الأيوبي من خلال المرسوم الذي أصدره إلى بن أخيه الملك المظفر تقي الدين بن عمر لتوليته مصر وأعمالها، حيث بدأ مرسومه كسائر المراسيم الصادرة عن السلطان، مبدوءة بالحمد والثناء والصلاة على النبي وآله وصحبه، حيث يقول: "**الحمد لله المتعالى جلاله، المتوالي أفضاله، القديم كماله، العديم مثاله، نحمده على إحسانه: العظيم نواله، العميم اتصاله، ونسأله أن يصلي على سيدنا نبيه محمد المصطفى الفصيح مقاله، الفسيح في الشرع مجاله، .. أما بعد فإنا منذ استودعنا الله ملك بلاده، واسترعانا أمر عباده، ومكن لنا في الأرض وبسط أيدينا بالبسط والقبض،**

---

[1]) مضمار الخلائق ، ص١٥٩-١٦٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأقدرنا في ممالكه على العقد والحل والإبرام والنقض، وملكنا زمام الزمان بالأمر والنهي .. وأعز بنصرنا الإسلام وأداله ، وأذل الكفر وأزاله"[1].

ثم يتابع في المرسوم، ذكر صفات المظفر تقي الدين في الحكم والسياسة من عدل وإحسان وحسن معاملة وشجاعة في الحروب، إلى غير ذلك من الصفات التي جعلته يحسن الاختيار في توليته للديار المصرية وأعمالها.

"فلا يسترعيها من الولاة إلا أولاهم برعاية الرعية، وأكرمهم للتقوى التي تقوى بها المكارم وتوفى المكاره، وأحكمهم في الرأي الذي يصح به في الأمور المحكم والمتشابه .. وأبذلهم في الجهاد اجتهادا، وأكثرهم في سداد الثغور الإسلامية سدادا .. ولما كان ولدنا الأجل الملك المظفر تقي الدين – أدام الله علوه ، وضاعف رفعته وسموه- ذا المجد الشامخ، والجد الباذخ، والرأي الراجح الراسخ ....

من خلال هذه المراسيم التي كانت توجه لهؤلاء الولاة التي احتوت على النصائح والإرشادات، لتكون بمثابة الدستور الذي يستضاء به في تسيير أمور الولاية والمستمدة من خلال الشريعة الإسلامية، وكذلك يمكن القول بأنها المنهج الذي يفتح له – الوالي- آفاق عمله ضمن الحدود الشرعية.

---

[1]) مضمار الخلائق، ص ١٥٥-١٥٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثانيا: الرسائل الحربية – الجهادية.

هذه الرسائل كانت نتيجة طبيعية للأحداث السياسية التي مرت بالأمة الإسلامية من حروب صليبية بين المسلمين والفرنج، والتي كانت تأخذ الطابع الديني، وما خلفته هذه الحروب من ويلات، ودمار، وتشريد.

لهذه، يمكن القول أن رسالة الجهاد كانت توازي قصيدة المدح في تلك الظروف، لما لهذه الرسائل من أثر في النفوس وجهد مبذول، وكلام معسول.

وكذلك تعد هذه الرسائل بمثابة أنشودة فرحة النصر الذي يعبر بها الكاتب عن مشاعره ومشاعر الناس من حوله، من مسرات وأتراح، وذلك بمحاولة الكتاب ربط الجهاد الإسلامي في العصور السابقة، كجهاد المجاهدين الأنصار والمهاجرين عليهم رضوان الله تعالى، وقد قام على كتابة الرسائل، كتبة ماهرون، أمثال القاضي الفاضل، والعماد الأصبهاني وغيرهم.

ويمكن تقسيم الرسائل الجهادية إلى عدة أقسام، وذلك وفق موضوعها ومضمونها.

أ: رسائل الحث على الجهاد:

ويقصد بها تلك الرسائل التي تدعو الناس إلى الجهاد في سبيل الله، وشحذ هممهم لمواجهة الأعداء، والدفاع عن المسلمين من أجل نصرة الإسلام. وبما أن هذه الرسائل كانت نتيجة الحروب الصليبية التي يخوضها الملوك والقادة والولاة ضد الفرنج، كان لابد على الملوك والأمراء مخاطبة القادة والولاة لمناشدة الشعب وتحريضهم على الجهاد، وكانت هذه الرسائل، عادة ما تقرأ على الناس في المساجد، لما لها من أثر نفسي في نفوس الناس.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ففي رسالة كتبها العماد الأصبهاني عن صلاح الدين إلى أحد أمرائه، يحثه على الجهاد في سبيل الله أثناء حصار الصليبيين لمدينة عكا، قال فيها :"وقد أحاط العلم بما عرا من الملم، وعرض من الخطب المدلهم. ووصل من العدو الثائر ، ونزل من النازلة التي هي أم النوازل، والدائرة التي هي أم الدوائر.. فقد قذف البحر من الفرنج بزبده، والبر أتى أتيه من كل بلد للكفر بسبده ولبده، ووصل الألماني – المخذول – بعدده وعدده. وهذا خطب قد دهم ، وعدو قد هجم ، وشر قد نجم. وجمر داهية قد وقد، وجمع طاغية قد وفد. في جيوش جائشة، وجموع طائشة . وجنود محشورة، وبنود منشورة، وخيول مجفجفة، وسيول مجحفة, وهذا أوان تحرك ذوي الحمية، ونهوض أهل الهمم الأبية العلية .. فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين، وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين؛ وأين المسلمون؟ -وحاشا أن يكونوا للإسلام مسلمين! وأين المقدمون في الدين؟ – ومعاذ الله أن لا يكونوا في نصرته على الموت مقدمين[1].

ومن خلال النظر في موضوع هذه الرسالة، نجد أنها تثير الحماس الديني عند الناس، وفي قلوب المسلمين لنصرة هذا الدين، وشحذ الهمم، وتبليغ الناس بمخاطر التقاعس عن الجهاد، ووصف الجيوش الصليبية بالكثرة وكالسيل الهادر الذي لا يترك شيئا يخلفه بعده، وتصويره بالشر القادم إلى هذه الأمة، لذا، خاطب كاتب الرسالة نفوس المسلمين لمعرفته بالأثر النفسي والوعي الديني عندهم وسرعة الاستجابة.

وفي رسالة أخرى من رسائل العصر الأيوبي، نجد أنها تبين للناس فضل الجهاد على القعود، والثبات عند لقاء العدو، والصبر وعدم تولي الأدبار أمام العدو وبيان فضيلة

---

[1]) الفتح القسي، ص٤٠١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الأوقات التي يعيشها المجاهدون في قتال الأعداء، فكتب القاضي الفاضل إلى الملك العادل يوصيه فيها بالصبر وعدم الملل في أرض الجهاد، يقول فيها:

"وتجشم المكروه ليس بضائر ما خلته سببا إلى المحمود[1]

وآخر كل شقوة أول كل غزوة، فلا يسأم مولانا نية الرباط وفعلها، وتجشم الكلف وحملها، فهو إذا صرف وجهه إلى وجه واحد وهو وجه الله صرف الله إليه الوجوه كلها. والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين" [2].

ب: رسائل البشارة والتهنئة بالانتصارات:

لقد توالت الفتوح في هذا العصر، فقد كان الأدباء والكتاب يرقبون أخبار الفتوح والانتصارات، فيحيطونهم بالفرح والتهنئة إذا ما عادوا منتصرين وترجع الإحاطة هذه إلى ما يعدونه تكريسا لجهود المسلمين المجاهدين، وحماية الإسلام وأرضه، وقد قال عنها شهاب الدين الحلبي بأنها تلك الرسائل التي تتلو الفتوح والانتصارات، لتكون معبرة عن السرور والسعادة واصفة لتلك الفتوح وما تم فيها من شجاعة وإقدام"[3].

ومن أهم الانتصارات التي تمت في العصر الأيوبي، ذلك الانتصار الذي حصل في حطين، والذي أعقبه فتح بيت المقدس بعد أن مكث تحت نير الاحتلال الصليبي ما يزيد على تسعين عاما، مما أثار صدى عميقا في نفوس الأدباء والكتاب، والذين تفننوا في

---

[1]) ديوان القاضي الفاضل، تح/ د. أحمد أحمد بدوي، مراجعة إبراهيم الابياري، ط١، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦١م، ص٥٢١.

[2]) ابن المقدسي، الروضتين ٢/٢٣٣.

[3]) شهاب الدين الحلبي، حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تح / أكرم عثمان يوسف، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٤٠٠هـ، ص ٣٣٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

التعبير عنه بشتى الأساليب حتى ذكر العماد الأصبهاني، أنه كتب يوم فتح بيت المقدس سبعين كتاب بشارة كل كتاب بمعنى بديع وعبارة"[1].

من هذه الكتب، كتاب أرسله إلى الديوان العزيز ببغداد، افتتحه بهذه الآية الكريمة. **"وعد الله الذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما أستخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا[2]. الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف ، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف، وخص ديوان السلطان العزيز بهذه الخلافة ، ومكن دينه المرتضى، وبدل الأمن من المخافة ..."**[3].

وهذه الرسائل غالبا ما تحمل في طياتها مع التهنئة بالانتصار، تصوير الفرح والسرور والابتهاج بذلك الفتح الذي من الله به على المسلمين، وما أصاب الكفار من ذل وهوان . هذه الانتصارات لم تكتب للمسلمين إلا بوجود مقومات النصر كالتوكل على الله ، وإخلاص النية في الجهاد، وارتجاء الظفر والنصر من الله وحده لا غيره .

ففي رسالة كتبها العماد الأصبهاني عن صلاح الدين إلى الخليفة العباسي مبشرا بالفتوحات التي سبقت فتح بيت المقدس ، قال فيها:**"ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون[1]. الحمد لله على ما أنجز هذا الوعد، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد ، وجعل من بعد عسر يسرا ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا، وهون الأمر الذي ما كان الإسلام يستطيع عليه صبرا ....فالحمد لله الذي أعاد الإسلام جديدا ثوبه، بعد أن كان جديدا ثوبه ، مبيضا نصره ، مخضرا نصله، متسعا**

---

[1]) الروضتين، ٩٦/٢.

[2]) سورة النور: الآية ٥٥.

[3]) الروضتين، ٩٦/٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فضله، مجتمعا شمله. والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم والنصر الكريم ما يشـــرح صدور المؤمنين، وليمنح الحبور لكافة المسلمين، ويورد البشرى بما أنعم الله به من يـوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الأخر إلى يوم الخميس منسلخة، وتلـــك ســبع ليال وثمانية أيام حسوما سخرها الله على الكفار ..." [٢].

فقد صورت الرسائل الجانب الوصفي للمعارك الإسلامية، وذلك من خلال متابعتـها للحوادث الحربية، فلا عجب أن صلاح الدين كان يصطحب معه الكتاب من أمثال القـاضي الفاضل والعماد إلى ميادين القتال .

وللشعر أيضا نصيب وافر من هذا الوصف والتهنئة بالانتصارات الحربيـــة، فـــهذا البهاء زهير يصف طول المعركة في دمياط، وما أبداه الكامل من الثبات والصبر وكيـــف انتهى ذلك بمحاصرة العدو في البر والبحر، يقول:

ثلاثة أعوام أقمت وأشهرا	تجاهد فيهم لا بزيد ولا عمرو
وليلة غزو للعدو كأنها	بكثرة من أرديته ليلة النحر
سددت سبيل البر والبحر عنهم	بسابحة دهم وسابحة غر
وباتت جنود الله فوق ضوامر	بأوضاحها تغني السراة عن الفجر[٣].

---

[١]) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.

[٢]) انظر: مفرج الكروب، ٣/٣٣٢-٣٣٣. الروضتين، ٢/٨٩.

[٣]) ديوان البهاء زهير، تح/ محمد طاهر الجبلاوي ومحمد أبـــو الفضـــل ابراهيـــم، ط٢، دار المعـــارف، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٠١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ج: رسائل الاستنجاد :-

كان من الطبيعي نتيجة للظروف السائدة، والحروب الدائرة بين المسلمين والفرنـــج أن يستنجد أهل الإسلام بعضهم ببعض، وطلب الإمداد والنجدة بالسلاح، والمال والرجال لمواجهـة هذا الخطر الداهم المتمثل بالحروب الصليبية المتدفقة والمتتابعة على العالم الإسلامي .

ولعل العالم الإسلامي قد مر بفترات عصيبة، تكالبت الأمـــم جميعـــها علـــى العـــالم الإسلامي لطمس الهوية الإسلامية، والقضاء على الإسلام والمسلمين ، ولقد كانت أصعب فترة مرت على الأمة الإسلامية في تلك الفترة، تلك التي أعقبت فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣هـــــ ، التي كانت نتيجة الانتصار الإسلامي ، مما اثر ذلك في الغرب الأوروبي مما دعاهم إلى جمـــع الجيوش وإرسالها إلى العالم الإسلامي بشكل حملات عسكرية ، لاستعادة بيت المقـــدس مـــرة ثانية من أيدي المسلمين[1] ، وهذه الحملات المتتالية والمتعاقبة والتي كـــانت تســـمى بالحملـــة الصليبية الثالثة ، ومن اشهر قوادها ثلاثة من أهم وأشهر ملوك أوروبا هم : فردريك بربروســـا إمبراطور المانيا، وفيليب الثاني ملك فرنسا، وريتشارد الأول ملك إنجلترا[2] .

---

[1])انظر: ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. السيد الباز العريني، ط١، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م، ج٣، ص٤٠٠-٤٠٣.

د. سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى التاريخ السياسي، ط١٠، مكتبـــة الأنجلـــو مصريـــة، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٤٥٤.

[2]) أوروبا العصور الوسطى، ص٤٥٤.

د. محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية، دار النهضة العربية للطباعة والنشـــر، بـــيروت، لبنـــان، ١٩٩٠، ص١٤٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وكانت رسائل الإستنجاد في أيام الدولة الأيوبية في مصر والشام، ترسل الى بغداد والى الولاة المسلمين في البلاد الإسلامية الأخرى، فنرى أن صلاح الدين أثناء محاصرته لمدينة عكا، يرسل رسالة إلى ملك المغرب، بقلم القاضي الفاضل يطلب فيها العون والمساعدة في ملاقاة الأساطيل البحرية الصليبية، وإن كنت أشم رائحة العتاب بهذه الرسالة ، يقول فيها:"... **ولما كانت حضرة سلطان الإسلام وقائد المجاهدين إلى دار السلام ، أولى من توجه إليه الإسلام بشكواهُ وبَثّهُ، واستعان به على حماية نسله وحرثه، وكانت مساعيه ومساعي سلفه في الجهاد الغر المحجلة.... أنْ يمُدّ غرب الإسلام المسلمين بأكثر مما أمدّ به غرب الكفار الكافرين، فيملأها عليهم جواري كالأعلام، ومُدُنا في اللجج سوائر كأنها الليالي مُقلعة بالأيام، تطلع علينا معشر الإسلام آمالا، وتطلع على الكفار آجالا، وتردنا إما جملة وإما إرسالا مسومة تمدها ملائكة مسوّمة... فصرخنا به في هذه التحية، فقد تحفل السحاب ولا تمطر إلى أن تحركها أيدي الرياح، وقد تترك النصرة فلا تظهر إلى أن تضرع إليها السنة الصّفاح"**[1].

هذا الاستصراخ بطلب النجدة، إنما يرجع إلى حالة الأمة الإسلامية التي كانت تعاني وتدرك خطورة الموقف أمام التدفق الصليبي الهائل في تلك الفترة، لهذا أخذ السلاطين والملوك الأيوبيون بطلب النجدة من إخوانهم ، وسرعة النهوض إلى نصرة الإسلام والمسلمين.

---

[1]) الروضتين، ١٧٣/٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

د: رسائل التهديد والوعيد:

نستطيع أن نلمس من خلال الظروف السائدة التي سادت في العالم الإسلامي بشكل عام وفي العصر الأيوبي بشكل خاص، انه كانت هناك قوتان هما قوة الدولة العباسية المتمثلة بالسلطان صلاح الدين الأيوبي من جهة، وقوة الصليبيين من جهة أخرى، لذلك كان لابد من وجود رسائل بينهما، ولكن الرسائل في القرن الأول من قرني الحروب الصليبية ، كانت تأتي من الصليبيين ، وانعكس الأمر بعد ذلك ، فاصبح الأمر يأتي من الأيوبيين ، وخاصة في أواخر العهد الأيوبي ، ففي الحملة الصليبية السابعة التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا على مصر، كان هذا القائد مغرورا بجنوده وعتاده، وتواصل الإمدادات إليه، فأرسل إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب يطلب منه تسليم مدينة دمياط له [1]، فرد عليه الملك الصالح نجم الدين برسالة بقلم بهاء الدين زهير إلى لويس التاسع قائلا : "**بسم الله الرحمن الرحيم، وصلوات الله على سيدنا محمد رسول الله ، وآله وصحبه أجمعين ، أما بعد، فإنه وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك، وعدد أبطالك، ونحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرنٌ إلاّ جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه، فلو رأت عينيك أيها المغرور حد سيوفنا، وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم، ولابد أن تُزَلّ بك القدم، وفي يوم أوله لنا، وآخره عليك، فهنالك تسيء الظنون ، (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون[2]) فإذا قرأت كتابي هذا فتكون منه على أول سورة النحل (أتى أمر الله فلا تستعجلوه[3])، وتكون أيضا على آخر سورة ص :(ولتعلمن نبأه بعد حين[4])، ونعود إلى قوله تعالى ، وهو اصدق القائلين : (وكم من**

---

[1]) انظر: الرسالة موجودة في السلوك، ق٢، ١/٣٣٤.

[2]) سورة الشعراء: الآية ٢٢٧.

[3]) سورة النحل: الآية ١.

[4]) سورة ص: الآية ٨٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين[1]) وقول الحكماء : إن الباغي له مصرع وبغيك يصرعك ، وإلى البلاء يسلمك ، والسلام)[2].

ومن خلال هذه الرسالة ، نرى أن الملك الصالح انطلق في إرسال الرسالة من منطلق فهمه المفاهيم الإسلامية، التي تدعو إلى الجهاد في سبيل الله، والمحافظة على المسلمين وأرض المسلمين ، لذلك نراه يضع صورة الحروب والمعارك التي حدثت في الزمن السابق والتي هُزم فيها الفرنجة شر هزائمهم ، وتدمير حصونهم، وفتح بلادهم، والاستشهاد به بآي من القران الكريم ، ليؤكد له صلابة موقفه، وقوة إيمانه، لذلك كله سيكون تقدم الملك الصالح بقدم ثابتة ، واطمئنان قلب ، وثقة ويقين.

وهذا الإتيان بالآيات القرآنية ما هو إلا ليبث روح الرعب في نفوس العدو، والتي تعج بالتهديد والوعيد من الله تعالى ثم من الملك الصالح، هذا الوعيد الذي لا يعلم مداه ولا نتائجه إلاّ الله تعالى .

هـ: رسائل التحريض والمواساة:

ويقصد بها تلك الرسائل التي ترسل للقادة والولاة والحكام والقادة ، للتخفيف من وطأة الظروف التي يواجهونها في محاربتهم ضد الفرنجة، ولما لها من أثر في نفوس المجاهدين . وكان للأدب في العصر الأيوبي رسائلُ تحث القادة والحكام بالصبر على الشدائد ، والتغلب عليها، حتى تمر وتنقضي، والثبات أمام الأعداء ، والرضا بأقدار الله سبحانه، على ما يصيبهم امتثالا لأمر الله (**قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون[3]**) ولعل رسالة القاضي الفاضل إلى صلاح الدين ،

---

[1]) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

[2]) السلوك، ق٢، ١/٣٣٤-٣٣٥.

[3]) سورة التوبة: الآية ٥١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهو قائم على حصار مدينة عكا، يطلب منه الثبات والتسديد وتشـــديد الحصـــار قـــائلا : "وضياع فرصة، واختلاف رأي، بين المتشاورين من الجماعة، وجُود الألســـنة بـــالآراء، وبخل الأيدي بالمعونة ، وانفراد المولى بالتعب ، واشتراك الناس في الراحة وما ابتلى به المسلمون من مرض أظهروه ، ليكون لهم عذراً في القعود، ..... فهذه الأمور وان كـانت شدائد، وزائدات على العوائد ، فقد ألهم الله مولانا سعة الصدر، وحسن الصبر ، ليشـــعر إن صبره يعقبه النصر، وحسبته يعقبها الأجر.... معاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقـها .... ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر ، ثم معاذ الله أن نغلب على النصر... فـــلا تعظـم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره، وتملا صدره (فلا تهنوا وتدعوا إلى الســـلم وأنتـم الأعلون والله معكم) [1]. وهذا على دين ما غلب بكثرة ولا نُصر بثروة، إنمـــا اختـار الله تعالى له أرباب نيات ، وذوي قلوب معه وحالات، فليكن المولـــى نعـم الخلـف ، لذلـك السلف، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة واشتدي أزمة تنفرجي والغمرات تذهـب، ثم لا تجيء، والله تعالى يُسْمِعُ الإذن ما يُسِرُّ القلب، ويصرف عن الإسلام وأهله غاشـية هذا الكرب، ونستغفر الله العظيم ، فانه ما ابتلى إلاَّ بذنب[2].

هذه المعاني الإيمانية والإسلامية إلى أوردها القاضي الفاضل في رســـالته هـذه ، بوصاياها الجامعة، وفوائدها النافعة، معتمدة على كلام الله سبحانه ، لهي تقع علـــى الألـم موقع الدواء الناجع، وتحفّز النفوس على المثـابرة ، ومواصلـة الحـرب والجـهاد ضـد الصليبيين ابتغاءً للأجر والثواب من الله سبحانه.

---

[1]) سورة محمد: الآية ٣٥.

[2]) الروضتين، ١٦٦/٢-١٦٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الثاني

الرسائل الإخوانية

مفهوم الرسائل الإخوانية :-

يقول صاحب صبح الأعشى في تعريفه للرسائل الإخوانية بأنها "هـــي المكاتبـــات الإخوانية نسبة إلى الإخوان ، جمع أخ والمراد بها المكاتبات الدائرة بين الأصدقاء"[١].

ويعرّفها شوقي ضيف بأنها "الرسائل التي تصور عواطف الأفراد ومشـــاعرهم ، من رغبة ورهبة ومن مديح وهجاء ومن عتاب واعتذار واســـتعطاف ومـــن تهنئـــة ... الخ"[٢].

ويعرفها محمد نبيه حجاب : "هي تلك الرسائل الشخصية التي تُحبَّر بعيـــدة عـــن الديوان إلى أحد الإخوان في أمور خاصة لا تتعلق بشؤون الملك، ولا بسياسة الدولـــة، أو تتعلق بها صفة رسمية، كالتهنئة والتعزية، والشكوى والعتاب، والاستعطاف وغير ذلـــك مما يصور العواطف الخاصة بقدر ما بين الأفراد من روابط وصلات..."[٣].

من خلال هذه الآراء ، نرى أن هذه الرسائل تكون خـــارج الإطـــار الرســـمي – الدولة– وتُصوِّر عواطف الكاتب وانفعالاته ومشاعره تجاه أصدقائه. وأن بعـــض هـــذه الرسائل قد لا تتسم بالمودة كالهجاء والاستعطاف التي قد تخرج عـــن معـــاني الصداقـــة والاخوة.

---

[١]) صبح الأعشى، ١٢٦/٨.

[٢]) شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٤٩١.

[٣]) محمد نبيه حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ط١، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٩٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد ذكر صاحب صبح الأعشى موضوعات هذا اللون من الرسائل ، وقد جمعها في سبعة عشر نوعا وهي : التهاني، والتعازي، العتاب، والاسترضاء والاستعطاف والاعتذار، والشوق، والشكر، والشكوى، والشفاعة، والتهادي، والاستزارة، واستماحة الحوائج، والعيادة والسؤال عن المريض، وفي الذم، وفي الأخبار، والمداعبة، وفي خِطبة النساء، واجتلاب المودة وافتتاح المخاطبة[1].

ولما كان الاختلاف بين الرسائل الديوانية – السياسية والجهادية– من حيث المشاعر التي تسيطر على الكتّاب تجاه أصدقائهم، كان لابد أن يتسرب هذا الاختلاف إلى التعبير في هذه الرسائل ، فالديوانية غالبا ما كانت تخلو من العاطفة والمشاعر ، بينما الإخوانية كانت تعبر عن خواطرهم ومشاعرهم فظهرت فيهم العاطفة واضحة.

والرسائل الإخوانية غالبا ما ترسل إلى الملوك والأمراء ، لمشاركة الكتّاب لهم بالمناسبات الاجتماعية باختلاف أنواعها.

ويعد القاضي الفاضل – الذي كان رئيسا لديوان الإنشاء في العصر الأيوبي، أحد كبار الكتّاب الذين قاموا بصياغة الرسائل الإخوانية ، وذلك من خلال مجموعة الرسائل التي تجمعت من المصادر العربية[2] ويليه ضياء الدين بن الأثير ، الذي دونت رسائله في بعض مصنفاته الأدبية والبلاغية[3].

---

[1]) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩/٥-٢٢٥.

[2])انظر: محي الدين بن عبد الظاهر، الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم، تح/ د. أحمد أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٩م. نهاية الأرب، ٨/٥-١٣.

[3])انظر: المثل السائر، ج٢. أبو الفتح نصر الله ابن أبي الكرم الشيباني، ديوان رسائل ضياء الدين ابن الأثير، تح/ هلال ناجي، منشورات جامعة الموصل، ط١، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أنواع الرسائل الإخوانية :-

أ: رسائل التهنئة :

وقد شغلت رسائل التهنئة حيّزاً كبيراً، نظراً لكثرة المناسبات الاجتماعية والمناسبات السعيدة ، واتساع مجال التهنئة، مما يتيح للكتّاب التعبير عما يختلج في نفوسهم من مشاعر المودة والأخوة، وهذا ما عبر عنه القلقشندي بقوله "هي من الكتب التي تظهر فيها مقادير أفهام الكتّاب، ومنازلهم في الصناعة ومواقعهم من البلاغة، وهي من ضروب الكتب الجليلة النفيسة، لما في التهنئة البليغة من الإفصاح بقدر النعمة والإبانة عن موقع الابانة، وتضاعف السرور بالعطية" [1].

فرسائل التهنئة منها ما تتعلق بتهنئة بمولود، أو تهنئة بأداء فريضة حج، إلى التهنئة بالشفاء من المرض... الخ.

فكتب القاضي الفاضل كتاب تهنئة بالقدوم من الحج ، إلى أحد الملوك الأيوبيين وذلك بعد عودته من الحج، حيث يقول : "**فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضلٍ عظيم**"[2].

الحمد لله الذي ثبّت أركان الإسلام، وأنار وجوه الأيام، وأوْجَبَ نذور الخدام، بعودة الملك المعظم، أعزّ الله نصرته، وخلد نعمته، وأسبغ عزه، ووفرّ من الخيرات كنزه، وأقرّ عينه بلقاء أهله، وضاعف رفعة شأنه، ومنعة محلّه" [3].

---

[1]) صبح الأعشى، ٥/٩.

[2]) سورة آل عمران: الآية ١٧٤.

[3])الدر النظيم، ص٦٤-٦٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فالكاتب يتوجه إلى الله تعالى بالضراعة لحفظ الملك ، والتهنئة بالسلامة من عودته بعد أداء فريضة الحج إلى الديار المقدسة.

وهكذا يمكن اعتبار رسائل التهنئة خير معبر عن خلجات النفس، ودفقات المشاعر من المرسل إلى المرسل إليه.

ب: رسائل التعزية:

كما كان الكتاب يشاركون الملوك الأيوبيين أفراحهم ومناسباتهم السعيدة كان لهم أيضا مشاركتهم أتراحهم وأحزانهم للتخفيف عن النفس من هذه الحوادث المفجعة والحزينة.

وقد أعطت بعض رسائل التعزية تصويراً عميقاً لمفهوم الحياة، وما يعنيه من الحياة بأن الحال لا يدوم على ما هو عليه، فالنعيم قد يعقبه الألم، والفرح قد يعقبه الحزن، وكثيراً ما ترشد في مضمونها إلى التحلي بالصبر، والتسليم بقضاء الله تعالى، والتمني له بزوال آثار هذا الحزن وحلول الأفراح والسرور محله، والدعاء له بالصبر والسلوان ، وللميت بالرحمة والغفران ، فقد كتب القاضي الفاضل بطاقة إلى الملك الظاهر صاحب حلب يعزيه بوفاة والده صلاح الدين، قال : "**(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة[1]) (إن زلزلة الساعة شيء عظيم[2]) كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر ، أحسن الله عزاؤه وجبر مصابه ، وجعل فيه الخلف لمماليك المرحوم وأصحابه، وقد زُلْزِلَ المسلمون زلزالاً شديداً، وقد حفرت الدموع المحاجر ، وبلغت القلوب الحناجر، وقد ودعت أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده، وقد قبَّلتُ وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضياً عن الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبالباب من الجنود المجندة، والأسلحة المغمدة، ما لا يدفع البلاء ، ولا يملك رد**

---

[1]) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

[2]) سورة الحج: الآية ١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

القضاء، وتدمع العين، ويخشع القلب، ولا نقول إلاّ ما يرضي الرب، وأنا عليك يا يوسف لمحزونون"[1].

هذا النص قد بين فيه الكاتب مما أصابه من الحزن نتيجة وفاة صلاح الدين الذي بين فيه ما نزل بالمسلمين من حزنٍ ولوعةٍ واضطرابٍ، وكأن هذا الحدث زلزالٌ وقع عليهم، نتيجة هذه الفاجعة والذي لم يستطع أن يفعل شيئاً أمام قدرة الله عز وجل.

ج: الاعتذار والمعاتبة :

يمكن القول بأن رسائل الاعتذار تزيل الضغينة من الصدور وتعيد الأنس والمحبة بين الأصدقاء، إذ يعتذر الكاتب عن خطأ ارتكبه في حق من يحرص على مودته من إخوانه وأصدقائه، وهذا ما جعل الكتاب يلجأون إلى هذا النوع من الرسائل لتوضيح مواقفهم وإبانته وللخروج من دائرة العتاب.

ففي رسالة كتبها ابن الأثير عن الملك الأفضل إلى عمه الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، يعتذر عن ابتعاده عنه، واعتماده على بعض أصدقائه الذين كان يتوسم فيهم الصدق والوفاء يقول فيها : **"من شيمة الأقدار أن تذهب ببصائر ذوي الألباب، وتمثل لهم الخطأ في مثال الصواب.... لو عرف ذنبه بادياً لقرع له سن الندامة، وعاد على نفسه بالملامة ، وكما كان عجيبا أن يكون مليما، وأنْ يكون مولانا كريماً، ولكنه حمّل أصره الذنب وهو بريء من حملها، وخاف أن تكون هذه كأخواتها التي سلفت من قبلها.... وألقى بيده إلى أقوام لم يكونوا له بأقوام، وإذا ضاق على المرء أقربه كان**

[1]) سير أعلام النبلاء، ٢١/٢٨٩-٢٩٠. النجوم الزاهرة، ٦/٥٢-٥٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الأبعد له من ذوي الأرحام، وليس بأول من ذهب هذا المذهب ، ولا بـــأول مـــن حمّـــل نفسه على ركوب هذا المركب...." [1]

فالكاتب يطرح موضوعه بأن الخطأ أمرٌ محتمل من بني البشـــر ، وأن الأقـــدار لا مصرف عنها، ويقرر أنه بالرغم من اعترافه بخطئه إلاّ أنه حريص على إبقـــاء المـــودة والألفة، ولكنه يخشى أن يتزيّد عليه الواشون، ويؤلبوا ضده ، كيف لا؟

وهو يريد الصفح ، وإقامة علاقة حميمة وطيدة. وبهذا النوع من الرسائل يشترط علـــى الكاتب أن يراعي مقام المرسل إليه وثقافته، لأن المقصود بهذه الرســـائل - غالبـــا- هـــم أصدقاء المرسل من الأدباء والكتاب، وهكذا جاءت رسائل الاعتذار معبّرة عما يجول فـــي النفس من ألم واحتراق، داعية إلى صفاء القلوب ونقائها انطلاقاً من باب الحرص علـــى مشاعر الأخوة الإسلامية، وحفظ الألفة والمودة.

د: المهاداة وطلب المودة:

هي رقاع التهادي التي يجب أن تودع من الألفاظ المستحسنة مـــا يمـــهّدُ لقبـــول الملاطفة والمبرّة التي تتميز في المودة[2].

إذن، فهي تلك الرسائل التي تعبر عن المودة والألفة، وتسعى إلى تحقيـــق أواصـــر المحبة بين الأصدقاء . وتتميز هذه الرسائل عن سواها مـــن الرســـائل الإخوانيـــة بانـــها مصحوبة بهدية لطيفة ، يقوم الكاتب بإهدائها إلى من يريد مراسلته ، لما للهدية من أثـــرٍ في النفس، حيث أنها تعمل على تأليف القلوب وشيوع المحبة بينهما. ومن شروط الهديـــة أن يبتعد صاحب الهدية عن إظهار القيمة ، لان ذلك يفسد الصداقة والمودة، " تكتب رســـائل المهاداة في ثلاث حالات ، الأولى : عند إرسال الهدية وفيها يظهر الكـــاتب رغبتـــه فـــي الإهداء ، ويعبّر عن مشاعره الصادقة تجاه المهدى إليه، والثانية : عند تسليم الهدية ويعبّر المرسل إليه عن غبطته وفرحهِ بالهدية، والثالثة : فهي حالة الاستهداء وهي طلب الهديـــة،

---

[1]) المثل السائر، ١/١٣٩-١٤٠.

[2])انظر: صبح الأعشى، ٩/١٠٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وعادة ما تكون بين الأخوة النظراء وكما توجه إلى ذوي الجاه والنفوذ كالخلفاء والأمـــراء والحكّام[1].

و-غالباً- ما يُضمّنُ الكاتب أوصاف الهدية ، ليحسنها في نفس المهدى إليه[2]

ومن تلك الرسائل ما كتبه ابن الأثير إلى أحد ملوك الشام برفقة هدية لطيفة ، يقـول فيها : " **إذا أراد العبيد أن يهدوا لمواليهم قصَّرتْ بهم يد وُجْدهم، وعلمـــوا أن كـل مـا عندهم ممن عندهم، لكن في الأشياء المستطرفة ما يهدى، وان كان قدره خفيفـاً، ولـولا اختلاف البلاد فيما يوجد بها، لما كان شيء من الأشياء طريفاً.... وقد أهدى المملـــوك من الرُطَبِ ما يتجلى في صفة الوارس، ويزهى بحسنه حتى كأنه لم يُدنّس بيـــد لامـس، وما سمي رُطَباً إلا لاشتقاقه من الرَطَبْ الذي هو ضد اليابس ، وقد أثنى رسول الله صلـى الله عليه وسلم ثناء جمّاً، وفضل شجرته على الشجر بان سماها أمّاً، ولئن عـــدم عَرَفـاً لذيذا فإنه لم يعدم منظراً لذيذاً ولا طعماً[3]**".

فالكاتب بيّن فضل هديته التي ميزّها عن سائر الثمار لقول الرسول عليه الســـلام " من الشجر شجرة تكون مثل المسلم وهي النخلة".

ثم وصف ابن الأثير التمر"وله أوصافٌ أخرى هي لفضله بمنزلة الشهود، فمنـــها أنه أول غذاء يفطر عليه الصائم، وأول غذاء يدخل بطن المولود، وأحسن من ذلـــك أنـــه

---

[1])انظر: نبيل خالد رباح أبو علي، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي ٦٥٦هـــ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، رسالة دكتوراه منشورة، (د. ت)، ص٢٧٩-٢٨٠.

[2]) صبح الأعشى: ١٠٠/٩.

[3]) المثل السائر، ٣٨/٢-٣٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

معدود من الحلواء، وإن كان من ذوات الغراس، ولا فرق بينهما سوى أنه من خلـق الله، وتلك من خلق الناس"[1].

فالكاتب في هذه الرسائل يتحتم عليه مراعاة المرسل إليه من حيث الألفاظ والمعاني وطلب الهدية وتحديد نوعها. ورسائل المهاداة تزيل من النفس الضغائن، وإنـزال المحبـة والألفة في قلوب الناس أجمعين.

هـ: رسائل الشكر:

هذا النوع من الرسائل، كان ظهورهُ نتيجة طبيعة لما يهدي إليه من هدايـا سـواء أكانت مادية أم معنوية. فقد ذكر صاحب صبح الأعشى أن صاحب هذه الرسائل عليـه أن يختار المناسب من الألفاظ ما يناسب هذه الرسالة، وعليه عدم الإغراق في معاني الشـكر فانه ينبغي على كاتبها " ألا يُفْتَنُ فيها ويُقرّب معانيها، وينتحل لها من ألفاظ الشكر أنوطـها بالقلوب، لتستيقن بنفس المتفضل أنه قد اجتنى ثمرة تفضله"[2].

ضاعف الله إقبال مولانا وأدام أيامه، وأسبغ إنعامه، وسددّ مراميه ومرامه، ووفـو من أسباب الظفر أقسامه.... المملوك يُقبّل الأرض، ويؤدي في إقامة الأدعيـة الصالحـة الفرض، وينهي أنه ينتهي في إقامة العبودية وخدمته إلى غاية لا يدرك شأوها، مجتـهد ولا يبلغ أمدها في صحة الاعتقاد معتقد، وماله شغلٌ إلا شكر العوارف الشريفة المولويـة التي عرفته وكان منكورا، ونوهت به ولم يكن شيئا مذكورا.... والله تعالى يديـم علـى

---

[1]) المثل السائر، ٣٩/٢.

[2]) صبح الأعشى، ١٨٣/٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مماليكها جميل رأيها، ولا يخليها من بر توليه، وخير تسديه، وحر تستعبده بإحسانها، وتشرفه بجميل امتنانها، ما اهتز في الكثبان بانها، ومادت دوحة واتسق أغصانها [1].

من خلال النظر في رسائل الشكر، نرى أنها تمتاز بالألفاظ الوجيزة التي تفي بالغرض ولا يستخدم التطويل والإفراط، وفي هذا المعنى يقول القلقشندي " إنما يجب أن يذهب فيما يكتب عن هؤلاء من هذا الفن مذهب الاختصار، والإتيان بالألفاظ الوجيزة الجامعة لمعاني الشكر، دون مذهب الغلو والإفراط، وذو الطبع السليم، والفكر المستقيم، يكتفي بيسير التمثيل[2].

وفي نص آخر لابن الأثير يشكر أحد الأمراء بدمشق على إرساله سجادة إليه، حيث يقول: **" إحسان المولى قد أحاط بالخادم حتى لم ينظر إلى مواقع جوده ولم يبق إلا موضع مصلاه فجاءته سجادة لموضع سجوده،..... وإذا نظر إلى السجادة المرسلة وجدتُ روضة في حسن شكلها. وهدية في مزيّة فضلها، وقد شغلت العين باجتلاء صبغة ألوانها، وشغلت القلب بسنن الصلاة وأركانها، ولما شَهِدَها الخادِم لم يَدْرِ أهي ديباجة رومية أو بردة يمانية.... ولا شك أن المولى عَلِمَ الشكر للخادم وأحب أن يجعل دعاءه قرين شكره، وقد كان مستخدما لِعَلَته فلم يَرْضَ إلا باستخدام سرّه، وأول ما بدأ به قال: اللهم يَسّرني لجزاء هذا الإحسان وأشركني في جزائه فلا يدّ لي ولا يدان، والسلام[3].**

---

[1])الدر النظيم، ص٥٠-٥٢.

[2]) صبح الأعشى، ١٨٣/٩.

[3]) ديوان رسائل ابن الأثير ، ١٨٠/٢-١٨١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فابن الأثير يذكر في رقعته أهمية السجادة التي أُهْدِيَتْ له، وانشغال فكره بكيفية رد الإحسان، بعدما بيّن صفات هذه السجادة من الجمال والحياكة، وشكلها ومصدرها، تلك السجادة التي تجذب العيون.

و: رسائل الشوق:

هي التي تعبر عن صدق المشاعر، وائتلاف القلوب، وتمازج الأرواح في حال تباعد الأصدقاء، وهجران بعضهم عن بعض، مما يثير في القلوب اللوعة والحنين والشوق إلى لقاء بعضهم ببعض. وتمتاز رسائل الشوق بالاختصار والإيجاز، واللطافة والرقة، والبعد عن أسلوب الاستطراد والإطناب، يقول صاحب صبح الأعشى: "وينبغي للكاتب أن يجمع لها فكره، ويظهر فيها صناعته، ويأخذ من نظمها مأخذا من اللطافة والرقة يدل على تمازج الأرواح، وائتلاف القلوب.... وأن يستخدم لها أعذب لفظ وألطف معنى؛ ويذهب فيها مذهب الإيجاز والاختصار، ويعدل عن سبل الإطناب والإكثار، لئلا يستغرق جزءا كبيرا من الكتاب فيمل ويضجر، وينتظم في سلك الملق والتكلف اللذين لا يعتادهما المتصافون من الأصدقاء"[1].

ومن هذه الرسائل التي تتحدث في هذا الموضوع، رسالة القاضي الفاضل إلى أحد الأمراء الأيوبيين، محملة بذكريات الماضي العطرة، حيث يقول:

سلامٌ على تِلكَ الخلائق، إنها هي الثمرات الطيبات، إذ تُجنى

فلافَلَّ صرفُ الدهر حدَّ شَبَاتِها ولا صبحت إلا السلامة واليُمنا[2]

---

[1]) صبح الأعشى، ١٤٢/٩.

[2])ديوان القاضي الفاضل، ص٥١٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

شوقي إلى لقاء حضرة مولاي وسيدي وسندي، وساعد يدى، ويميـــن شـمالي، وجنوب شمالي، وكنزى الذي اعتمد عليه ومالي ... أدام الله جماله، وضـــاعف جلالـــه، وحرس من الغير ظلاله، وبلّغهُ سؤله وآمالَهُ، وأحسن مُنْقلبه وعقباه ومآلـــه، ولا زالـت أوقاته مقرونة بالسرور، وساعاته مصروفة بالحبور- شوق الهائم الولـــهان إلـــى لذيـذ الوصال، والحائم العطشان إلى الماء الزلال، وحنيني إليه حنيـــن الإبـل إلـــى أعطانِـــها، والغرباء إلى أوطانها، وكلف به كلف الساهر الحائر إلى تبلـــج وجـــه الصبـــاح .. ومـــا تذكرته إلا وأشرفني بالدمع طرف مشتاق إلى مرآة مـــرآهُ، ومـــا توهمتـــه إلا وطـــالبني بالقرب منه فؤادٌ ليس ينساه، فالله يعيد ليالي كانت بقربه أسحاراً بل نهاراً، وأياماً بقيـــت في خدمته مواسم بل أعياداً كباراً، وإن تسمح الأيام بذلك فربما، وعسى وطن يدنو بـــهم ولعلما، وأرجو أن يكون ذلك قريباً، وما ذلك على الله بعزيز"[1].

فالكاتب في النص، نراه قد بدأ رسالته بمقدمة شعرية تعبر عن شدة شوقه وحنينه إلـــى من فارقوه من الأحبة، ويطلب من الله تعالى العلي القدير، أن يعيد الأيام الماضيـــة بذكراهـــا الجملية، ويتمنى على الله أن يجمعه بمن يحبه، حتى تكتمل فرحته وشوقه بلقاء الأحبة.

ومن الملاحظ أن رسائل الشوق في مجملها[2] تعبر عما في النفـــس مـــن مشـــاعر وأحاسيس، ثم الدعاء إلى الله بجمع الشمل بعد الفراق، وعن حرارة الشوق بقـــرب اللقـــاء. مما دعت الكتّاب إلى بث لوعتهم وأحزانهم من هذا الفراق تجاه أصدقائهم.

---

[1])الدر النظيم، ص٨-١٢.

[2]) انظر: الدر النظيم، ص١٣-١٤، ٥٨-٦٠. نهاية الأرب، ٨/٢٦-٢٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ز: رسائل الشفاعة والعناية :

هذه الكتب إنما تصدر عن ذوي الرتب والأخطار ، والمنـــازل والأقـدار الذيـن يُتَوسل بجاههم إلى نيل المطلوب ودرك الرغائب، وتكون إما لبذل ماله ولا يبتذل مالـــه إلا ذو مروءة يفرض على نفسه حقا فيه لقاصديه، وإمّا بذل جاه وفي بذل الجاه إراقـــة مـاء الوجه ، والتعرض لموقف الردّ... [1].

ويمكن القول بأنها هي التي يوجهها أصحابها إلـــى أصدقائـــهم لـهدف مســاعدة الاخرين، والعناية بهم، وسدّ عوزهم، وقد انتشر هذا اللون عند كتّاب العصـــر الأيوبـــي ، وبينوا معاناة الاخرين، والتماس العون لهم حتى يتم التجاوز عمّا يعترضهم مـــن عقبـات ومصاعب، وعرضوا كذلك إلى حالة الشخص المراد بالشفاعة له، ومالها من آثار حســـنة وفوائد جليلة لتلك المساعدة.

وهذه رسالة كتبها ابن الأثير إلى الصاحب بهاء الدين أبي الحجاج يوسف بن رافـع ابن تميم قاضي القضاة بالشام عن نفسه، يتضمن العناية ببعض الفقراء- كان مؤذناً وأحبَّ الاشتغال بالعلم وسأل كَتْبُ هذا الكتاب إليه:

"اسعد الله أيام المجلس السامي المولووي الصاحبي القضائي البهائي، وازن دنيـاه بدينه، وخصه بعلي المقام أمينه..... قد صار كتاب المملوك بريداً يرسله كل ذي حاجـــة في حاجته، وكثرة ترداده إلى الأبواب حتى اخلقت نضارة ديباجته، ولولا أن المطلوب بـــه شكراً محضاً لصانه ووفرّه، وثقّله ووقرّة ، وقد توجه في حاجة الشيخ فلان وهـــو ممـــن طلب الخير من مطالبه ، وسلك إليه في جميع مذاهبه ، حتى أنه أحب أن يراغم الشـيطان بكلمة الإخلاص ، وأن يجعله فارّاً منه وله حصاص .... وقد أحب أن يرقى مـــن درجـة

---

[1]) صبح الأعشى، ١٢٤/٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

العبادة ، إلى درجة العلم والإفادة ليصير كوكبه قمراً، وتصبح أوْضَاحُه غُرَرا، وكان سلفر إلى حلب المحروسة وحَظِيَ بلقاء المجلس السامي..... وهذه شيمة الأيام إذا لم تَنَلْ المرء بنوائبها، شغلته بتأميل مواهبها ، وقد عاد الآن إلى طلب العلم بنيّة التثمير والاجتهاد، وان يستنتج منه ولداً يخلد بعده دون الأولاد، وهو مع ذلك فقير والفقر يغلب صاحبه بلُدده ولا ينفس عنه القيام بأوْده، ولا عناء له أن يمنحه المجلس من أفضاله كما يمنحه من فضله ، وأن يجعل همّه واحداً لا يفترق شمل مطلبه بتفريق شمله . والرأي اسما وأعلا إن شاء الله تعالى[1].

نرى ابن الأثير في رسالته يبين أهمية العلم والعلماء في الإسلام ، ورعاية العلماء من واجب ولاة الأمور، بتامين كل المستلزمات التي يتطلبها العالم لعلمه، تأسياً بقول الرسول عليه السلام " من سلك طريقا يبتغي فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة. فابن الأثير يطلب من صاحبه القاضي أن يعتني بطالب العلم متخذاً أسلوب الترغيب

وفي كتاب أخر عن نفسه إلى الصاحب الوزير صفي الدين أبى عبد الله محمد بن شكر[2]، وزير الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب شفاعة في حق الشيخ الأمين زكي الدين أبى عبد الله ابن سلامة من مشاهير التجار الدمشقيين ، اقتطف منها :

يَمْشي الكِرامُ على آثارِ غيرهمُ وأنْتَ تخلق ما تأتى وتَبْتدِعُ[3]

ومساق القول الأعلام بحال فلان وهو شيخ كبير ذو سن عالية، وحال عاطلة غير حالية .... ومما يشكوه انه نهض بحمل الثمانين فبهضه ثقل محمله، وأصبح في انتظار الموت كراكب، عرف محله فبات دون منزله، وقد أحاط العلم الكريم أن له بدمشق أهلاً وداراً، وملكاً وعقاراً، وليس شيء من ذلك إلاّ وهو من تجارة استثمرها، او عمارة استعمرها،

---

[1])ديوان رسائل ابن الأثير، ٢/١٢٠-١٢١.

[2]) كان محباً للعلم وأهله له مصنف سماه "البصائر" وزر للعادل ثم غضب عليه، وترضاه الكامل وأعاده إلى وزارته وحرمته، أصله من دميره بمصر، توفي سنة ٦٣٠هـ ودفن بمدرسته المشهورة بمصر. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، القاهرة، ١٩٩٤م، مجلد ١٣، ص١٥٧. (نسخة دار الحديث).

[3])ديوان أبي الطيب المتنبي ، ضبط وتصحيح مصطفى السقا واخرون، شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧١م، ج٢، ص٢٣١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد وضع السلطان يده على جميع ذلك ومنعه من العود إليه والتصرف في مبيعـــه، ولـــم يُظْلَم أحد كظلمه فتيأس بأشباهه وامثاله، ولا أجرم جرماً يعلم أنه فيه معاقب بأعمالـــه ، والذي كان يَعُدّهُ من تقلقلهِ لهدوءه.... فمن يرد الله به خيراً يُفقّهه في عمارتها بالأعمـــال الصالحة ، ذوات الموازين الراجحة ، التي هي في الدنيا زينة رابعة، وفي الآخرة ذخـــيرة نافعة ... كما إن على المسفور إليه أن يأتي بجهد أفضالـــه. وهـذه حسـنة، للمجلـس شطرها بتسهيل مساعيها و مساغها، وللخادم شطرها بتسنية إبلاغـــها ، غـير أن أحـد الشطرين أكرم مجنى، وأحكم مبنى، وأقوم عند الله وزناً، وفرق بين ما يفعل فَتُطوّق بـــه الأعناق ، وبين ما يقال فَتُطوّل به الأوراق. والرأي اسما إن شاء الله تعالى . والسلام[1].

رسالة كتبها ابن الأثير يتشفع فيها لهذا الشيخ مبيناً فيها الآثار الجليلة التي ســـينالها صاحب الأعمال الحسنة، مع استمرار أجرها حتى بعد الممات.

وهكذا نرى أن الرسائل الإخوانية غالبا ما ينظر إليها من وجهة نظر إســـلامية ، لتوضيح الآثار المترتبة من جراء أعمال المعروف والأعمال الخيرية التـــي تجـب علـى الأغنياء ليسدوا به رمق الفقراء والمساكين والمعوزين.

---

[1])ديوان رسائل ابن الأثير، ٢/١١٢-١١٣.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

الفصل الثالث

الدراسة الفنية في أسلوب الرسائل

المبحث الأول: الوحدة الفنية في الرسالة

المبحث الثاني: الألفاظ والتراكيب

المبحث الثالث: الصور البيانية

المبحث الرابع: المحسنات البديعية

المبحث الخامس: الإيجاز والإطناب

المبحث السادس: العاطفة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الأول: الوحدة الفنية في الرسالة

وقفنا فيما مضى على أنواع الرسائل وموضوعاتها، وفيما يلي سنحاول الوقوف على خصائص الرسائل الفنية، والتي تعد عاملاً رئيساً في الوصول بالعمل الأدبي إلى مرتبة عالية من الجمال الفني.

وقد اهتم النقاد العرب بالحديث عن بنية الرسائل، وما يستحب في كل جزء من أجزائها، وتفاوتت العناية فيما بينهم على الاهتمام بإسداء النصائح العامة، أو الاعتناء بشكل الرسالة وحسن تنظيمها، والتناسب بين الموضوع والمرسِل والمرسَل إليه، وبين كل جزء من أجزائها.

وللنثر الفني بناؤه الخاص الذي يحدد ملامحه، وسماته الفنية، والتي تبدو ظاهرة في أجزاء العمل الأدبي، من خلال تناسبها، والارتباط بعضها ببعض.

ويمكن دراسة البناء الفني للرسائل التي تتكون من ثلاثة أقسام، المقدمة والعرض أو الموضوع ثم الخاتمة أو النهاية:

أ: المقدمة:

وهي المقدمة التي يدخل بها الكاتب إلى موضوع الرسالة المنشأة، واشترط النقاد لبراعته أن يكون دالاً على المعنى الذي يتضمنه الكتاب - الرسالة- ويهدف إليه، ويسمى كذلك حسن الابتداء وهو من نعوت الألفاظ، بمعنى أن يكون مطلع الكلام دالاً على المقصود من الكلام، وكما قال علماء البيان" أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات فإنهن دلائل البيان"[1]. وقد ذكر صاحب كتاب مواد البيان علي بن خلف الكاتب أنه يجب أن تكون الافتتاحات مناسبة للموضوع وغير ثقيلة على السامع، حيث يقول: "وينبغي للمترسل أن

---

[1]) نجم الدين ابن الأثير، جوهر الكنز، تح/ د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٨٠م، ص٢١٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يتجنب افتتاح الكلام بما يتطير منه، ويثقل على سامعه، إذا كان مفضياً إلى مدح الرؤساء ومخاطبة العظماء[1]. وبالرغم من أن علي بن خلف الكاتب قصر الافتتاح على مدح الرؤساء والعظماء، إلا أن صاحب جواهر الكنز الذي سبق علياً صاحب مواد البيان، جعل المقدمة ملزمة لمقاييس وأحكام "إن على الكاتب أن يحترز في أول ابتدائه من ذكر ما يتطير منه، أو ما لا يفهم معناه إلا بكلفة"[2].

وقد عني هؤلاء النقاد بمقدمة الرسالة عناية فائقة، فوجهوا أنظار الكتّاب إلى بذل المزيد من الجهد إلى الإجادة في المقدمة إدراكاً منهم لقوة الأثر الذي تتركه هذه المقدمة في النفس وما تحدثه من جذب للسامع، بحيث يجعل همه بعد سماع المقدمة إلى الإصغاء والاستيعاب.

وقد تبين أن هؤلاء النقاد اتفقوا على أن المقدمات يجب أن تكون واضحة لا لبس فيها ولا يداخلها غموض وأن تكون دالة على الموضوع، وأن تكون جيدة السبك، وسهلة اللفظ.

وقد تأثر صاحب الطراز بابن الأثير، وقال عن براعة الاستهلال واستحبابه في النثر: "ينبغي لكل من تصدى لمقصد من المقاصد وأراد شرحه بكلام أن يكون مفتتح كلامه ملائماً لذلك المقصد دالاً عليه، فما هذا حاله يجب مراعاته في النظم والنثر جميعاً، ويستحب التزامه في الخطب والرسائل والتصانيف، وهكذا حال التهاني والتعازي يكون مبدؤها وتصديرها بما يناسب ذلك المعنى ليكن معلوماً من أول وهلة، فحيث يكون المطلع

---

[1]) علي بن خلف الكاتب، مواد البيان، تح/د. حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاتح، ١٩٨٢م، ص٢٦٣.

[2]) جوهر الكنز، ص٢١٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

جارياً على ما ذكرناه فهو من الافتتاح الحسن، وحيث يكون جارياً على عكسه فهو معدود من القبيح"[1].

والذي يطلّع على مقدمات وابتداءات الرسائل بنوعيها الديوانية والإخوانية في هذا العصر -الأيوبي- يجد أن هذه الرسائل مختلفة ومتنوعة، تارة نجدها وقد ابتدأت بآيه من القرآن الكريم لما له من تأثير في النفس البشرية، وقداسة عند المسلمين مما يوقظ ذهن السامع للإصغاء إليه وجذبه للإنصات، وسأشير إلى ذلك لاحقا .

وتارة أخرى نجدها مبتدئة بالتحميد والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، وتارة بالدعاء للمرسل إليه، وحيناً آخر بأبيات من الشعر، وهذا الأخير يكثر في الرسائل الإخوانية، لما في الشعر من أثر في نفس المرسل إليه.

وعن أهمية التحميدات وأثرها في النفوس، قال أبو هلال العسكري "إذا كان الابتداء حسناً بديعاً، وملحاً رشيقاً، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام ... ولهذا جعلت أكثر الابتداءات (بالحمد لله) لأن الناس تتشوق للثناء على الله، فهو داعية إلى الاستماع. وقال عليه السلام (كل كلام لم يبدأ فيه بحمد الله فهو ابتر .."[2].

وقد نبه كذلك ابن الأثير على أن التحميدات تخص الرسائل السياسية لما تتضمنه من الأمور اللائقة بالتحميد، قال "ومن الحذاقة في هذا الباب أن تجعل التحميدات في أوائل الكتب السلطانية مناسبة لمعاني تلك الكتب" وإنما خصصت الكتب السلطانية دون غيرها

---

[1]) يحيى بن حمزة بن علي العلوي، كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، طبع بمطبعة المقتطف بمصر، ١٩١٤م، ج٢، ص٢٦٦-٢٦٧.

[2]) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تح/د. مفيد قميحه، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ-١٩٨١. ص٤٩٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

من الكتب لأن التحاميد "لا تصدر في غيرها، فإنها تكون قد تضمنت أموراً لائقة بالتحميد كفتح معقل أو هزيمة جيش أو ما يجري هذا المجرى"[1].

وقد بين صاحب كتاب معالم الكتابة ومغانم الإصابة أن التحميد لا يقع إلا في الكتب السلطانية بمعنى المكتوبة عن السلطان، وأن يكرر التحميد ثانية وثالثة في الكتاب ثم يذكر الشهادتين، ويصلي على سيدنا محمد عليه السلام، ثم القول "أما بعد"[2]. ومن براعة المقدمة أو الاستهلال ما ذكره شهاب الدين الحلبي، بقوله "يأتي الناظم أو الناثر، في ابتداء كلامه ببينة أو قرينة، تدل على مراده في الرسالة أو معظم مراده" والكاتب أشد ضرورة إلى ذلك من غيره، ليبني كلامه على نسق واحد دل عليه من أول وهلة، علم به مقصده"[3] في الغالب، يستهل الكتاب رسائلهم بما يُشْعِر بالمعنى، ومن ذلك ما كتبه القاضي الفاضل في كتابه تهنئة بقدوم من الحج - لم يذكر صاحبها- مبتدئاً بقوله تعالى "**فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم. والحمد لله الذي ثبت أركان الإسلام، وأنار وجوه الأيام، وأوجب نذور الخدام، أعز الله نصرته، وخلد نعمته**"[4] . هذا النص الفاضلي ابتدأ بآية من القرآن الكريم، يتناسب معناها ومفهومها مع مناسبة الرسالة ومضمونها وهو التهنئة بالقدوم من الحج.

وكتب ضياء الدين الأثير تقليداً لمنصب الحسبة[5] استهل هذا التقليد بآية من قوله تعالى:"**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك**

---

[1]) المثل السائر، ٣/١٠٨.

[2]) القاضي عبد الرحيم بن علي بن شيث بن القرشي، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، تح/ محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، ص٧٢.

[3]) حسن التوسل إلى صناعة الترسل، ص٢٥٠-٢٥١.

[4])الدر النظيم، ص٦٤-٦٥.

[5]) راجع التقليد في المثل السائر، ٣/١١٨-١١٩، صبح الأعشى، ١١/٦٨-٦٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هم المفلحون"[1] هذه الآية التي استهل بها ابن الأثير تتناسب مع التقليد الذي كتبه لمنصب الحسبة، لأن من مهام القائم على الحسبة هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن الدعوة إلى الله، وإصلاح أحوال المسلمين.

وبين أهمية منصب المحتسب من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أقام الكاتب بناء رسالته على هذا المعنى الذي دلت عليه الآية القرآنية المذكورة.

وهناك الكثير من الرسائل الديوانية وكذلك الإخوانية المنتشرة بين صفحات الكتب نراها قد استهلت بآيات من الذكر الحكيم، والتي سأتحدث عنها في مكان آخر من هذه الأطروحة.

ومن جملة الافتتاحات التي يفتتح بها كتاب الرسائل بالدعاء، فهذا ابن الأثير يفتتح رسالة له الدعاء كتبها عن السلطان الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب إلى الديوان العزيز المقدسي النبوي، عظمه الله تعالى جواباً عن كتاب ورد منه، وقد أرسل إليه سراويل الفتوة يقول: "**أدام الله أيام الديوان العزيز المطهر النبوي، الإمامي الناصري، وأعلى لدولته كلمة ويداً، وهيأ له من أمره رشداً ومنحها غمراً لا يجعل له أمداً، وأورثها الأرض تتبوأ منها حيث شاءت رغدا، وسلك أعداءها عذاباً صعدا، وأهلكهم بسيفها قهرا وبمعاليها حسدا**"[2].

ويذكر ابن فضل العمري أن سبب مخاطبة الخليفة بهذا الأسلوب "أدام الله الديوان" هو الابتعاد عن مخاطبة الخليفة نفسه، ويكون الدعاء للديوان بما فيه معنى دوام العز،

---

[1])سورة آل عمران. الآية ١٠٤.

[2])ديوان رسائل ابن الأثير، ١٣٤/٢-١٣٥ (تحقيق هلال ناجي).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والسلطان وبسط الظل، وما أشبه ذلك"[1]،وذكر كذلك ابن شيث بأن يكون الدعاء في الكتاب دالاً على المقصود به"[2]. فهذا الاستهلال المدعّم بالدعاء إنما هو تمهيد لموضوع الرسالة والذي يعبّر عنه في كثير من الأحيان.

ولا شك في أن عناية الكتّاب بمطالع ومقدمات رسائلهم، ودقتهم في اختيارها تبدو ظاهرة من خلال النصوص التي تَمَثّلتُ بها وغيرها، فقد اختاروا لها الوضوح والتناسب والتعبير المباشر عن العرض ما يجعلها مقدمات حسنة عذبة، يستدل القارئ بها لأول وهلة على مضمون الرسالة.

ومن الأمثلة التي تستفتح بها الرسائل ببيت من الشعر أو بأبيات، ذلك الكتاب الذي كتبه ابن الأثير عن الملك الأفضل إلى عمه الملك العادل، وضمنه شرحاً عن حاله مع عمه، وذلك بعد وفاة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله[3]، حيث ابتدأه بهذا البيت من شعر البحتري:

نَدِمْتُ على أمْرٍ قَضَى لم يُشر به نصيحٌ، ولم يَجْمَعْ قُواهُ نِظامُ[4]

هذا البيت الذي يحمل معناه معنى موضوع الرسالة التي أنشئت لشرح حالته.

وكتب القاضي الفاضل كتاباً آخر[5] يبين اشتياقه وأتواقه، وما يعانيه من الرجاء لقرب مشاهدته، فاستفتح الكتاب بالبيتين التاليين:

لا تَحْسَبَنَّ البُعْدَ غَيَّرني والبُعْدُ غَيرُ مُغَيرٍ عهدي

---

[1]) صبح الأعشى، ٤٩٦/٦. معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص١٠٧.

[2]) معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص ١٠٧.

[3]) ديوان رسائل ابن الأثير. ص٩٩ تح هلال ناجي

[4]) ديوان البحتري، تح/ حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، مصر، ١٩٧٢، ج٤، ص٢٠٦٩.

[5])الدر النظيم، ص٦٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فـــإذا الـــذي حســـــنت مودتـــــه بـــالقرب ضاعفـــها علـــى البعـــد[1]

ويمكن القول، إن التمثل بالشعر مستحسن في مواقع، وغير مستحسن في غيرهـــا، فمثلا لا يستحسن في باب الرسائل الصادرة عن الملوك والصادرة إليـــهم، وتحســـن هـــذه الرسائل الافتتاح بالآيات القرآنية، لأن صناعة الشعر مغايرة لصناعة الترســـل، وإدخـــال بعض صنائع الكلام في بعض غير مستحسن"[2].

ولكننا نرى أن هذا الأمر لم يلتزم به الكتاب، فكانت بعض رسائلهم تصدر للملـــوك مفتتحة بأبيات شعرية، ومع ذلك يمكن القول إن أكثر الرسائل المفتتحة بأبيات شعرية هـــي الرسائل الإخوانية[3]، فمن ذلك كتاب كتبه ابن الأثير يتضمن البشرى بفتح، فقد تمثل ببيـــت من الشعر للمتنبي وهو:

ومـــن طلـــب الفتـــح الجليـــــل فإنمـــــا مفاتيحه البيض الخفـــاف الصـــوارم[4]

ب: العرض: وهو موضوع الرسالة الذي تعبر عنه، وفيها يحتاج الكـــــاتب إلـــى أســـلوب التدرج في نقل الأفكار، وتكون كذلك مرتبة ترتيبا منطقيا دون تأخير أو تقديم أو تكـــــرار، وإذا ما أراد الانتقال من فكرة إلى فكرة فعليه -الكاتب- أن يلزمه حسن التخلـــص، وهـــذا يقودنا إلى الرأي القائل بأنه لا فرق بين الشعر والنثر في الموضوع ولكن الشعر والنـــثر لا يتطابقان تمام التطابق، بل تبقى مسافة صغيرة بينهما تعينها فروق صغـــيرة"[5]. فالشـــعر

---

[1])ديوان القاضي الفاضل، ص٤٨٦، الدر النظيم، ص٦٠.

[2]) صبح الأعشى، ٢٩٥/٦.

[3])راجع: الدر النظيم، تح /أحمد أحمد بدوي، ديوان رسائل ابن الأثير، تح/ نوري القيسي وهلال ناجي.

[4]) عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبـــي، دار الكتـــاب العربـــي، بـــيروت، لبنـــان، ١٩٨٠، ج٤، ص١٠٤.

[5]) د. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٨٦م، ص٥٩٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يحتاج إلى حسن التخلص من موضوع إلى موضوع، وكذلك النثر. فقال عنه ابن الأثير "بأن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني، فبينا هو فيه أخذ فيه معنى آخر غيره، وجعل الأول سبباً إليه، فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض، من غير أن ينقطع كلامه ويستأنف كلاماً آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً[1]، وذكر صاحب الطراز أن حسن التخلص يكون في النثر أسهل منه في الشعر، وذلك لأن الناظم يراعي القافية والوزن فيكون في ذلك صعوبة عليه بخلاف الناثر فإنه لا يراعي قافية، ولا يحافظ على وزن بل هو مطلق العنان يضع قدمه حيث شاء"[2]. وهؤلاء النقاد جميعاً بينوا على أن حسن التخلص يلتزم به في النثر والشعر على حد سواء، وهذا ما يجعل كثيراً من الرسائل ذات وحدة بنائية واحدة. والحديث عن وحدة الموضوع والترابط بين أجزائه، يعد ركناً من أركان الكتابة، وهذا ما عبر عنه ابن الأثير بقوله :"إن كل كتاب بلاغي ذي شأن، ينبغي أن تودع فيه أركان خمسة منها أن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة، لتكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض، ولا تكون مقتضبة[3]. ولأن موضوع الرسائل الجهادية يعد من الموضوعات الجادة، فإننا نجد تشابهاً إلى حد كبير في أسلوب هذه الرسائل وموضوعاتها، "يتسم موضوع الرسائل القدسية، بأنه من الموضوعات الجادة، وهو موضوع الجهاد والفتوح، ولذا فإن أساليب هذا اللون من النثر متشابهة"[4]. وهذا الشرط

---

[1]) المثل السائر، ١٢١/٣.

[2]) الطراز، ٣٣/٢.

[3]) المثل السائر، ٩٦/١-٩٧.

[4]) عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.ص٣٤٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يلزم الكاتب والشاعر، مما جعلني أميل إلى القول بأن الشعر والنثر لا فرق بينهما إلا القليل.

ومن خلال الدراسة لهذه الرسائل المتوافرة بين طيات الكتب، نلحظ أن أغلبها يدور حول هذه الآراء، وهذا الإطار الذي يستند على الترابط بين الأفكار، سواء من معنى إلى معنى، أو فكرة إلى فكرة، أو الإنتقال من المقدمة إلى الموضوع.

ونلحظ أن الرسائل السياسية الموجهة إلى الخلفاء العباسيين، يتنقل كاتبوها من تمجيد الخلافة العباسية الممثلة بهؤلاء الخلفاء إلى الحديث عن أحوال الجهاد، وبيان أحوال دولتهم حتى يصل إلى ذكر الطلب المراد من الخليفة العباسي، مع وجود بعض الفوارق بين أنواع الرسائل السياسية[1]. ففي رسائل البشارة والتهنئة بالانتصارات، ينتقل الكتّاب من التهنئة إلى تصوير المعارك مع الصليبيين، ومن وصف الفتح وآثاره إلى إبراز حال جيوش الأعداء بعد الهزيمة[2].

كتب القاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الناصر لدين الله الخليفة يومئذٍ ببغداد، كتاباً يبشره بفتح بيت المقدس وما معه، واقتلاع ذلك من أيدي الفرنج، وإعادته إلى ما كان عليه من الإسلام "**أدام الله أيام الديوان (العزيز النبوي الناصري) ولا زال مظفر الجد بكل جاحد، غنياً بالتوفيق عن رأي كل رائد ... والى الأعداء خيلاً إلى المراقب وخيالاً إلى المراقد**[3].

---

[1])انظر: المثل السائر ،١١٠/٣-١١١، صبح الأعشى ٩٨/١٠-١١١.

[2])انظر: صبح الأعشى ٨١/١٣-٩٠، مفرج الكروب ٤٤٣/٢ وما بعدها.

[3])راجع الدر النظيم، ص ١٥-٣٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هذه البداية التي ابتدأها القاضي في رسالته، من تحميـــدات وثنـــاء علـــى الخليفـــة والخلافة، وتعداد أفضالهما على المسلمين وبلاد المسلمين، ثم ينتقل إلى الموضوع الذي من أجله كانت الرسالة وهو البشرى، يقول "**كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التباشير لصبح هذه العزمة، والعنوان لكتاب وصيف هذه النعمة، فإنها بحـو للأقلام فيه سبح طويل، ولطف تحمل الشكر فيه عبء ثقيل، وبشرى للخواطر في شـوحها مآرب ... ولقد صارت أمور الإسلام أحسن مصيرها، واستتبت عقائد أهلـــه علـــى أبيـــن بصائرها وتقلص ظل الكافر المبسوط..** ويمضي القاضي الفاضل في وصـــف وتصويـــر وضع المسلمين عند استردادهم لبيت المقدس، وعقد المقارنة بين حال البلاد - القدس- قبـل الفتح وبعده. "**وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة، فأدلجت السيوف إلى الآجال وهـــي نائمة، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين، واستطاعت لـــه أنـــوار أبـــانت أن الصباح عندها حيان الحين، واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقـــا ... وخفقـت علـــى الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشـــفى بالماء غللهم**[1] ... ويتابع القاضي الفاضل وصف الفرنج وما تركت عليـــه الحـــرب مـــن ويلات ومصائب وذل وهوان، وصور بطش الخادم - صلاح الدين بهم مـــن أســـر وقتـــل وتشريد وتفرق لجيوشه من بعد قوته وبطشه حتى استعاد بيت المقدس.

وغالبا ما تتحدث الرسائل عن موضوع واحد. متناولة جميع جوانبه وما يتصل بـــه من معان.

---

[1])راجع الدر النظيم، ص١٥-١٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فرسائل الاستنجاد، لا يدخل الكاتب إلى موضوعها مباشرة، وإنما يعرض لحالة الجيش الإسلامي وصورته، وما آل إليه الأمر من نقص في العتاد والسلاح ونقص المؤونة، ويعرض بالمقابل حال الأعداء من حيث كثرة عددهم وسلاحهم، والإمدادات المتزايدة لهم والعون المتواصل، ثم يأتي بعد ذلك إلى طلب النجدة والعون، وبيان أثرهما في خدمة الجهاد ورفع المعنويات وبث الروح الجهادية لدى المجاهدين[1].

إن كل عنصر من هذه العناصر يرتبط مع غيره ارتباطاً واضحاً جلياً، على الرغم مما نلاقيه في بعض الرسائل من تغن بالقائد تارة، وبالأمجاد الغابرة تارة أخرى، والنصر على الأعداء وما يلحق بهم من هزائم نكراء، هذا كله يوضح بجلاء وإن كانت في الظاهر موضوعات متفرقة إلا أنها مرتبطة ارتباطاً وثيق الصلة فيما بينها.

أما من حيث طول الموضوع وقصره أو الإطناب والإيجاز، فذلك معتمد على المواقف والموضوعات التي تتعلق بها المكاتبة، مما يحدو بالكاتب أن يسير وفق قاعدة لكل مقام مقال، فالبعض منها كان يستوجب الإيجاز وعدم التطويل، وبالمقابل كان البعض الأخر يستوجب من الكاتب أن يطنب ويسهب في عرض الموضوع، كما في الكتب السلطانية والفتوح، لما في النفس من تشوق إلى ذلك الإطناب، ويؤكد على هذا أبو هلال العسكري، حيث يقول "لا شك في أن الكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور الجسيمة، والفتوح الجليلة، وتضخيم النعم الحادثة، والترغيب في الطاعة، والنهي عن المعصية، سبيلها أن تكون مشعبة مستقصاة، تملأ الصدور، وتأخذ بمجامع القلوب"[2].

---

[1])انظر: صبح الأعشى ، ٣٤٠/٦، الروضتين، ١٧١/٢.
مفرج الكروب ٣٠٦/٢، ٤٩٦-٥٠٤.

[2])انظر: الصناعتين، ص١٧٢-١٧٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولهذا نجد رسائلاً تتسم بالتفصيل في العرض أو الموضوع، سواء في السياسية منها أو الحربية، وذلك لإعطاء الصورة الواضحة والمعبرة عن جميع جوانب ذلك الموضوع[1].

ج: **الخاتمة:** وكما اشترط النقاد حسن الابتداء، اشترطوا كذلك حسن الختام، لأن الخاتمة كما قال عنها ابن شيث (٦٢٥هـ) "كذلك عند الختم أيضاً يكون مرتبطاً به -الموضوع- فإنه من محاسن الكتابة"[2] وكما قال ابن أبي الإصبع (٦٥٤هـ) وهي آخر ما يبقى في الاسماع، لذا ينبغي أن تكون متناسبة مع الموضوع، حسنة عذبة، لتبقى لذتها في الاسماع، ولأنها ربما حفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال، فيجب أن يجتهد في رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزلتها"[3].

وتحدث عنها القزويني (٧٣٩هـ) تحت باب الانتهاء، فقال "إنه آخر ما يعيه السمع ويرتسم في النفس، فإن كان مختاراً كما وصفنا جبر ما عساه وقع فيما قبله من التقصير، وإن غير مختار كان بخلاف ذلك، وربما أنسى محاسن ما قبله"[4].

هذه الآراء التي جاءت من علماء كان لهم الاهتمام الأكبر بالبلاغة والنقد، تؤكد على حسن الخاتمة وصياغتها، ونبهوا كذلك على ضرورة ارتباط الخاتمة بالموضوع.

ومن خلال النظر في رسائل العصر الأيوبي، نلحظ أن الكتاب اعتنوا عناية فائقة بخواتيم رسائلهم وكتبهم من حيث مناسبتها للموضوع وحسن الصياغة والأداء فجاءت مكملة للأغراض التي يعبرون عنها.

---

[1])انظر مثلاً: صبح الأعشى ١٣/٨١-٩٠، ١٠/٩٩-١١١. الدر النظيم، ص١٥-٣٤.

[2]) معالم الكتابة، ص١٠٧.

[3]) ابن أبي الإصبع المصري ،تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ، تح/ د. حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م، ص٦١٦.

[4]) جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، قدم له وبوبه وشرحه، د. علي أبو ملحم، منشورات دار مكتبة الهلال، ط٢، بيروت، لبنان، ١٩٩١، ص٣٥٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وكما كانت الرسائل مختلفة في الابتداء من حيث ابتداؤها بالشعر أو آيات من القرآن الكريم كانت أيضاً خواتيم الرسائل منها ما يكون بالدعاء للمرسل إليه، وبعضها ما يختم بالتحميد والتمجيد لله تعالى، والبعض الآخر ما يختم بالتذكير بما سبق الحديث عنه.

اختتم القاضي الفاضل رسالته المبشرة بفتح بيت المقدس، مصوراً صلاح الدين بأنه فاتح الثغور. حيث يقول "**وهذه البشائر لها تفاصيلٌ لا تكاد من غير الألسنة تتشخّص، ولا ربما سوى المشافَهةُ تتلخص، فلذلك نفذْنا لساناً شارحاً ومبشراً صادحاً، يطالع بالخبر على سياقته، ويعرض جيش المسرّة من طليعته إلى ساقته، والله الموفق للصواب والحمد لله ربي، وعليه توكلت وإليه أنيب**"[1].

هذه الخاتمة التي أجملت ما في العرض وفي الموضوع، من دعاء لله سبحانه بالتوفيق، وتحميد لله على هذا الفتح الذي أثلج صدور كلّ المسلمين، والذي لم يكن لولا الجيش الإسلامي الذي ما يزال يدافع عن الأمة الإسلامية وعن قضاياها، وهذا القائد فاتح الأمصار والثغور، وحماه الله على مر الدهور.

وفي كتاب آخر لابن الأثير ختمه قائلاً: "**واعلم أنّا غداً وإياك بين يدي الحَكَم العَدْل الذي تكف لديه الألسنة عن خطَابِها، وتستنطق الجوارح بالشهادة على أربابها، ولا ينجو منه حينئذٍ إلا من أتى الله بقلب سليم، وأشفق من قول نبيه "لا تأمرن على اثنين ولا توليّن مال يتيم**"[2].

---

[1])الدر النظيم، ص٣٣-٣٤.

[2]) حسن المحاظرة، ١٥٩/٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فابن الأثير يذكر القاضي بأهمية الأمانة، ليس في منصب القضاء فحسب، بل في جميع مناحي الحياة، وفي جميع أمور المسلمين، وسوف يسأل عنها يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وخواتيم الرسائل بشكل عام نراها متغيرة حسب موضوع الرسالة، ففي الرسائل الحربية مثلاً نجد الكتاب يختمون رسائلهم بما كتب في استهلال الرسالة وموضوعها، وهذا القاضي الفاضل يختتم رسالة استنجاد إلى الخليفة العباسي بالدعاء له، قائلاً "**والله سبحانه وتعالى يلهمه توفيقاً، ويسلك به إليه طريقاً، وينجدنا به سيفاً لرقبة الكفر ممزقا، ولدمه مريقا، ويجعله في مضمار الطاعات سابقا مسبوقاً. إن شاء الله تعالى**"[1].

هذه الخاتمة أجملت الموضوع كاملاً وهو الاستنجاد بالخليفة العباسي، وفيها دعاء لله سبحانه أن يجعل الخليفة سيفاً قاهراً للأعداء، وتمتاز هذه الخاتمة بالترغيب في الجهاد الإسلامي، والحث على تلبية النجدة عن طريق الدعاء لله تعالى بتوفيق الخليفة لصون حقوق الأمة الإسلامية كاملة، فهذه الخاتمة تتفق مع الموضوع الذي كتبت من أجله الرسالة.

ومن الكتاب من يختتم رسائله بآيات من الذكر الحكيم، هذا الكتاب أرسله العماد الأصبهاني يحمل موضوع البشارة بكسرة حطين واختتمه بآية قرآنية، يقول "**والبشارة بفتح القدس لا تتأخر، والهمم بعد هذا الفتح السني على ذلك تتوفر، والحمد لله الذي تتم الصالحات بحمده ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده**"[2].

---

[1]) صبح الأعشى، ٣٤٤/٦.

[2]) الروضتين، ٨٧/٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فضلاً عمّا سبق، نجد أن الرسائل الإخوانية غالباً ما كانت تختتم ببيت من الشعر أو أبيات، فهذه رسالة تهنئة بقدوم من الحج اختتمها القاضي الفاضل ببيتين من الشعر يقول:

قدمتَ، فـــأقدمت النـــدى يحمـــلُ الرِّضـــا إلى كلِّ غضبانٍ على الدهـــر عـــاتبِ

وجئـــتَ كمـــا جـــاء السَّـــحابُ مُحركـــاً يديك بمعـــروف يفـــي بالســـحائب[1]

وتتميز الرسائل الإخوانية بالدعاء في أغلب أغراضها كالتهنئة والتعزية والاعتـــذار .. ففي رسالة اشتياق كتبها القاضي الفاضل لصديقه، التي اختتمها بالدعاء، قائلاً "**وأســـأل من بيده مقاليد الأمور، وتجري بمشيئته تصاريف الدهور، الرغبة في أمـــد التلاقـــي وأن يسرّ بقربها نفساً كادت تترقى إلى التراقي، ويبقيها حيث كانت آمنة من الحدثان، ممتعـــة بما خصت من الفضل الذي لا يوجد له فيه ثان، إن شاء الله تعالى**"[2].

هذه الأشواق التي جاءت بداية الرسالة مروراً بالعرض إلى الخاتمة، إنما تعبر عـــن تناسب بين فقرات الرسالة وأجزائها، وترابط المعنى وحسن الفكرة التي كانت تجـــول فـــي خاطره.

فخواتيم الرسائل قد جاءت متناسقة ومترابطة مع المقدمة والعرض في الكثير منـــها، وعدم الانتقال من فكرة إلى أخرى إلا بحسن تخلص.

لذلك قال ابن الأثير "أن يؤخذ مؤلف الكتاب في معنى من المعاني، وأن تكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض"[3].

ويمكن القول أن هذه الخواتيم امتازت بالحسن، الراجع إلى المعنى ووضوحه، ودقة اللفـظ المختار، وتجنب الحشو، كما أنها تؤذن بانتهاء الكلام فكان قفلاً، كما كان مطلعها مفتاحاً[4].

---

[1])الدر النظيم، ص٦٥.

ديوان القاضي الفاضل، ص٥٠٣.

[2])الدر النظيم، ص١٣-١٤.

[3])المثل السائر ، ١٢١/٣.

[4]) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ص٣٤٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الثاني: الألفاظ

لا شك في أن النقاد العرب، وضعوا للفظة المفردة أهمية وقيمة أدبية خاصة في العمل الأدبي، فقد أولوها الاهتمام والعناية الخاصة، ودعوا إلى أسس معينة تجعل اللفظة ذات مدلول وأثر فني يؤثر في الأسماع، ومن أبرز المظاهر الدالة على ذلك إشارتهم بأن لغة العلم تختلف عن لغة الأدب وبالتالي فإن لغة الأدب تختلف عن لغة الحياة اليومية.

ومن تلك الأسس التي دعا إليها النقاد أن تكون اللفظة سهلة ومألوفة الاستعمال، بحيث يفهم معناها دون الرجوع إلى المعاجم العربية المختلفة لاستخراج معناها، وأن تكون كذلك سهلة النطق ويستوجب ذلك أن تكون متباعدة في مخارج الحروف للفظة الواحدة، وتقاربهما يعني أنها ستكون "قلقة غير مستقرة في مكانها"[1].

ويقول أبو هلال العسكري "الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها، ويعبر عنها فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى، كحاجته إلى تحسين اللفظ لأن المدار بعد ذلك إصابة المعنى، ولأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة"[2].

واللفظة المختارة كذلك يجب ألا تكون ممتهنة من كثرة الاستعمال وهذا ما قصد إليه ابن الأثير بقوله: "من أوصاف الكلمة أن لا تكون مبتذلة بين العامة، وغير مخلولقة بكثرة الاستعمال"[3].

---

[1]) جوهر الكنز، ص٣٥.

[2]) الصناعتين، ص٦٨-٦٩.

[3]) المثل السائر، ١/٩٦-٩٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد سار ابن خلدون على رأي ابن الأثير من حيث ابتذال اللفظة وسوقيتها ووحشتها، ويوصي بمجانبة اللفظة الوحشية والسوقية ويخلص إلى تعليل الضعف في بعض موضوعات الأدب، وذلك راجع إلى "أن معاني الألفاظ متداولة بين الجمهور فتصير بذلك مبتذلة"[1].

وحديث ابن الأثير لا يعني أنه يستحب الألفاظ التي يكثر استعمالها بل يريد أن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلولقة بكثرة الاستعمال حتى لا تفقد جمالها وحسنها وأهميتها.

ومن صفات اللفظة المختارة أيضا أن تكون دقيقة المعنى ومعبرة عما يجول في خاطر الكاتب وفكره من حيث موضعها "ومعناها أن يختار من الكلمات أدقها في أداء المعنى الذي يجول في نفسه، فقد تتقارب الكلمات من حيث المعنى، ولكن بعضها أدل على إحساس الكاتب من بعض، والكاتب الموفق هو الذي يهتدي إلى الكلمة التي تكون شديدة الإبانة عما يريد، لان التمييز بين الألفاظ شديد فالدقة في اختيار الألفاظ تجعل العمل الأدبي فنا بديعا، وتبعث فيه الحركة والحيوية[2].

ومن شروط اللفظة كذلك أن تكون ملائمة للموضوع الذي تقع فيه، وقد بين ابن أبي الأصبع بقوله تحت باب ائتلاف اللفظ مع المعنى "أن تكون ألفاظ المعنى المطلوب ليس فيها لفظة غير لائقة بذلك المعنى"[3].

---

[1]) الإمام عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تح/ درويش الجويدي، المكتبة العصرية، ط1، صيدا، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ص٥٧٤.

[2]) د. أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٤٥٢.

[3]) تحرير التحبير، ص١٩٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد أشار القاضي الجرجاني إلى أن تقسيم الألفاظ يكون على تقسيم المعاني، قائلا "أرى أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحك كوعيدك.. بل ترتب كلا مرتبته، وتوفيه حقه، فتلطف إذا تغزلت وتفخم إذا افتخرت.. فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه، وليس ما رسمته لك في هذا الباب بمقصور على الشعر دون الكتابة، ولا بمختص بالنظم دون النثر، بل يجب أن يكون كتابك في الفتح أو الوعيد خلاف كتابك في التشوق والتهنئة، واقتضاء المواصلة، وخطابك إذا حذرت وزجرت أفخم منه إذا وعدت ومنيت[1]. وقد امتازت ألفاظ المكاتبات في العصر الأيوبي ببعض المميزات التي سأتحدث عنها تاليا.

الجزالة: لقد تحدث ابن الأثير عن الجزالة بقوله "ولست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيا متوعرا، عليه عنجهية البداوة، بل أعني بالجزل أن يكون متينا على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع، فالألفاظ تنقسم إلى جزلة ورقيقه في الاستعمال"[2].

فالجزل منها يستعمل في مواقف الحروب لقوتها وفخامتها.

وقد أكد على هذا المعنى ابن أبي الإصبع بقوله :"أن يكون اللفظ جزلا إذا كان المعنى فخما ورقيقا إذا كان المعنى رشيقا، وغريبا إذا كان المعنى غريبا بحتا"[3].

من خلال هذا، نرى الرسائل الحربية قد امتازت بهذه الميزة، وكذلك في رسائل التهديد والوعيد فقد كتب ابن الأثير كتابا في وصف فتح بيت المقدس حيث صور المسلمين وقدومهم إلى القدس **"ولما وقع الزحف صورع البلد صراعا، بعد أن قورع قراعا، ثم هز**

---

[1]) القاضي علي عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم ورفيقه، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ١٩٦٦م، ص٢٤.

[2])المثل السائر، ١/١٨٥-١٨٦.

[3])تحرير التحبير، ص١٩٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هزة طوته بيمينها ونشرته بشمالها، وأذاقته من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من نكالها، وبدون ذلك يكون عرك أديمه وعطف شكيمه"[1].

فابن الأثير يصور الحالة الحربية التي جرت بين المسلمين وبين الفرنج تصويرا رائعا وذلك باستخدام الألفاظ الجزلة القوية، والتي لها وقع وأثر في نفس السامع، أمثال: "**قورع، قراعا، صورع، صراعا، هز، هزة، أذاقته، نكالها، عرك، شكيمه**" هذه الألفاظ وغيرها التي جاءت في الكتاب، لتعبر عن قوة المسلمين وقتالهم الشديد، وملائمتها كذلك للغرض الذي أرسل من أجله الكتاب.

وفي كتاب آخر للقاضي الفاضل، يتبين من خلاله ملاءمة الألفاظ للأغراض التي ترسل من أجلها حيث جاءت قوية ورصينة ومتماسكة، مما يجعل وجودها داخل النص ذات حركة وحيوية، يقول: "**وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى، فأمده الله بمداركته، وأنجده بملائكته، فكسرهم كسرة ما بعدها جبر، وصرعهم صرعة لا يعيش معها بمشيئة الله كفر، وأسر عليهم من أسرت به السلاسل، وقتل منهم من فتكت به المناصل، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار، ... فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين**"[2].

فالنص يصور حالة الصليبيين وهم يلاقون جنود المسلمين بقوتهم وشجاعتهم وما جلبته عليهم من ويلات ومن طعن وضرب، وهذا النوع من الرسائل التي تتحدث عن الصراع، والتي يكثر فيها التصوير والمشاهد الحية ذو الصبغة الحركية، نجدها "تخاطب

---

[1])المثل السائر، ٢/٢٩٥.

[2])الدر النظيم، ص٢٢-٢٣، صبح الأعشى. ٦/٤٩٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

العقل وهي غالبا ما تكون لفئة راقية من المجتمع، وعلى درجة رفيعة من الثقافة[1] لذا نراها ذات ألفاظ قوية، ومعاني غزيرة.

الرقة: متلما امتازت الألفاظ في الرسائل الديوانية بالجزالة، لما تفرضه عليها ملاءمة الموضوع، تفرض الألفاظ الرقيقة نفسها على الرسائل الإخوانية، إذ يقصد باللفظ الرقيق تبعا لرأي ابن الأثير "لست أعني بالرقيق أن يكون رقيقا سفسفا، وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية، الناعم الملمس"[2].

وقد انتشرت اللفظة الرقيقة في الرسائل الإخوانية بأنواعها "وأما الرقيق فإنه يستعمل في وصف الأشواق، وذكر أيام البعاد، وفي استجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك"[3] ويمكن إرجاع السبب في انتشارها إلى أن الإخوانيات هي المكان المناسب للتعبير عن المشاعر والأحاسيس والانفعالات وهذا يستوجب ألفاظا رقيقة لا جزلة[4].

ومن تلك الرسائل التي تميزت بالألفاظ الرقيقة، ما كتبه القاضي الفاضل في كتاب تشوق يقول فيه: "**أسعد الله بدوام المجلس وأعلى شأنه، وأسعده وأسعد زمانه، وقد أولاه من الامتنان ما شرح الصدور وتوج المفارق، واستصحب نيرانا من الأشواق متأججة ولواعج من الوجد مزعجة .. وحمد الله على ما أوضحه من دوام سلامته وشمول صحته واستقامة الأمور بساحته، وما أولاه بالجري على عادة إحسانه، وسلوك سنة امتنانه**"[5].

---

[1]) عبد الله السالم، النثر الفني في مصر وبلاد الشام في القرن السادس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٣م، ص١٨٤.

[2]) المثل السائر، ١/١٨٥—١٨٦.

[3])المصدر نفسه، ١/١٨٥.

[4])راجع الدر النظيم. ص٨١-١٥، ٥٢، ٥٨-٦١، ٦٤-٦٥. ديوان رسائل ابن الأثير، ص٧٥-٧٩، (تحقيق نوري القيسي).

[5])الدر النظيم، ص٥٨-٥٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فالقاضي الفاضل يعبر عن اشتياقه ولوعته بألفاظ عذبة ورقيقة ومحببة إلى النفس أمثال "أسعد، وأسعده، والإمتنان، وشرح الصدور، واستصحب، والأشواق والوجد واللوعة، والسلامة، وصحته، واستقامه، والإحسان، والامتنان.

هذه الألفاظ صورت ما يختلج من مشاعر وأحاسيس عند القاضي الفاضل تجاه صديقه، وما يعانيه من شوق وحنين إلى الأصدقاء ومن تلك الرسائل أيضا كتابا كتبه ابن الأثير عن نفسه إلى شخص بدمشق يعزيه بوفاة أبيه قائلا:

فلو أخبرت كتب التعازي عن حال مصدرها، وأعربت منظره بمنظرها، لجاء هذا الكتاب وقد شق قرطاسه، كما يشق من الثاكل جيب لباسه، وأبدت الكآبة على وجه، وتكاثرت العثرات في خطى أقلامه، ويقل ذلك لوفاة السيد الأجل فلان أرضاه بالعيشة الراضية، وحباه بما يصغر عندها أمر دنياه الماضية، فأي قلب عليه لم ينصدع، وأي صبر لم يمتنع، وأي دمع لم ينسجم، وأي عيش لم ينصرم، ولقد بكاه البعيد بكاء القريب، حتى كأنه للناس صديق أو نسيب، فالأيام بعده ليال، والهموم ملء والآمال خوال، ولا يعرف فقد النهار الا بعد الإظلام، ولا قدر اليسر إلا بعد الإعدام، وريب الدهر له تطلع إلى رؤوس الذرى من عين الورى ولذلك يجف زهر الربى قبل الوهاد، ولا تختلف من النجوم غير الأفراد"[1]

فالكاتب يصور حالته بفقدان والد صديقه، وما اعتراه من حزن وأسى شديدين، وقد عبر عنهما بألفاظ رقيقة وحزينة وذلك للتعبير عن هذه المشاعر والانفعالات، وتأثيراتها في النفس، لذلك نراه استخدم الألفاظ الدالة على الحزن والأسى ليبين للسامع والقارئ ما

[1]) ديوان رسائل ابن الاثير، ص٨٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يعتريه من الألم واللوعة بفقد والد صديقه، أمثال "**شق قرطاسه، الثاكل، الكآبه. العشرات، أرضاه، ينصدع، ينصرم، بكاء، ليال، الإظلام، .. الخ**".

الايحاء: فالإيحاء هو الإبانة عما في النفس بغير المشافهة على أي معنى وقعت: من إيماء، ورسالة، وإشارة، ومكاتبة"[1].

فالكلمة الموحية هي التي تثير في النفس معاني كثيرة" ويذكر أحمد بدوي أن هذا التعبير لم يعرفه نقاد العرب القدماء، ولكنهم أدركوا حقيقته"[2].

هذه الصفة للألفاظ تكون بخلاف الألفاظ المباشرة ذات الدلالة الواحدة، والتي لا تحمل إلا معنى واحدا ومحدودا.

وقد حرص كتاب العصر الأيوبي على اختيار الألفاظ الموحية، والألفاظ المعبرة عن أفكارهم، وقد ساعد ذلك على جعل ألفاظ الرسائل بنوعيها مألوفة مأنوسة، تقترب من الكلام العادي من غير امتهان، وتتسم بالسهولة والفصاحة، ولكن حين نقرأها في عصرنا الحاضر قد نراها صعبة على إفهام عقولنا، وفي اعتقادي أن هذا راجع إلى أنها كانت في عصرها مألوفة فاختلفت أذواق بعض الناس بالنسبة للغة ومفهومها.

ففي رسالة كتبها القاضي الفاضل بمناسبة فتح بيت المقدس، يصف الآثار المترتبة على هذا الفتح، فيقول "**قد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصائرها، واستتبت عقائد أهله على أبين بصائرها، وتقلص ظل رجاء الكفر المبسوط، وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط حصل المشروط، وكان الدين غريبا فهو الآن في وطنه، والفوز مفروضا فقد بذلت**

---

[1]) أبي الفرج قدامة بن جعفر، كتاب نقد النثر، المكتبة العلمية، بيروت – لبنان ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م، ص٦٣.

[2]) أسس النقد الأدبي عند العرب، ص٤٥٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

في ثمنه واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا، وظفروا يقظة لم يصدقوا أنهم يظفـــرون به طيفا على النأي طارقا"[1].

فالنص يصور آثار الفتح الإسلامي الجليل من طرد الكفر، وإقامة أحكـــام الشـــريعة الإسلامية في بيت المقدس، وذلك من خلال ألفاظ موحية ذات دلالات كثيرة على المســـلمين الذين استردوا بيت المقدس وابتهاجهم بهذا الفتح العظيم.

فكلمة "رجاء" ذات دلالة وإيحاء على مقاومة الفرنج الشديدة للمسلمين فـــي محاولـــة منهم للاحتفاظ ببيت المقدس أكبر فترة زمنية يستطيعون المكوث فيه.

وكذلك لفظة "آبقا" فدلالتها وإيحاؤها على أن المقدسات الإســـــلامية كـــانت بـــأيدي المسلمين ثم فقدت بشكل مفاجئ ولفترة محدودة من الزمن، ولذلك استعمل كلمة آبقا التـــــي توحي في معناها أنها عائدة إلى ما كانت عليه الأمور، وهذا مـــا حصـــل عنـــد اســـتعادة المسلمين لبيت المقدس مرة أخرى على يد القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي - أعـــــاده الله إلينا إلى الأبد.

وكتب كذلك ابن الأثير رسالة في وقعة حطين لما هزم الفرنج خذلهم الله، قـــائلا: "..

ولقد كره فريق من المؤمنين في هذا المقام ما كرهه الفريق البـــدري فـــي أول الإســـلام وأشير على الخادم بقبول تؤخذ، وأسارى عن أيدي الكفار تنفـــذ، فـــأبى الله إلا أن يحـــق الحق .. وفي يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر نهضت الجيوش الإسلامية مجـــدة فـــي

---

[1])الدر النظيم، ص١٧-١٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تشمير ذيلها، معدة ما استطاعت من قوتها ومن رباط خيلها، تحمل الأعمار القصار تحت الأرماح الطوال، وترغب في اشتراء الجنة بالأنفس والأموال .." [1].

ففي هذا النص نرى ابن الأثير قد استخدم ألفاظا ذات دلالات موحية فكلمة "البدري" مثلا توحي بما لقيه المسلمون في بدر من هجوم عدواني من قريش ونصرهم الله فيها وهم قلة يومئذ، وما لهم من الأجر والثواب في هذه الغزوة. وهذا الحال يسري على هزيمة أهل الكفر في حطين وكلمة (**نهضت**) توحي بأن المسلمين كانوا متقاعسين لضعفهم أو لأسباب أخرى عن تحرير الأرض بما فيها المقدسات الإسلامية وبمجيء القائد صلاح الدين دب الشعور فيهم بالمسؤولية تجاه أرضهم ولبوا نداء الجهاد في سبيل الله لما له من أجر وثواب أيضا، واستعمل كذلك كلمة (**اشتراء**) لما لها من دلالة موحية بلباس الأجر والثواب، لأن العبد يشتري نفسه بالجنة يوم القيامة وقد نزلت هذه الكلمة في مواضع عدة من القرآن الكريم، والذي يسعى كل إنسان مسلم على الأرض أن يدخر لنفسه مكاسب الأجر والثواب عند الله ليوم القيامة.

الألفاظ الدينية: لقد شاعت في رسائل العصر الأيوبي ألفاظا دينية، وأود أن أوضح ما قصدته بالألفاظ الدينية هي الألفاظ الإسلامية والألفاظ النصرانية، وذلك بسبب أن تلك الفترة كانت تعتريها قوتان: الإسلامية من جهة والنصرانية -الصليبية- من جهة أخرى. وكانت الرسائل تدور حول هاتين القوتين، وبالتالي فإن التمثل بالألفاظ الدينية كانت تصور قوة وابتهاج المسلمين ورفع راية الجهاد وبالمقابل تمثل انكسار القوة المعادية وتحطمها رغم جبروتها وشراستها.

---

[1])رسائل ابن الأثير، ص٦٧ (تحقيق نوري القيسي).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن تلك الرسائل كتب العماد الأصبهاني تهنئة بفتح بيت المقدس، قائلا: "**وعاد الإسلام بإسلام بيت المقدس إلى تقديسه، رجع بنائه من التقوى إلى تأسيسه .. وفتح باب الرحمة لأهلها، ودخلت لقبة الصخرة لفضلها، وباشرت الجباه بها مواضع سجودها .. ودنا المسجد الأقصى للراكع والساجد .. وزارها شهر رمضان مضيفا لها نهار صومها بالتسبيح**"[1].

فالكتاب يبين الآثار الناجمة عن فتح بيت المقدس على المسلمين من تدارس فيه، وقراءة القرآن، ورواية الحديث، وقد عبر عنها بألفاظ إسلامية بحته ومستمدة من الشريعة الإسلامية أمثال "**الإسلام، والمقدس، والتقوى، والرحمة، وقبة، وسجودها والراكع، والساجد، والمسجد الأقصى، وشهر رمضان، والصوم، والتسبيح.**

هذه الألفاظ قد ساعدت الكاتب في رسم لوحة جميلة براقة وضاءة تبين الآثار الجليلة لآثار هذا الفتح على المسلمين، فجاءت الألفاظ متناسقة من خلال تآلفها وجزلها ورونقها بشكل جميل وبديع.

أما إذا ما انتقلنا الى الألفاظ المسيحية -النصرانية- فنجدها منتشرة في الرسائل الحربية والتي تصور حال المسلمين من جهة وبمقابلتهم وحال الصليبين من جهة أخرى من المعارك والحروب في كسر وقتل وتشريد وأسر .. الخ. هذا الحال يجعل الكاتب يختار ألفاظا ذات دلالة على رموزهم، فالصليب هو رمز النصرانية، وكسره يعني انكسار النصرانية و إلحاق الهزيمة بهم.

ومن ذلك ما كتبه العماد الأصبهاني بمناسبة فتح بيت المقدس، قائلا:

---

[1])انظر: الكتاب في الفتح القسي، ص١٩٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

"**وقد بدل الكفر بالإيمان، والناقوس بالآذان، وجلس العلماء والفقهاء في مجـــالس الرهبان، وتزاحم الخارجون من البلد من الفرنج والنصارى في دخول أبواب النيران**"[١].

عقد الأصبهاني مقارنة بين حال المسلمين وبين النصارى من خلال هـــذه الألفـــاظ الدينية ليبين الانتقال العظيم الذي تحقق بعودة بيت المقدس إلى رحاب الدولة الإسلامية.

وقد تنوعت الألفاظ النصرانية ودلالتها في الرسائل الأيوبية، منها ما دل على أمـــلكن العبادة "**الدير**"[٢] و"**الكنائس**" [٣] أو شعارهم "**الصليـــب**"[٤] أو أســـماء ملوكـــهم "**القومـــص والبرنس**"[٥] أو رجال دينهم "**البطرك والقس**"[٦] أو فرسانهم "**الـــداوي والاســـبتاري**"[٧] أو الرموز الدينية "**التثليث**"[٨]

فاختيار الألفاظ يتم حسب الموضوعات فهي التي تملي على الكـــاتب بـــأن يختـــار اللفظة المناسبة.

المصطلحات: ومن خلال تجوالنا في رسائل العصر الأيوبي، نرى أن الكتـــاب قـــد استخدموا مصطلحات مختلفة منها اللغوية، والكلامية، والفلكية والهندسية، فالقاضي الفاضل استخدم بعض المصطلحات النحوية كالجار والمجرور لما لها من دلالة على قائد المســـلمين وجيوش الفرنج، وقد نتج عنه تعلق النصر بهذا القائد المسلم "... **ويقر عينه وعيـــون أهـــل الإسلام أن تعلق النصر منه ومن عسكره بجار ومجرور**"[٩] وهنا يربط القاضي الفـــاضل

---

[١]) الروضتين، ٩٩/٢.

[٢]) مفرج الكروب ٢٠٤/٢.

[٣])الدر النظيم، ص٢٥.

[٤])المصدر نفسه، ص٢٤- ٢٥.

[٥])المصدر نفسه، ص٢٤.

[٦]) الروضتين، ٩٧/٢.

[٧])الدر النظيم: ص٢٧، ص٣١. مفرج الكروب، ٢٠٤/٢.

[٨])الدر النظيم، ص٣٢.

[٩])المصدر نفسه، ص٢٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

القواعد النحوية بالمعارك الحربية، حيث أن الجار والمجرور لا بد لهما من متعلق، فكذلك النصر لا بد له من متعلق ألا وهو القائد.

وابن الأثير نراه قد أدخل في رسائله بعض تعريفاته لنواحي الأسلوب، فقد قال في رسالة إلى أحد الأصدقاء بالموصل جوابا على كتابه مع تكليفه بالإنابة عنه في التعزية: "**فإن دمعي غاض فظهرت على اللسان منابعه، ولذلك رقت حواشي لفظه حين استجابها قائله وسامعه، ومن علامة المفجوع أن يجري لفظه في الرقة مجرى الدموع**"[1] هذا توكيد من ابن الأثير على تعريفه الذي ذكرته عند دراسة الرقة في الألفاظ.

وفي مكان آخر يذكر مصطلحات أسلوبيه كالإيجاز والإطناب والإفصاح قائلا: "**وما يدري البيان ما يقول في هذه النعمة وعمومها، والإفاظة في وصفها بمنثور الألفاظ ومنظومها، فإن الإطناب فيها إيجاز، والتحدي بالإفصاح عنها إعجاز**"[2]. وهذا يعني أن ثقافة ابن الأثير اللغوية كانت تطغى في بعض الأحيان على لغة رسائله، مما يدل على دقة اختيار الألفاظ عند ابن الأثير المناسبة للموضوع من أجله كان الكتاب.

وفي كتاب آخر لابن الأثير بمناسبة فتح بيت المقدس، استخدم فيه مصطلحا نحويا "**ولم يستشهد منهم إلا عدد يسير لا تدخله لام التعريف**"[3] يبين ابن الاثير عمن استشهد من المسلمين في المعركة مدللا بذلك على أنهم قلة إذا ما قورنوا بالنسبة لأعداد القتلى من الصليبين، لأن لام التعريف تدل على الكثرة والأهمية فأخذ هذا المعنى واستخدمه للشهداء من المسلمين.

---

[1])رسائل ابن الأثير، ص٨٥ (تحقيق نوري القيسي).

[2])المصدر نفسه، ص٩١.

[3]) المثل السائر، ٢/٢٩٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وكتب القاضي الفاضل كتابا بمناسبة فتح بيت المقدس مستخدما المصطلحات الكلامية "**بالإضافة إلى نعمة الفتح محتملة، وأطماع الفرنج فيما بعد ذلك مذاهبها غير مرجئة ولا معتزلة**"[1] فاستخدم لفظي "مرجئة ومعتزلة" معبرا عن أطماع الصليبيين المستمرة غير مكترثين بهزائمهم وما حل بهم من نكبات وتشريد وتقتيل.

أما المصطلحات الفلكية فلها أيضا نصيب في هذه الرسائل، فهذا ابن الاثير في رسالته بمناسبة فتح بيت المقدس، يشير إلى بعض المصطلحات، يقول "**ولم يكن لأهل النجامة فيه قول يرد كذابه، ولا يقبل صوابه، والشهب الطالعة على ذوات السروج أصدق نبأ من الشهب الطالعة من ذوات البروج، علما أنهما وإن اتفقتا رجما، فإنهما تختلفان علما ولم يجزه الخادم حتى طوى ما حوله من البلاد المنجدة والغائرة، وكان مركزا لدائراتها، وهو طرف من أطراف الدائرة**" وهو في هذا يستذكر وقعة عمورية وما دار فيها من أقوال المنجمين، حيث أنهم أبدوا النصيحة للمعتصم بعدم التوجه إلى عمورية بسبب مواقع بعض النجوم التي لا يمكن معها أن يكتب النصر لهم، فاستخدم الكاتب لهذا الغرض ألفاظا تدل على هذا المفهوم "**الشهب، والبروج، رجما**" وهذه الألفاظ غالبا ما يستخدمها المنجمون، أما الألفاظ الهندسية التي نراها في النص السابق، فنراه قد استخدم ألفاظا ذات مدلول رياضي وهندسي أمثال "**مركز الدائرة، أطراف الدائرة، الدائرة**" مما يدل على سعة الثقافة عند كتاب العصر الأيوبي.

وفي نهاية الحديث عن الألفاظ، أود أن أشير أن بعض مؤلفات هذا العصر النثرية قد استخدمت بعض الألفاظ الأعجمية، فقد استخدم العماد الأصبهاني ألفاظا أمثال "البيكار"

---

[1])الدر النظيم، ص٣٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والتي تدل على معنى الحرب، وكذلك "**الخركاة، قنطارية، الجاليشية**" وهنا يمكن التوجه بالسؤال الآتي: أليس بإمكان العماد الأصبهاني أن يستعيض عن هذه الألفاظ بألفاظ عربية من عصره؟ نعم، كان بإمكانه استعمال الألفاظ العربية، ولكني اعتقد أن الأصبهاني استخدم هذه الألفاظ في بعض الأماكن للتكلف ولملاحقة التقفية في الرسالة.

التراكيب: لاحظنا مما سبق أن اللفظة المفردة لها أهمية خاصة في بناء التراكيب وترابطها، فهي الأساس الذي تتشكل منه التراكيب والصور الأدبية ويتحقق من خلالها الأسلوب لأي أديب وبهذا تكون اللفظة بانظمامها إلى أختها متجانسة تجانسا تاما. ولا يجوز الحكم على جيد الكلام ورديئه، إلا بعد النظر إلى اللفظة المفردة من جميع جوانبها من حيث انسجامها وتآلفها ورونقها وجودتها وتلاؤمها مع جاراتها.

وقد ضرب ابن الأثير مثالا ليوضح ذلك، قائلا: "ومثال ذلك كمن أخذ لآلئ ليست من ذوات القيم الغالية فألفها، وأحسن الوضع في تأليفها، فخيل للناظر بحسن تأليفه، وإتقان صنعته، أنها ليس تلك التي كانت منشورة مبددة، وفي عكس ذلك من يأخذ لآلئ من ذوات القيم الغالية، فيفسد تأليفها فإنه يضع من حسنها، وكذلك يجري حكم الألفاظ العالية مع فساد التأليف. وهذا موضع شريف ينبغي الإلتفات إليه، والعناية به"[1]. لذلك نبه النقاد على حسن التأليف، وإتقان الصياغة وعلى هذا أكد الجرجاني في نظرية النظم على إعلاء شأن تأليف الكلام، وتلاؤم الألفاظ قائلا:"إعلم ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم

---

[1]) المثل السائر، ٢٠٩/١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها"[1].

فتآلف الكلمات وعدم تنافرها وتقاربها في المخارج وتجاورها، كل ذلك يجعل التركيب متآلفا ومتجانسا وفصيحا، وهذا ما أكد عليه نجم الدين ابن الأثير في جواهر الكنز حيث عد الفصاحة هي تباعد مخارج الحروف"[2]

وذكر ضياء الدين ابن الأثير من شروط تآلف التراكيب أن تكون مترابطة آخذه بعضها ببعض وعدم خروج الكاتب من معنى إلى معنى إلا برابطة"[3].

لذلك أشار أحمد الشايب بأن قوة التركيب تأتي من خلال عدة وسائل أهمها:

تقديم الكلمة أو تأخيرها بالنسبة إلى موضعها الطبيعي دلالة على القصر أو التفخيم أو حسن الذوق واللياقة والأهمية مطلقا، وكذلك استخدام الطباق البديعي، لأن المقابلة نوع من التحدي بين المعاني والمنافسة في الظهور وهذه قوة للمعاني"[4].

أما استخدام الكاتب الأساليب الإنشائية والخبرية فإنه يضفي الجمال على العمل الأدبي بهذا الانتقال.

ومن تلك الرسائل التي تتسم بجودة السبك، ووضوح العبارة، وحسن التأليف، ما كتبه القاضي الفاضل إلى صلاح الدين أثناء حصار الصليبيين، قائلا: "**فهذه الأمور وإن كانت شدائد، وزائدات على العوائد، فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر، وحسن الصبر،**

---

[1]) الإمام عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، صححه وعلق على حواشيه/ السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م. ص٦٤.

[2]) جوهر الكنز، ص٣٥.

[3]) المثل السائر، ص١/٩٧.

[4]) أحمد الشايب، الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، ط٩، القاهرة، ١٩٩٥، ص١٩٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ليشعره أن صبره يعقبه النصر، وحسبته يعقبها الأجر، ولو لم ير الله تعالى أن قوة مولانا أكمل القوى، وغروة عزمه أوثق العرى، ... فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره، وتملأ صدره، (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم" [1].

فالقاضي يحث صلاح الدين على الصبر بألفاظ سهلة واضحة ومتآلفة تآلفا حسنا بدون أية تعقيدات، وملائمة للمعنى الذي قيلت فيه الرسالة.

ومن الرسائل أيضا ما كتبه ابن الأثير في جواب كتاب يتضمن إياق غلام، قائلا: **"وأما الإشارة الكريمة في أمر الغلام الآبق عن الخدمة فقد يفر المهر من عليقه، ويطير الفراش إلى حريقه، وغير بعيد أن ينبو به مضجعه، أو يكبوبه مطمعه، فيرجع وقد حمد من رجوعه ما ذمه من ذهابه، وعلم أن الغنيمة كل الغنيمة في إيابه، فما كل شجرة تحلو لذائقها، ولا كل دار ترحب بطارقها، ومن أبق عن مولاه مغاضبا، وجانب محل إحسانه الذي لم يكن له مجانبا، فإنه من مفارقة الإحسان ما يجده من مفارقة معاهد الأوطان**[1]...

فالكاتب في هذه الرسالة يبين أن هذا الآبق الذي كان تاركا لبلده وأهله، وبعودته قد عرف أن الغنيمة برجوعه، وواصفا كذلك هذا الغلام بأنه ترك مولاه وذهب إلى بلاد أخرى، ولكنه عاد إليها لمعرفته بفضل بيته وأهله، وقد عبر ابن الأثير عن تلك المعاني بألفاظ سهلة، متناسبة مع المعنى وطبيعة الموضوع، مصوغة بأسلوب يتسم بالسهولة ولا تنافر بين بعضها بعضا.

أما أسلوب الخبر والإنشاء فكان واضحا في كتاب العماد الأصبهاني الذي كتبه في حث الناس على النهوض للجهاد في سبيل الله، قائلا **"وهذا أوان تحرك ذوي الحمية،**

---

[1]). الروضتين، ١٦٧/٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ونهوض أهل الهمم الأبية العلية، فإن القوم في كثرة، وهم مغترون بعلوهم، معتزون بعتوهم، مستنون في طريق العثرة، والسيل إذا وصل الجبل الراسي وقف، والليل إذا بلغ الصبح المسفر انكشف .. فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين؟ وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين؟ وأين المسلمون؟ وحاشا أن يكون للإسلام مسلمون! وأين المقدمون في الدين .." [٢]، فأوضح العماد الأصبهاني موضوعه بعبارات متآلفة غير متنافرة، مع استخدامه الأسلوبين الخبري والإنشائي، فالأسلوب الخبري ليخبر عن الوضع وترسيخه في الأذهان، ثم الانتقال إلى الأسلوب الإنشائي مستخدما أسلوب الاستفهام ليخاطب القلوب الإسلامية وإثارة الحماس والتوقد فيها، للحفاظ على الإسلام المتمثل بدين الله، والتضحية بالأموال والأنفس، وهناك مواضع كثيرة استخدم فيها العماد الأساليب الإنشائية والخبرية في كتابه "الفتح القسي".

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

[١]) المثل السائر، ٢١٧/١.

[٢]) الفتح القسي، ص٤٠١.

المبحث الثالث: الصور البيانية

لقد مثلت الصور البيانية في النثر الأيوبي دورا مهما لما لها من تعبيرات فنية معبرة عن المعاني والتي ترتاح لها الأسماع، وهناك أهمية لتأثير هذه الصور البيانية في النفوس والتأثر بها من خلال التفاعل معها. كما تساءل الجرجاني عن العلة والسبب في هذا التأثير من قبل التمثيل.

ففي هذا المجال قال الجرجاني: "إن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ..وتقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يعلم بالفكر، إلى ما يعلم بالإضطرار والطبع؛ لأن العلم المستفاد من طريق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع، وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام كما قالوا "ليس الخبر كالمعاينة، ولا الظن كاليقين"[1].

وقد اهتم النقاد بالصور البيانية وتأثيراتها الجمالية في النصوص، فقال الجرجاني في خصائص الاستعارة المفيدة وهي عنوان مناقبها "أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر... فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا، والأعجم فصيحا، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية، بادية جلية"[2].

---

[1]) أسرار البلاغة، ص٩٢.

[2])المصدر نفسه. ص٣٦-٣٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وذكر محمد غنيمي هلال في التفريق بين أثر الصورة التعبيرية والصورة المباشرة وتأثيرها على النفس" الصورة التعبيرية الإيحائية أقوى فنيا من الصورة الوصفية المباشرة، إذ أن للإيحاء فضلا لا ينكر على التصريح"[1].

فاستعمال المجاز للكلمات أو وصفها بنعوت غريبة تؤدي معنى المبالغة المقبولة والإيجاز الطريف، وتفتح للقارئ مجال التفكير والتخييل"[2].

وينبغي كي يتحقق التأثير في النفس أن تكون الصور البيانية معبرة عن حقائق الوجدان وانفعالاته بعيدة عن دائرة الأوهام والمستحيلات التي تحيل العمل الأدبي إلى طلاسم، وصور مبهمة يصعب استنطاقها أو تلمس أبعادها"[3].

فقد اعتنى الكتاب في العصر الأيوبي بالصور البيانية في نثرهم فنجد أن الصور البيانية كثيرا ما كانت في الرسائل الحربية، وذلك لطبيعة موضوعها المتعلق بالحروب وتصويرها، وتصور أحداثها، وبخلاف ذلك في الرسائل السياسية والتي تتعلق بالجوانب الإدارية غالبا ما تخلو هذه الرسائل من الصور البيانية لاستخدام الكاتب الأسلوب المباشر. ومن ذلك ما كتبه الفاضل إلى الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين، يحثه على جمع كلمة المسلمين، يقول "**فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي فتبلغ الأعداء مرادها، وتقدم الآراء رشادها، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلى أن أعطت قيادها، فكونوا يدا واحدة،**

---

[1]) د. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٤٢٦.

[2]) الأسلوب، ص١٩٦.

[3])انظر: د. شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف، ط٣، القاهرة، ١٩٦٢م، ص١٧٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأعضادا متساعدة، وقلوبا يجمعها ود، وسيوفا يضمها غمد، ولا تختلفوا فتنكلوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا بأطراف الأنمل"[1].

فالقاضي الفاضل يطرح موضوع الوحدة وعدم التفرق وتضافر الجهود من أجل ردع الأعداء ومنعهم من تحقيق أغراضهم ومآربهم.

وقد لجأ إلى ذلك من خلال نشر الصور البيانية في الكتاب لزرع المفهوم وتعميقه في نفوس المسلمين، فقوله "**تنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها**" فهذه النعم والذي يقصد فيها هذه الدولة الفتية التي استطاع المسلمون بناءها بالرغم من العناء والجهد والتضحيات التي بذلت في سبيل ذلك، فقد اقتضت زمنا طويلا، وهو ما عبر عنه بكلمة "الأيام"

فالصورة التشبيهيه تعمق معنى الوحدة بين المسلمين وقد جاءت (فكونوا يدا واحدة وأعضاء متساعدة) لتبين أن اتحادهم سيمكن استرجاع الأراضي المغتصبة من أيدي الصليبين وهذا تأكيد على المعنى المقصود.

إلى ذلك أشار أبو هلال العسكري فقال: "والتشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تاكيدا"[2] وقد عمل من خلال رسالته على الإيجاز والذي يعتبر من محاسن التشبيه، فقد أوجز عوامل الوحدة الإسلامية لمناجزة الأعداء في جمل بسيطة لتعبر عن صور ومعان كثيرة بشيء من البراعة، وحسن الإخراج ويومئ إلى أبعاد في أعماقه، وبعد التشبيه عظيم المدى في الاستدلال والإقناع والبيان وإثارة المشاعر والعواطف.

وانظر إلى استخدام الكناية التي رسمها بقوله "**وقلوبا يجمعها ود، وسيوفا يضمها غمد**"، هنا يعمد القاضي الفاضل إلى أن يطلب منهم الاتحاد والتكاتف والتعاضد بصورة

---

[1])الروضتين، ١/٢٣٠، (طبعة دار الجيل).

[2]) الصناعتين، ص٢٦٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

متماسكة قوية كتلك الصورة التي أتى بها للأيدي، والأعضاد، والقلوب، والسيوف، وهنا جاء لتعميق المعنى في النفس، وإبرازه بوضوح.

وفي كتاب آخر قال الفاضل "فلذلك نفذنا لسانا شارحا"[1]. إن الكاتب أراد أن يتستر على المعنى الحقيقي، وهو أن يكون "لسانا فصيحا متكلما" من وراء ألفاظ شفافة تجعل المتلقي متحفزا ومتشوقا لمعرفة ما يرمي إليه الكاتب، فتجعله ذا ميل إلى اكتشاف المعنى الحقيقي بنفسه والمختفي والمتواري خلف هذه الألفاظ".

يتمثل دور الكناية في قدرة المتكلم على إثبات معنى من المعاني، فلا يريد أن يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يوحي إليه إيحاء، ولكنه يجيء إلى المعنى الذي هو تاليه وردفه في الوجود، لذا كانت الكناية ذات عنصرين أساسيين هما الإفادة والتأثير، وتقوم بتأدية وظيفة وضعت لها من تهذيب النفس والطبع وترقيق العاطفة وإرهاف الحس[2].

وإلى ذلك أشار يوسف أبو العدوس حول تأثير الكناية النفسي وأثرها في المتلقي أو السامع، حيث أنها تترك عنده ميلا إلى الاكتشاف والتتبع لما وراء المعنى المجازي، ويشعر الشخص بسعادة وسرور عند حصوله على الشيء بعد طول عناء، وبذلك لا يكون لدى السامع أو القارئ أو المتلقي أن يحصل على المعنى مباشرة بل إنه يفضل أن يقوم بالتفكير والتروي لاستكشاف المعنى الحقيقي من خلال المعنى المجازي[3].

---

[1])الدر النظيم، ص٣٤.

[2]) انظر: د. حفني محمد شرف، الصور البيانية بين النظرية والتطبيق، دار نهضة مصر، ط١، الفجالة، مصر، ١٩٦٥م، ص٤٢٧-٤٢٨. د. احمد علي دهمان، الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط١، دمشق، ١٩٨٦م، ج٢، ص٥٠٨،، دلائل الإعجاز، ص٥٢.

[3])انظر: د. يوسف أبو العدوس، المجاز المرسل والكناية الأبعاد المعرفية والجمالية، الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، عمان، الأردن، ١٩٩٨م، ص٢٠١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى ذلك حينما قال: وكما أن الصفة إذا لم تأتك مصرحا بذكرها، مكشوفا عن وجهها، ولكن مدلولا عليها بغيرها، كان ذلك أفخم لشأنها والطف لمكانها[1] لذلك انظر إلى قول الفاضل "قوموا على أمشاط الأرجل" تصور هذه الكناية نهوض المسلمين للقتال في حربهم ضد الصليبيين، ويدعوهم إلى عدم التقاعس وشحذ الهمم والعزائم وقيامهم سيكون على أمشاط الأرجل، والمقصود بها السرعة في تلبية النداء، لأن قيام الشخص ونهوضه يتم على الأمشاط إذا كان يريد السرعة في النهوض، وهي بهذا ستكون مشرئبة إلى لقاء الأعداء، ثم اتبع ذلك بجملة أخرى "ولا تأخذوا بأطراف الأنامل" وهذا النهي مستمد من الشريعة الإسلامية بأن لا يتقاعسوا عن الجهاد في سبيل الله ،وتأخذهم الدعة والنوم. ويدل هذا على نعومة العيش والميل إلى هذه الحياة الناعمة، وقد اختار القاضي معنى مجازيا ليخفي وراءه معنى حقيقيا (أطراف الأنامل) وهذا الذي كان يعاني منه الناس في هذا العصر وكذلك الحكام، فأراد أن يشحذ هممهم وعزيمتهم بذكر أطراف الأنامل، والمعنى الحقيقي هو الدلالة على النعومة ورغد العيش والنوم، لأن أطراف الأصابع غالبا ما تدل على معيشة صاحبها. من حيث الرفاهة والخشونة. ومن خلال النظر في هذه الألفاظ عقد القاضي الفاضل مقارنة بين نوعين من الحياة، حياة الرفاهية والنعومة، والأخرى حياة الخشونة والجد كما في الحروب.

ومن الرسائل الإخوانية ما كتبه الفاضل في كتاب تشوق قائلا "**ما شرح الصدور وتوج المفارق، واستصحب نيرانا من الأشواق متأججة، ولواعج من الوجد مزعجة**"[2]. يقرن الكاتب في النص تشوقه لصديقه بتصوير عميق لمشهد النار المتأججة، وقد أضفى صورة تشبيهية على هذا المشهد بقوله "**استصحب نيرانا متأججة**" وأضاف مشهدا آخر بأن خريق الوجد مزعج له.

---

[1])نقلا: عن المجاز المرسل والكناية، ص٢٠٢.

[2])الدر النظيم، ص٥٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وفي كتاب ابن الأثير إلى الأمير مجاهد الدين رحمه الله، يقول "**لو لم يلبس قلم الخادم ثواب الحداد لهجر مداده .. وحرم على نفسه أن يمتطي يداً، أو يجري إلى مدى لكنه أحدّ فندب**"[1]. هذه الصورة التعبيرية التي أراد بها ابن الأثير أن يصور حالته وحال قلمه حزناً على الأمير، وشبه القلم بالإنسان الذي يلبس ثوب الحداد على عزيز فقده. وقوله "**وحرّم على نفسه أن يمتطي يداً**" فكلمة يمتطي إنما أخذت من امتطاء الحصان إلى امتطاء اليد، فنقلت من معناها الأصلي إلى معناها المجازي على سبيل الاستعارة والمبالغة في التشبيه.

وكذلك نقل كلمة أحدّ، فالحداد لا يكون إلا للإنسان، فنقله للجماد إنما جاء على سبيل الاستعارة للمبالغة في قوة التأثير في المتلقي. وكذلك صفة الندب لا تكون إلا للإنسان فاستعارها لهذا القلم حتى يكون التأثير أقوى وأشمل.

فالتشبيه في الاصطلاح البياني هو عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر لوجود صفة مشتركة بينهما"[2] فقول ابن الأثير (لو لم يلبس قلم الخادم ثوب الحداد) ينبئ عن صفات مشتركة بين القلم والثوب، ومنها الحداد على المتوفى، والحزن عليه، والارتحال نتيجة الحزن، هذه العبارات تعمل على توسيع الطاقة الإيحائية وتجلية الغموض وبث الشعور والانفعالات والأحاسيس العاطفية من الكاتب إلى المتلقي ليبلغه عن حالة الحزن الشديد الذي أصابه وقلمه بفقد شخص عزيز عليه.

أما في الرسائل الحربية، وكما ذكرت آنفاً بأنها تختص بالمكاتبات الحربية، وبوصف المعارك، فنصيبها من الصور البيانية، ففيها الكثير من هذه الصور البيانية. ففي رسالة للقاضي بمناسبة فتح القدس، فقد وصف المسلمين وهم ينهضون لاسترجاع هذه

---

[1])رسائل ابن الاثير، ص٨٧ (تحقيق نوري القيسي).

[2]) د. أحمد أبو حاقة، البلاغة والتحليل الأدبي، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٨٨م، ص١٢٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المقدسات بقوله "**وجاء أمر الله وأنوف الشرك راغمة، فأدلجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين .. واسترد المسلمون تراثاً كان عنهم آبقاً. وظهروا بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النأي طارقاً، واستقرت على الأعلى أقدامهم، وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غللهم، ولما قدم عليها عرف منها سويداء قلبه، وهنا كفؤها الحجر الأسود ببتّ عصمتها من الكافر بحربه ..**" [1].

انظر إلى الصور الحركية التي رسمها القاضي الفاضل في هذا النص، وبصورة مترابطة حيث تبدأ من قوله "**وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة، فأدلجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين**" نلاحظ أن بداية الصورة الحركية والتي اتسمت بالحيوية كانت من أمر الله وتحقيقه للنصر على الاعداء، ثم نهضت الجيوش الإسلامية والسيوف بأيديهم مصقولة تحارب الأعداء، وتسفك دماءهم، وفوق ذلك كله أنها تسير إلى آجالهم "النائمة" فتوقظها ثم ترديها فيكون بذلك الإيقاظ الذي ما بعده إيقاظاً.

وهناك صورة أخرى حية متحركة وهي ابتهاج المسلمين بعودة المسجد الأقصى لأيدي المسلمين، ويلتقط الفاضل صورة الصخرة المشرفة ،وحولها الناس متعطشين لرؤيتها كتعطشهم للماء العذب حتى وصل بالفاضل أنه جعل الحجر الأسود مبتهجاً لعودة بيت المقدس.

انظر إلى قوله: "**أدلجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة**" هنا نراه صور الآجال والتي يقصد بها الإنسان، فأخذ صفة النوم وألصقها بهذه الآجال، لأن النوم لا يكون إلا

---

[1])الدر النظيم، ص١٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

للكائن الحي، وكذلك السير في منتصف الليل، فالصفات مأخوذة من الأحياء وألصقها بالجمادات وفي موضع آخر من النص استعار كلمة "عصمتها" والتي هي من صفات الإنسان. هذا كله يؤكد آراء النقاد السابقين الذين تم الاستشهاد بهم عند الحديث عن الصور البيانية.

إلى ذلك صور العماد الاصبهاني بأسلوب التشخيص حالة الصخرة المشرفة بعد الفتح قائلاً "**وأجيبت الصخرة المشرفة عند استصراخها، وبركت البركة الناهضة إليها في مناخها، وغسلت من أوضارها وأوزارها بعبرات العيون، ورجع اضطرابها إلى السكون، وندبت بنواظر أهل الإيمان .. وزالت ضجرة الصخرة، ونعشها الله من العثرة، وبدل بالأنس ما كان فيها من الوحشة والحسرة**"[1].

اتكأ العماد على أسلوب التشخيص فصور الصخرة وهي تستصرخ وتستغيث تدعو إلى تحريرها، وخلاصها من الأسر، فاستجاب لها صلاح الدين،ولبى نداءها، وقام على تخليصها من أثر الرجس.

فجسد العماد "البركة" بأن جعلها تحط رحالها في المكان الذي ترتضيه، وتهفو إليه كما تحط الإبل أجسادها في مباركها، فهي صورة معبرة عن بركة النصر التي غدت شاخصة للعيان. فقد أضفت على النص حركة تلك الحركة التي أوقعتها في النفوس نتيجة للفرحة العارمة، هذا التشخيص الذي تأنس النفس به أكثر مما تأنس بالمدرك المعنوي. وفي كتاب آخر كتبه العماد الأصبهاني عن السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى السلطان الناصر لدين الله ببغداد بفتح القدس، قد استقى صورة من أجواء الحروب التي كان يعيشها

---

[1]) الروضتين، ٢/٩٧. (طبعة دار الجيل)

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

في تلك الفترة بقوله" فإما سيوف تقاتل سيوفاً، أو الزحوف تقاتل زحوفاً"[1]. وبلغت براعة العماد في الوصف والميل إلى التجسيم والتشخيص، نراه يصور السيف يقظاً كالإنسان، فيقول "فما كان سيف يتيقظ من جفنه قبل أن ينبهه الصريخ"[2].

وعلى هذا أكد الجرجاني بقوله :"إن تجسيد المعاني الذهنية في صور حسية" أمس بالنفس رحماً وأقوى لديها نمماً"[3]. فوظيفة التجسيم هو الإيهام أو الإيحاء بأن ما كان ظناً يحتمل التصديق والتكذيب أصبح يقيناً، ولها تأثير نفسي على المتلقي. وكما عدّ الجاحظ التشخيص جنساً من التصوير[4].

وابن الأثير له نصيب في وصف المعارك بأسلوب بياني رائع، "**فَسُرْنا في غمامة من الكتائب تُظلُها غَمامَةٌ من الطيورِ الأشائبِ، فهذه يضمها بحرٌ من حديد، وهذه يضمها برٌ من صعيد، وما مرت ببلد إلا أزالت أرضه من سمائه، وألبست نهاره ثوب ظلمائه، وبدلت أحراره بعبيده، وحرائره بإمائه، وكذلك فعلت بمدينة فلانه وهي مستبقة إلى طرادها كاستباقها إلى ميدانها إلا من تتأود القناة من يده بين لهذمين ... فجرت المغاوير إلى المغاوير، وتلاقت الرياح بالأعاصير، وكان الطعن بينهم عناقا، واللبث وفاقا، وسبق ألم الموت ألم الجرح، ونفذت غير مختضبة لسرعتها أسنة الرماح ... وجيء بالأسرى مقرنين في الأصفاد**"[5]. تأمل هذه الصورة الحية المتحركة في وصف المعركة، فالكاتب يصور مسير الجيش الإسلامي لهذه المعركة بالكثرة، واشتداد وطيس المعركة، ونهوض جميع المسلمين في البر والبحر لمقاتلة الأعداء، وكثرة الأسلحة "يضمها بحر من حديد" والتي جاء الكاتب ليمهد بها للانتقال إلى جو النصر، فكثافة الجيشين في توجهها للزحف

---

[1]) صبح الاعشى، ٥١٨/٦.

[2]) المصدر نفسه، ٥١٨/٦.

[3]) سمير أبو حمدان، الإبلاغية في البلاغة العربية، منشورات عويدات الدولية، ط١، بيروت، باريس، ١٩٩١م، ص١٤٦-١٤٧.

[4]) الجاحظ، الحيوان، تح/ عبد السلام هارون، دار الجيل ودار الفكر، ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م، ج٣، ص١٣٢.

[5]) المثل السائر، ١١٢/١-١١٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كهيئة جبال شامخة تمتد عبر مسافات طويلة، ولم يكتف بهذه الصورة بل أراد أن يضفي الصورة الحركية على النص بقوله "**فجرت المغاوير إلى المغاوير، وتلاقت الرياح بالأعاصير، وكان الطعن بينهم عناقاً، واللبث وفاقاً، وسبق ألم الموت ألم الجراح**" فانظر إلى كل فقرة من الفقرات، إنها تمثل صورة حية بديعة، فالجري، والتلاقي، والعناق، واللبث، والسباق جميعها ألفاظاً ذات دلالة حركية يستدل بها على شدة المعركة وضراوتها، وفي أثناء المعركة يصور ألم الموت وهو يسبق الأسنة وهي تتهاوى على فريستها. وشبه ابن الأثير مسير الجيش بالغمام المتراكم فوق بعضه بعضاً وذلك لكثرته، وكلمة "البست" في قوله "البست نهاره ثوب ظلمائه" نراه قد استعار اللباس للنهار، دلالة على قوة ضرب السيوف وشدتها من المسلمين على الأعداء فأصبح نهارهم كالليل. ولتوكيد هذا المعنى وتركيزه عند المتلقي جاء بلفظه "عناقاً" دلالة على التحام الجيشين وجهاً لوجه أثناء المعركة. فالصورة التشبيهية التي رسمها ابن الأثير في النص إنما تضفي على المعنى قوة دافعة والتعبير عن اشتداد المعركة.

ولجأ ابن الأثير إلى الاستعارة ليجسد تلك المشاهد في صور قوية معبرة فتراه اعتمد على الصور التشخيصية في وصف الجيش والمعركة "وكأن الطعن بينهم عناقاً...

وفي نص آخر للقاضي الفاضل، يصف الأسلحة التي يقاتل بها المسلمون في معركة حطين قائلاً " .. **فإنه قتلهم بالسيوف الأفلاق، والرماح الأكسار، فنيلوا بثأر من السلاح ونالوه أيضاً بثأر، فكم أهله سيوف تقارضن الضراب حتى عادت كالعراجين، وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين، وكم فارسية ركض عليها فارسها السهم إلى أجل فاختلسه، فغرت تلك القوس فاها، فإذا فوها قد نهش القِرْنَ على بعد المسافة فافترسه**"[1].

---

[1])الدر النظيم، ص٢٢-٢٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يصف القاضي الفاضل دور صلاح الدين وعساكره في موقعه حطين، حيث التحم الجيشان وكان النصر حليف المسلمين، وبسبب شدة المعركة وضراوتها ، فإن الكاتب يصور ذلك بأحلى صورة، فالسيوف البتارة قد تفلقت من شدة الطعان وكذلك الرماح التي تكسرت من كثرة التقتيل.

وانظر إلى هذه الصورة المعبرة التي لجأالقاضي الفاضل من خلال الاستعارة وهي "**فنيلوا بثأر من السلاح ونالوه أيضاً بثأر**"فالسيوف والرماح تطالبان بالثأر لمن استشهد من المسلمين وتناله بنفسها من أجساد الأعداء.

وانظر كذلك إلى الصورة التشبيهية في النص "**فكم أهله سيوف تقارض الضراب حتى عادت كالعراجين**" هذه صورة السيوف قبل المعركة وبعدها، فكانت كالأهلة في لمعانها وبريقها فعادت من كثرة التقتيل وضرابها في الأعداء كعذق النخل القديم، الذي لا يرجى منه فائدة بعد استعماله.

وفي آخر المطاف، أقول، تلك أمثلة من بعض الصور البيانية في رسائل العصر الأيوبي، وهناك الكثير منها بين طيّات الكتب.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الرابع: المحسنات البديعية:

إن الأثر الجمالي الذي تتركه هذه المحسنات في العمل الأدبي يعدّ من الآثار الحسنة والمقبولة في النفس البشرية، لذلك نرى الجرجاني يشير إلى أن المعنى هو الذي يستدعي ذلك الحسن، فيقول "إنك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سجعاً حسناً، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه ... فأما أن تضع في نفسك أنه لا بد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت منه بعرض الاستكراه، وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم"[1].

ومن شروط النقاد لاستخدام تلك المحسنات البديعية "أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى، لا أن يكون المعنى تابعاً للفظ، فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموه على باطن مشوه، ويكون مثله كغمد من ذهب على نصل من خشب"[2].

ومن الشروط كذلك "الاعتدال" حيث ذكره ابن الأثير قائلاً "واعلم أن الأصل في السجع هو الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع"[3].

ويرى محمد هلال بأنها -المحسنات البديعية- "وسيلة من وسائل التأثير في العبارة الأدبية، لما تضفيه على الكلام من حسن تناسق، وجمال في الأداء، مما يزيد في الاستمتاع به والارتياح إليه"[4].

---

[1] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح/ محمد الفاضلي، ط٢، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

[2] المثل السائر، ٢١٣/١.

[3] المصدر نفسه، ٢١٢/١.

[4] انظر: د. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، ١٩٨٧م، ص٢١٨-٢٢٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أمّا أحمد بدوي فيرى المحسنات البديعية بأنها "حلية تروق الأذن منها ما جاء في مكانه وكان قليلاً لا يخفي به جلال المعنى، ويزيد جمال المعنى"[1].

لذا فأجمل المحسنات وأوقعها في النفس هي التي تجيء عفوية في الكلام دون قصد او استكراه".

لذلك كله، نجد كتاب العصر الأيوبي قد اهتموا بتلوين كتاباتهم وتزيينها بالمحسنات البديعية، فاعتنوا بهذا الجانب وأولوه جلّ اهتمامهم، فلا نكاد ننظر إلى رسالة من رسائل النثر الأيوبي إلا ورأينا فيها الزينة البديعية، ومع ذلك فإن هناك تفاوتاً بين الكتاب في هذا العصر من حيث استخداماتهم لهذه المحسنات، منهم ما اعتدل في استعمالها كابن الأثير، وبالمقابل من يتتبعها في كثير من الأحيان كالعماد الأصبهاني وخاصة في مؤلفه "الفتح القسي في الفتح القدسي، أما القاضي الفاضل فإنها جاءت متفاوتة بحسب الأغراض التي يكتب فيها، وقد ذكره بعض المؤلفين وقالوا بأنه "وفق في المزج بين استخدام البديع وحسن تصريف للألفاظ فتطاوعهُ ويطاوعها"[2].

ولابن حجة الحموي رأي في القاضي الفاضل يبين القيمة البديعية لفن القاضي الفاضل، والتشبيه الرائع لأدبه حين قال: "ولعمري إن الإنشاء الذي صدر في الأيام الأموية والأيام العباسية نُسِيَ وأُلْغِيَ بإنشاء الفاضل وما اخترعه من النكت الأدبية والمعاني المخترعة والأنواع البديعية، والذي يؤيد قولي قول العماد الكاتب في الخريدة إنه في صناعة الإنشاء كالشريعة المحمدية نسخت الشرائع"[3].

---

[1]) أسس النقد الأدبي، ص٤٧٦.

[2])انظر: الأدب في العصر الأيوبي، ١/٢٣٢-٢٣٣.

[3]) تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، صححه وعلق عليه/ محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الخانجي، ط١، مصر، ١٩٧١م، ص١٣٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن مظاهر البديع في رسائل العصر الأيوبي:

الجناس

لقد كثر استخدام الجناس في رسائل هذا العصر، حيث نكاد لا نرى رسالة تخلو من هذا اللون البديعي.

فقد عرفه ابن الأثير "أن يكون اللفظ واحداً، والمعنى مختلفاً"[1] بينما قال عنه القزويني في الإيضاح، وقد قصره على التشابه بين اللفظين، ولم يتكلم عن المعنى"[2] لذلك نرى أن تسمية ابن الأثير، أوسع نطاقاً، وأكثر شمولاً من تسمية القزويني، وقد عرفه الهاشمي كذلك بأنه "تشابه لفظين في النطق، واختلافهما في المعنى"[3].

فضلاً عن ابن الأثير قد قسمه إلى سبعة أقسام[4] -لا مجال لذكرها-.

من خلال هذه التعاريف نستطيع أن نلمس حقيقة الجناس عند علماء البلاغة وهو أن يتفق اللفظان في وجه من الوجوه، ويختلف معناهما.

ومن الأمثلة على الجناس في نثر العصر الأيوبي، كتاب ابن الأثير الذي يتضمن فتحاً، حيث يقول:

"فكم كان في افتراع عذرة الحصن من افتراع عذرة حصان، وكم حيز به من سنان لحظ استرقّه لحظ سنان"(٥) وقوله في كتاب صدر عنه إجابة عن كتاب والده المخبر عن

---

[1]) المثل السائر، ٢٦٢/١.

[2]) جلال الدين محمد القزويني، الايضاح في علوم البلاغة، قدم له وبوبه وشرحه/ د. علي أبو ملحم، دار مكتبة الهلال، ط٢، بيروت، لبنان، ١٩٩١، ص٣١٨.

[3]) السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (د. ت)، ٣٢٠.

[4])انظر: المثل السائر، ٢٦٢/١-٢٧٧. د. عبد الواحد حسن الشيخ،دراسات في البلاغة عند ضياء الدين بن الأثير، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الاسكندرية، ١٩٨٦م، ص٢١٥.

[5]) المثل السائر، ٢٧٥/١.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وفاة أخيه الأكبر مجد الدين "**ولقد بكيته حتى أرقت كل عين شحيحه، وأعديت بدائي كل كبد صحيحة، وما أصنع بالحياة وقد فقدت من كان قسيمها، وعدمت من كان جنتها ونعيمها، وأصبحت بعده كمقلة فارقها إنسانها، أويد بان عنها بنانها**"[1].

ومن خلال النص نجد ابن الأثير قد استخدم الجناس بألفاظ جزلة وفخمة في النص الأول لما أملاه عليه موضوع الرسالة، ولكنه في النص الآخر اختار ألفاظاً ذات تجنيس بديع ورقة ومؤثرة بعيدة عن القوة والجزالة، وهي من جماليات استخدام الجناس الفنية التي تعيد هذه الألفاظ إلى ذهن المتلقي، في الصورة اللفظية نفسها مرة ثانية، ولكن مع اختلاف الدلالة، فاختياره (اقتراع عذرة الحصن) (اقتراع عذرة الحصان) وكذلك (سنان لحظ) (لحظ سنان) هذه الألفاظ وما يكاد المتلقي يسمعها لأول مرة -اللفظة الأولى- حتى تعود إليه اللفظة الثانية نفسها حيث تحصل الفائدة التي لا يتوقعها السامع لأنه لا يزال واقعاً تحت تأثير الاستغراب والدهشة من الأولى، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظ كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووقاها، فبهذه السريرة صار التجنيس، وخصوصاً المستوفي المتفق في الصورة"[2].

إلا أننا نجد العماد الأصبهاني يكتب كتاباً يصف فيه بيت المقدس، وتمسك الصليبيين ودفاعهم عنه بأسلوب مغاير لأسلوب ابن الأثير حيث أن السامع ليشعر بالملل والهجنة عند قراءة هذا الكتاب يقول "**وكان في القدس ستون ألف مقاتل، من سائف ونابل، وبطل**

---

[1])ديوان رسائل ابن الأثير. ص٢٩ (تحقيق حمودة نوري القيسي).

[2]) د. عيسى علي العاكوب ورفيقه، الكامل في علوم البلاغة العربية، الجامعة المفتوحة، عمان، ١٩٩٣، ص٦٥٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

للباطل، وعاس عاسل للعاسل قد وقفوا دون البلـــد يبـــارزون ويحـــاجزون، ويعـــاجزون ويناجزون، ويرمون ويدمون، ويحمُون يحمُون .."[1].

فهذه الكلمات المتجانسة يشعر القارئ منها بالملل، فضلاً عن أن موضوعها حـــول وصف لبيت المقدس، وقد وقعت هذه الألفاظ في ذهن المتلقي مثيرة للدهشة، وقد حصلـــت الفائدة من حيث لا يشعر.

فالعماد في أحد كتبه عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الناصر لديـــن الله ببغداد بفتح القدس استخدم الجناس بكثرة، قد تكون أخرجته إلى نطاق التكلف مما دفعـــه هذا الإكثار منه إلى استخدام ألفاظ غريبة أمثال "حيزوم، وشماريخ، والمصيخ، وهـــوادي، ... الخ"[2]. فاستخدم العماد كذلك أنواع الجناس في كتبه.

فالجناس التـــام "وفـــاض ري النصـــر مـــن بحيرتـــها- وقضـــت علـــى جســـرها الفرنج، فقضت نحبها بحرتها"[3].

"الحمد لله الذي أعاد الإسلام جديداً ثوبه، بعد أن كان جديداً حبله"[4].

(جديداً حبله) أي مقطوعاً.

الجناس الناقص "فالزمان كهيئته استدار، ولحق بمهجته قد استنار"[5].

الجناس الاشتقاقي "..... وفي يوم الجمعة والسبت كسر الفرنج الكسرة التـــي مالـــهم بعدها قائمة"[6].

---

[1]) الفتح القسي، ص١٢٤.

[2]) انظر :الكتاب في صبح الأعشى، ٥١٧/٦-٥٢٠.

[3]) صبح الأعشى، ٥١٩/٦.

[4]) المصدر نفسه، ص٥١٨

[5]) المصدر نفسه، ص٥١٧.

[6]) المصدر نفسه، ص٥١٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فقد أكثر العماد من استخدام الجناس جعلته يسوق الكلمات جبراً وقسراً، وقال ابن الجوزي وأكثر ما يعاب عليه كثرة استعماله للجناس لا سيما في النثر بحيث تضيق به الأنفاس، ويكاد لا يترك للفظة الواحدة مجالاً، وإنما يحسنُ الجناس إذا حقّ على القلب واللسان، ولم يتعدّ المرتين"[1].

أما القاضي الفاضل الذي كان له الباع الطويلة في استخدام البديع، فله أيضاً رسائل أذكر منها، قوله في رسالة بمناسبة فتح بيت المقدس "**ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليها كل شريد منهم وطريد، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله مانعتهم، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم .. ويزاحمه السور بأكنافه، وقابلها ثم قاتلها، ونزلها ثم نازلها، وبرز إليها ثم بارزها وحاجزها ثم ناجزها**"[2].

ويعبّر القاضي الفاضل عن استرجاع مدينة بيت المقدس بأسلوب شيق ورقيق. بتوجه صلاح الدين بعساكره إلى بيت المقدس لاستعادته، وعند وصوله رأى أن الصليبيين يتمسكون بالأرض الطاهرة المقدسة، ظناً منهم أن حصونهم ستمنعهم من الجيش الإسلامي، ومن الهلاك الذي ينتظرهم، فحاصرهم صلاح الدين بجنوده، وأجبرهم على الاستسلام وأصابهم بالذل والهوان.

هذه الموقعة العظيمة التي رسمها القاضي الفاضل، وزينها بألفاظ البديع، ومنها الجناس، جعلت الرسالة متناسقة التراكيب ومتآلفة الألفاظ.

---

[1]) تاج الدين أبي نصر بن عبد الوهاب بن علي السبكي،طبقات الشافعية الكبرى، تح/ عبد الفتاح محمد الحلو ورفيقه، ط١، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م، ج٦، ص١٨٠.

[2])الدر النظيم، ص٢٦-٢٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الطباق

وهو كالجناس من حيث قلته إذا ما قورن بالسجع"

فقد عرفه ابن الأثير"هو أن يكون المعنيان ضدين"[1] وفسره كذلك بقوله "أمـــا الأول مقابلة الشيء بضده كالسواد والبياض وما جرى مجراهما فإنه ينقسم قسمين، أحدهما مقابلة في اللفظ والمعنى، والآخر مقابلة في المعنى دون اللفظ"[2].

فالطباق هو "الجمع بين معنيين متضادين، وذلك لإثارة القـــارئ، وإيقـــاظ نفســـه، وتعميق الشعور بالمعنى عنده، عن طريق إبراز المفارقة بشكل أكثر جـــلاء مـــن خـــلال المجاورة بين الضدين[3]. هذه جمالية فنية مستمدة من استخدام الطباق الـــذي يـــبرز عنـــد استخدامه تنبهٌ وتيقظ فيذكر في البداية اللفظة الأولى ويتطور إلى حالات في نفس الســـامع، وبجمعه المعاني المتضادة والتأليف بينهما فتبدو متجاورة متآخية، فتعمق الفكـــر، وتثـــير الشعور، وتعمل على تنشيط العملية الذهنية عن الأسباب والمعاني والأفكار"[4].

إذن فاستخدام الطباق غالباً ما يؤدي إلى جمالية في النص كـــالذي ســـنقرأه للعمـــاد الأصبهاني في فتح حصن برزيه، يقول "**إن هذه البشرى بما أجده الله من الفتح العزيـــز، والنصر الوجيز بفتح حصن برزية الذي برزت له الأرض في قُشُبِ أثوابها، وتفتحت لـــه السماء لتنزل الملائكة من أبوابها بل سفرت به عرائس الأيام في حلى أيا منها، وأشـــرقت منه أقمار الليالي في أنوار محاسنها .. وجلونا ثغور الثغور الضاحكـــة وعيـــون العـــدو**

---

[1]) المثل السائر، ١٤٣/٣.

[2])المصدر نفسه، ١٤٤/٣.

[3]) د. محمد علي سلطاني، البلاغة العربية في فنونها، مطبعة زيد بن ثابت، ١٩٨٠م، ص٢٣.

[4]) د. حمزة الدمرداش زغلول، الألوان البديعية، دار الطباعة المحمدية، ط٢، القاهرة، ١٩٨٧، ص٦٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الباكية .. فإنا لمّا توكلنا على الله في منازلته، واستعنا به في مقاتلتـــه، ونظـر الله إلـــى النيات، وأعان ذو العزائم والثبات من الله بالظفر، وأصفى الورد والصدر من الكدر"[1].

جمع العماد في هذا النص جمالية الطباق مثل (الأيام والليالي) (الضاحكة والباكيـــة) (أصفى والكدر) والتي تمثلت في جمع الأضداد ليحدث للقارئ أو للمتلقي نقلة سريعة بيـــن الضد والضد وكذلك المتنافرات العكسية، هذه النقلة والإحاطة بالمتنافرات والأضداد، يتولـد للمتلقي شيءٌ من البهجة والسرور، لأنها -المتضادات- غالباً ما تعمل على تنشيط الفعاليـــة الإدراكية، حينئذٍ يحدث شيءٌ من التعجب والدهشة، فاستخدم العماد هذه المتضادات لإثـــارة الدهشة لدى المتلقي من حال الحصن الذي كان بأيدي الصليبين.

وعلى الرغم من منعته وقوة الجيش فيه وظنهم أنه سيمنعهم من جنود الله البواســـل هذا الضد الأول فجاء الضد الآخر والمتمثل بجيوش المسلمين الذين عملوا على هدم وطـرد وتشديد الضد الأول فانتقل الحصن من أيدي الصليبين -الضد الأول- إلى المسلمين -الضـــد الثاني- فاتكأ العماد على الطباق من أجل التوضيح وتأكيد المعنى المراد، ذلك لأن الطبـــاق بما فيه من الأضداد من شانه أن يوضح ويبين ويجلي. ومن الأمثلة كذلك على الطباق عنـد العماد (وأخمد باشتعال ذلك الموهج ما أكرب قلوب المؤمنين من الوهج"[2] ومنـــــه كذلـــك "وتمت المحاسن ونمت، وتمت النعم الظواهر والبواطـــن"[3] والأمثلـــة كثـيرة لا مجـــال لحصرها. وفي نص آخر لابن الأثير كتبه عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى ديوان الخلافة يتضمن فتح بيت المقدس، قائلاً: **"خلـــد الله ســـلطان الديـــوان العزيـــز**

---

[1]) الفتح القسي، ص٢٥٢-٢٥٣.

[2]) الفتح القسي، ص٣٧٨.

[3]) المصدر نفسه، ص٢٨١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

النبوي، وجعل أيام دولته أتراباً، ومناقب مجدها هضاباً، وزادها على مرور الأيام شبابا، وأوسعها توشية وإذهاباً، إذا أوسع غيرها تلاشياً وذهاباً، ومنحها في الدنيا والآخرة عطاءً وفاقاً لا عطاء حساباً، ومثل جدودها في عيون الأعداء شيناً عجاباً، وأراهم منها وراءهم في اليقظة إرهاباً وإرعاباً، وفي المنام إبلاً صعاباً .. وفاز بسبق أوائلها وإن جاء آخراً .. وجعلت في كل ناحية من وجهه شمساً وقمراً .. وأطال من كل ما قصرته يد الكفر وكانت هي الطولى، وبه صح لهذا البيت اسمه، وانتقل إلى الطهارة ونزاهتها عن الرجس ووصمه .." [1].

يشير ابن الأثير إلى أهمية فتح بيت المقدس بالنسبة للمسلمين، ووصف ما كان عليه حال بيت المقدس أثناء الاحتلال الصليبي، مع الإشارة إلى فضل صلاح الدين بهذا الفتح، فاستخدم الطباق (الدنيا والآخرة) (اليقظة والمنام) (شمساً وقمراً) (الطهارة والرجس).

انظر إلى هذه المتضادات والمتنافرات التي استخدمت لتؤدي معنى يصف فيه حال الصليبين ومقابلتهم بحال المسلمين، فجعل الانتقال من الضد إلى الضد الآخر، كانتقال بيت المقدس من الرجس إلى الطهارة (الإسلام) والانتقال من يد الكفر القصيرة إلى يد الإسلام - قوة الله تعالى- فأصيب القارئ بالدهشة والتعجب اللذين يحدثان للإدراك العقلي نتيجة هذه المتضادات والتي جاءت جميعها لفاعل واحد ألا وهو الله سبحانه وتعالى.

أما القاضي الفاضل فقد ذكرت له كتاباً في -موقع الجناس- وتجنباً للتكرار أذكر موضوعه (فتح بيت المقدس) فقد استخدم الطباق "**واعتصم بمنعتها كل قريب وبعيد .. عصيها وحبالها .. يخلد إخلاده إلى الأرض ويعلو علو السماك .. وأن يعيد الحجر إلى**

---

[1]) المثل السائر، ٢/٢٩٣-٢٩٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

سيرته من التراب .. وفتح من السور باب سدّ من نجاتهم أبواباً فأخلى السور من السيّارة، والحرب من النظارة، فأمكن النقّاب، أن يسفر للحرب النقاب، وأن يعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب .." [1].

وانظر في الكتاب نفسه ما يبين حالة المسلمين بشكل عام وصلاح الدين بشكل خاص، والذي كان يسعى لهذا الغرض، فاستخدم القاضي الفاضل حالة مقابل حالة أخرى مضادة له ليبين للقارئ أن حياة صلاح الدين البائسة وما نالها من القسوة، ما هي إلا مقدمة لحياة ناعمة هانئة، فاستخدم الطباق لينقل للقارئ هذه الصورة الجلية الواضحة، قال الفاضل "ولا يقاسي ذلك البؤس إلا رجاء هذه النعمى" وكذلك استخدام اسم الإشارة للحياة التي أصبحت بعيدة عنه "تلك" ثم استخدام اسم الإشارة القريب "هذه" وذلك للتبدل الذي وقع عليه في الحالة الأولى، ولا ننسى استخدام أداة الحصر "إلاّ" والتي عملت على حصر المعاناة التي يقاسيها للهدف الأسمى وهي الحياة الدائمة الناعمة -وهي تحرير بيت المقدس وطرد الصليبيين- وهناك كتاب آخر للفاضل "**المملوك بعسكري بره وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره .. والكفار محمولة إليهم جزى المسلمين .. ولا خفاء أن الإفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الأقطار .. لا سيما وهم ينصرون باطلاً وهو ينصر حقاً**"[2].

انظر إلى بلاغة الطباق في (قاموا وقعدوا) فهي تصور حالة الصليبيين بعد استرجاع بيت المقدس، إنهم في حالة ذعر وخوف شديدين من المسلمين

---

[1])انظر: الدر النظيم، ص٢٦-٢٨.

[2]) شهاب الدين المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح/ إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٩٩٧م، ج٢، ص٣٦٧-٣٦٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وجيوشهم، وتبين حالتهم النفسية التي لا تستقر على حال، بل هي مضطربة بسبب الخوف والجزع، فالقيام والقعود المستمر ما هي إلا حركات تدل على عدم التوازن والاستقرار النفسي لدى الإنسان.

ولو تتبعنا النص وغيره من النصوص، لوجدنا كثيراً من ألفاظ المطابقة التي تؤدي إلى تصوير حالة المسلمين في حالة الحرب مع الفرنج، كما جاء في كتاب للقاضي الفاضل الذي عقد مقارنة بين بني جعفر وطلحة عند نزول الفرنج بالقاهرة، وذلك باستخدام الطباق حيث قال: "... **وحاصرتم البلاد أشد الحصار، وجنيتم جناية كسواد الليل في بياض النهار، فلا نهضتم إلى النصرة، ولا قعدتم عن المضرة، فليتكم لا أسأتم ولا أحسنتم، ولا أطعتم الله ولا عصيتم..**" [1].

فالقاضي الفاضل يستخدم الطباق في النص لبيان ما قام به الطلحيون والجعافرة من تقاعس عن الجهاد، وتأنيبهم في مواقفهم.

هذا ما كان في الرسائل الديوانية، أما الرسائل الإخوانية فلها حظ من ألوان البديع، وسأذكر كتابين على سبيل الاستشهاد ففي رسالة تعزية كتبها القاضي الفاضل يقول فيها ".. **وجعله ممن سلم إليه فوقى حرب الدهر وسلمه، وأطلع في آفاق سماء المجد الأهلة والبدور، وسره بما يبشر به من موهبتي الإناث والذكور**"[2].

فالقاضي الفاضل في هذا النص يتوجه إلى ذوي المتوفى بالعزاء طالباً له الرحمة من الله سبحانه وتعالى بألفاظ رقيقه، وبعبارات تنم عن الأسى واللوعة التي تكبدها من

---

[1])الدر النظيم، ص٣٤-٣٥.

[2])الدر النظيم، ص٥٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بعده، مستخدماً ألفاظ الطباق (حرب وسلم، الأهلة والبدور) (الإناث والذكور) بأسلوب رقيق وكلمات رقيقة وعبارات متآلفه، ذات صوت موسيقي حزين فرضته عليه مناسبة الرسالة.

وهذا كتاب كتبه ابن الأثير في شكوى حاله يقول: "وقد أحاط العلم بحال المملـــوك باطناً وظاهراً، ومكان خدمته غائباً وحاضراً، وهو يعيذ مولانا أن يجعلـــه مـــن أصحـــاب الشمال وهو من أصحاب اليمين، أو يثيب عمله ثواب المسترخص، وقدره قدر الثميـــن .. والمملوك على الباب العزيز حولاً كاملاً، تارة مقيماً وتارة راحلاً ..."[1].

فابن الأثير يصور في هذه الرقعة التي أملاها على صاحبه حالته، متضمنة شـــكوى حاله الملك الأفضل علي بن يوسف مبيناً ما آلت إليه الأمور من شدة العوز والفاقة حتـــى وصلت به الأمور إلى أن يختار بين زاد الإمامة أو الرحيل.

فاستخدم بن الأثير ألفاظاً ذات مطابقة للتدليل على حالتين إحداهما سابقة والأخـــرى لاحقة (**باطناً وظاهراً**)، (**غائباً وحاضراً**)، (**أصحاب الشمال، أصحـــاب اليميـــن**)، (**مقيمـــاً وراحلاً**) هذه الألفاظ لو جمعت من كل زوج واحدة منهما (باطناً، غائباً، أصحاب الشـــمال، راحلاً) لكانت الصفة المشتركة التي تجمعها مع بعضها بعضاً هي الغياب وعدم الوجـــود، أما الألفاظ المتبقية (**ظاهراً، حاضراً، أصحاب اليمين، مقيماً**) فتجمعها صفة الوجود نلاحـــظ مما سبق أن (عدم الوجود والوجود) هو طباق سلبي، مما يضفي هذا على الشخص حالـــة عدم الاستقرار والسلبية بسبب فقره وعوزه واضطرابه، وهذا ما يثير الدهشة والاســـتغراب لدى المتلقي.

---

[1])ديوان رسائل بن الأثير، ص١٤٢ (تحقيق نوري القيسي).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

السجع

ربما يكون أكثر الألوان البديعية استخداماً في الرسائل، لأنه كان وما يزال مقبـــولاً في هذه الفترة، لما يتركه من جرس موسيقي، وتوافق لفظي، ورنين صوتي، لذلك قال عنـه الجرجاني في أسراره "وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سجعاً حســناً، حتــى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجــد عنه حولاً ... ومثال ما جاء من السجع هذا المجيء وجرى هذا المجرى في ليــن مقادتــه، وحل هذا المحل من القبول قول القائل، اللهم هب لي حمداً، وهب لي مجداً، فــلا مجــد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال"[1].

وقد عرّفه ابن الأثير بأنه "تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد"[2].

ويرى ابن الأثير أن السجع حسن ولا يرى وجهاً لذمه لو كان مذموماً لما ورد فــي القرآن الكريم، فإنه قد أتي منه بالكثير، حتى أنه ليؤتى بالسورة جميعاً مسجوعة، كســورة الرحمن، وسورة القمر، وغيرهما، وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور"[3].

واشترط ابن الأثير في السجع الحسن أن يكون اللفظ تابعاً للمعنى لا العكس، وهــذا شرط من الشروط التي وضعها للكلام المسجوع "أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعــاً للمعنى، لا المعنى تابعاً للفظ"[4].

فالسجع إذن "يخامر العقول مخامرة الخمر، ويخدر الأعصاب إخدار الغناء، ويؤثــر في النفوس تأثير السحر، ويلعب بالإفهام لعب الريح بالهشيم، لما يحدثه من النغمة المؤثــرة

---

[1]) أسرار البلاغة، ص١٢-١٣.

[2]) المثل السائر، ١/٢١٠.

[3])المصدر نفسه، ١/٢١٠.

[4])المصدر نفسه،١/٢١٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والموسيقى القوية التي تطرب لها الآذان، وتهش لها النفس، فتقبل على السماع من غير أن يداخلها ملل أو يخالطها فتور، فيتمكن المعنى في الإذهان، ويقر في الأفكار، ويعز لدى العقول"[1].

وقال آدم متز بأن السجع قد عظم شأنه في الرسائل منذ بداية القرن الرابع الهجري، حتى وصل بهم الأمر أنه لا يخطر على بال كاتب أن يكتب شيئاً لا يتضمن سجعاً[2].

ومن يقرأ رسائل العصر الأيوبي، يلاحظ أن أغلب الرسائل تسير وفق نظام الفواصل المسجوعة. ومن تلك الرسائل رسالة كتبها ابن الأثير عن بعض الملوك إلى دار الخلافة، يقول "**الخادم واقف موقف راجٍ هائب، لازم بكتابه هذا وقار حاضر عن شخص غائب، موجه وجهه إلى ذلك الجناب الذي تُقسم فيه أرزاق العباد، ويتأدب به الزمان تأدب ذوي الاستعباد، وتستمد الملوك من خدمته شرف الجدود، كما تستغنى بنسبها إليه عن شرف الأجداد.. وهذا القول يقوله وكل ماجدٍ فيه حاسد، وبتأميله راكع ساجد، والديوان العزيز محسود الاقتراب، وهو موطن الرغبات الذي الاغتراب إليه ليس بالاغتراب..**" [3].

فابن الأثير في هذا الكتاب يعمل على مدح الخليفة على لسان الملك بصفات تكاد تكون متفردة بالخليفة بأسلوب مسجوع، وكل سجعة منه مختصة بمعنى من المعاني غير المعنى الذي تضمنته السجعة السابقة أو اللاحقة.

---

[1]) الألوان البديعية، ص١٦٠.

[2]) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة/ محمد عبد الهادي أبو ريدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٥م، ص٣٣٥.

[3]) المثل السائر، ٢١٥/١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فالكلمات (**هائب، غائب، العباد، الاستعباد، حاسد، ساجد**) عبارة عن كلمات مسجوعة كل واحدة لها معنى يختلف عن الأخرى، فاعتمد ابن الأثير في هذا النص على السجع الطويل، وتنوعت حروف الفواصل، فجاءت متنقلة في عدة حروف مما يجعل النص ذا رونق موسيقي وخاصة في ثنايا الفواصل والتي اعتمدت في أكثرها على الحروف الشديدة كالدال والباء، مما يجعل امتداد الصوت بالحرف المسجوع يتناسب ويتناغم مع موضوع الكتاب وهذا يدخل البهجة والفرحة والسرور لدى المتلقي، وتستلذ له الآذان لسماعه.

وتأمل كتاباً كتبه القاضي الفاضل، إلى ابن قاضي عكا، حيث يقول ".. **فأعلمه أن مكاتبته قبلناها، ورسالته عظمناها، وأنا له كما يكون الصديق للصديق، والشفيق على الشفيق، وما يضرنا تباعد البلاد، إذا تقاربت القلوب بالوداد، ..**" [1].

وتأمل كتاب القاضي الفاضل ترى أنه استخدم حرف الدال كما جاء في الكتاب السابق الخاص بابن الأثير (الدال، والقاف والهاء) لما لهذه الحروف من قوة تأثير وتناسب وتناغم، ولما لها أيضاً من قوة على أذن المتلقي.

وهذا ما يجعلني انظر في الكتاب الذي كتبه القاضي الفاضل في مناسبة فتح بيت المقدس، حيث يقول "**أدام الله أيام الديوان (العزيز النبوي الناصري) ولا زال مظفر الجد بكل جاحد، غنياً بالتوفيق عن رأي كل رائد، موقوف المساعي على إقناء مطلقات المحامد، مستيقظ النصر والنصل في حفنة راقد، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد...**"[2].

---

[1])الدر النظيم، ص٤٠.

[2])الدر النظيم، ص١٥-١٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هذا التناسب والتناغم بين الحروف المسجوعة، ما هو إلا ليقر المعنى في ذهن المتلقي حتى يقبل على سماعها بشوق وتلهف ويدخل السرور والبهجة إلى قلبه من فرحته بالانتصار.

ومن الملاحظ أن استخدام السجع الطويل منه والقصير والتنوع بأحرف الفواصل، يجعل التناسب لطيفاً في الجرس الموسيقي الصوتي وعند قراءة الرسالة المسجوعة تشعر باتصال العبارات من خلال حاجة العبارة الواحدة لأختها، مما يؤدي إلى التوافق والتوقع اللذين يعدان من الأسس الجمالية للسجع، فإعداد القرينة الأولى للذهن ليتلقى بعدها قرينة لها نفس الطول فيحدث التوافق، أما العكس بمعنى القرينة الثانية أقصر من الأولى، فيحدث إحباط التوقع، فلا يستطيع العقل قبول القرينة الثانية والثالثة .. الخ.

انظر إلى قول القاضي الفاضل في الكتاب نفسه **(قابلها ثم قاتلها) (نزلها ثم نازلها) (برز إليها ثم بارزها)** [1] أننا نجد تناسباً متناغماً مع الألفاظ المسجوعة، فهو يضفي عنصر الحركة المستمرة في هذه الألفاظ حتى تتناسب مع موضوع الرسالة.

وابن الأثير يرى أن صفة الاعتدال صفة مطلوبة في كل شيء حتى في السجع، حيث يقول "واعلم أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع"[2].

أما العماد الأصفهاني فقد التزم السجع في كل رسائله فلا نكاد نعثر على نص يخلو عنه، وكان التزامه به مراعاة لذوق عصره من ناحية، ولكونه ناطقاً بلسان الدولة إلى حكام يرون السجع وألوان البديع من أهم مقاييس الجودة والإبداع الفني، يقول عمر موسى باشا: "لا شك أن تصنّع السجع أبرز ما في النثر من فنون البديع،وعليه اعتماد جلّ الكتّاب إذ كل

---

[1])المصدر نفسه، ص٢٦.

[2]) المثل السائر، ٢١٢/١.

©Arabic Digital Library-Yarmouk University

كلام يخلو منه ولا يأخذ كاتبه منه، بحظ قليل أو كثير، خارج في عرف نقاد هذا العصر عن أساليب البلاغة الصحيحة"[1].

فكان السجع يتعدى عند الأصبهاني الجملتين إلى الفقرة بتمامها. فمن الأمثلة على ذلك "والحمد لله الذي أعاد الإسلام جديداً ثوبه، بعد أن كان جديداً حبله، مبيضاً نصره، مخفراً نصله متسعاً فضله مجتمعاً شمله. هذا التوالي في السجع المتحد الفاصلة ملتزماً في مواقف الظفر بالأعداء وعلو شأن الإسلام، فارتكز على اهتمامه بالموسيقى الداخلية للسجع والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم، والنصر الكريم ..."[2].

الموازنة

عرّف ابن الأثير الموازنة أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن"[3].

وهذا النوع هو أخو السجع في المعادلة دون المماثلة، لأن في السجع اعتدالاً وزيادة على الاعتدال، أما الموازنة ففيها الاعتدال، ولا تماثل في فواصلها. يقول "أن كل سجع موازنة، وليس كل موازنة سجعاً"[4].

وعرفها كذلك ابن أبي الأصبع "أن تأتي الجملة من الكلام، متزن الكلمات، وتعادل اللفظات في التسجيع والتجزئة معاً في الغالب"[5].

---

[1]) د. عمر موسى باشا،الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، المكتبة العباسية، ط٢، دمشق، ١٩٧٢م، ص٧٨٦.

[2])انظر: صبح الأعشى، ٥١٨/٦.

[3]) المثل السائر، ٢٩١/١.

[4])المصدر نفسه، ٢٩١/١.

[5]) تحرير التحبير، ص٣٨٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

واتفاق ابن الأثير وابن أبي الأصبع في حد الموازنة، جعلهما يضعان الموازنة مماثلاً للسجع، أما القزويني فقد اختلف في حد الموازنة معهما، حيث أنه عدّ الموازنة أن تكون الفاصلتان متساويتان في الوزن دون التقفية"[1].

فالناظر في رسائل العصر الأيوبي يجد في بعض الرسائل سيادة الموازنة، ومن الرسائل السياسية التي حفلت بالزينة البديعية، هذا التقليد الذي كتبه ضياء بن الأثير لمنصب الحسبة، قائلاً: "**ومن أهم ما نقرر بناءه، ونقدم عناءه، ونصلح به الزمن وأبناءه .. واعلم أن الناس قد أماتوا سنناً وأحيوا بدعاً، وتفرقوا فيما أحدثوه من المنكرات شيعاً، وأظلم منهم من أقرهم على أمرهم، ولم يأخذهم بقوارع زجرهم..**" [2].

فالكاتب يبين هنا أهمية الحسبة في إقامة الشريعة الإسلامية، وإعادة ما اندثر من السنن بين الناس، وقد زين أسلوبه ببعض المحسنات البديعية التي أضفت على النص رونقاً جمالياً منها الموازنة (**بدَعا، شيعا**) هذا التشابه ليس سجعاً ولا جناساً وإنما هو موازنة لأن العبارات تتوازن في أحرفها وحركاتها ضمن أبعاد متساوية، مما يساعد على انسجام الكلم، وعلى تآلف الفواصل الصوتية.

وفي كتاب آخر للعماد الأصبهاني يصف فيه فتح حصن برزيه، قائلاً: "**أن هذه البشرى بما أجده الله من الفتح العزيز، والنصر الوجيز، بفتح حصن برزية الذي برزت له الأرض في قشب أثوابها، وتفتحت له السماء لتنزل الملائكة من أبوابها، بل سفرت به عرائس الأيام في حلى أيا منها، وأشرقت منه أقمار الليالي في أنوار محاسنها**"[3].

---

[1]) الإيضاح في علوم البلاغة، ص٣٢٨.

[2]) المثل السائل، ٢/٣٧٠.

[3]) الفتح القسي، ص٢٥٢-٢٥٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لقد اتكأ العماد في نصه هذا على محسنات لفظية منها الموازنة (**الوجيز، العزيز**) (**أيا منها ومحاسنها**) (**وأثوابها وأبوابها**) ليعطي رونقاً جمالياً للنص بتوافق الفواصل، وتحقق الموازنة الرنين الموسيقي، وهذه الألفاظ تعيد إلى ذهن القارئ الصورة اللفظية نفسها مع اختلاف الدلالة، عندئذ تكون الفائدة أعم وأشمل من حيث لا يدري، لذلك أشار الجرجاني إلى هذا المعنى بقوله "لا يحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً"[1] فهذه الألفاظ قد أوجدت تناسباً إيقاعياً بين التراكيب بسبب تنوع الفاصلة واختيار الأحرف المناسبة. ويمكن القول بأن المحسنات البديعية كان يستخدمها الكتاب لخدمة النص وتزيينه دون تتبع أو تكلف يكون على حساب المعنى.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

[1]) أسرار البلاغة، ص١٠.

المبحث الخامس: الإيجاز والإطناب

يعدُّ الإيجاز من أساليب التعبير المهمة، وقد كان العرب يميلون إليه ويفضلونه على الكلام المسهب، ويعدونه البلاغة، لذلك اهتم النقاد والبلاغيون بأسلوب الإيجاز، ووضعوا له حدوداً وأقساماً لا مجال لذكرها، ولكن أسلوب الرسائل يحتاج إلى الإطناب كحاجته إلى الإيجاز، وقد لوحظ إعجابهم بالإيجاز حتى جعلوه قرينة على البلاغة"[1]. ولقد مال النثر في هذا العصر إلى الإطناب تارة والإيجاز تارة أخرى، فقد احتاجت بعض ألوان الرسائل إلى الإطناب كالرسائل السياسية والحربية -كما سنرى- وبعض الرسائل الإخوانية، وإلى الإيجاز في البعض الآخر من الرسائل الإخوانية كتهنئة بمولود، أو تهنئة بحج أو تشوق أو تعزيه.

فالكتّاب في هذا العصر يؤدون أغراضهم في عبارات موجزة إذا ما استدعى المقام الإيجاز، ويؤدونها بعبارات طويلة إذا ما استدعى المقام الإطناب، من هنا يمكن القول بأن طبيعة الموضوع الذي يؤديه الكاتب هو الذي يفرض عليه إما الإيجاز أو الإطناب.

قال ان قتيبه في حديثه عن الإيجاز "وهذا ليس بمحمود في كل موضع، ولا بمختار في كل كتاب بل لكل مقام مقال، ولو كان الإيجاز محموداً في كل الأحوال لجردّه الله تعالى في القرآن، ولم يفعل الله ذلك، ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرر تارة للإفهام[1].

وقال أبو هلال العسكري "والقول القصد أن الإيجاز والإطناب يُحتاجُ إليهما في جميع الكلام وكل نوع منه، ولكل واحدٍ منهما موضع فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة

---

[1]) انظر: البيان والتبيين، ٢/٧-١٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إلى الإطناب في مكانه، فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ"[٢].

وقد بين الكلاعي مواطن الإسهاب والإيجاز فقال "فموطن الإطناب ما يكتب به إلى عامة، وتقرع به آذان جماعة، كالصلح بين العشائر، والتحضيض على الحرب، والتحذير من المعصية، والترغيب في الطاعة وغير ذلك مما له بال، فحينئذٍ يجب على الكاتب أن يبدئ، ويعيد، ويُحَذِّر بالتكرير، وينذر بالترديد، ولتكون رقى مواعظه أولج في المسامع، وحجته أظهر على مختلفي الأفهام والطبائع"[٣] أما الإيجاز فرأى الكلاعي أن له مواطن أخرى تختلف عن مواطن الإطناب فقال "أما الإيجاز فيخاطب به أهل الرتب العالية، والهمم السامية، لأن الوجيز عند هذه الطائفة أنفق من الإطالة والإشارة لديهم انجح من تطويل المقالة، وما ذاك إلا لبعد هممهم، وتفسُّح خواطرهم .. والأصل في ذلك التخفيف عن أهل الممالك لأن قراءة الكتب وسماعها كلفة والواجب تخفيف الكُلَف عن الأكابر والملوك"[٤].وقد ذكر الخليل بن أحمد الإيجاز والاختصار بقوله "يطول الكلام ويكثر؛ ليُفْهَم ويُوجز ويُختَصَر؛ ليُحفَظ، وتُستَحبُ الإطالة عند الأعذار، والأنذار، والترهيب والإصلاح بين القبائل"[٥].

---

[١]) أدب الكاتب، ص١٩.

[٢]) الصناعتين، ص٢٠٩.

انظر: المثل السائر، ص٢/٢٥٨.

[٣]) أحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس، لأبي القاسم محمد عبد الغفور الكلاعي الأشبيلي، تح د. محمد رضوان الداية، عالم الكتب، ط٢، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص٩٨.

[٤]) المصدر نفسه، ص٩٨-٩٩.

[٥]) العمدة، ١/١٨٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما ابن الأثير أحد كبار كتّاب هذا العصر، فقد تحدث عن الإيجاز والإطناب وقد قسم الإيجاز إلى أقسام مختلفة كما ذكرت سابقاً -لا مجال لذكرها-ولكني سأبين رأيه في اختيار الألفاظ؛ فاختيار الألفاظ عنده قد جعلها غير متوقفة على فهم العامة مبيناً السبب في ذلك بقوله "إنّ فهم العامة ليس شرطاً معتبراً في اختيار الكلام، لأنه لو كان شرطاً لوجب على قياسه أن يستعمل في الكلام الألفاظ العامية المبتذلة عندهم ليكون ذلك أقرب إلى فهمهم"[1].

ومن يتأمل الرسائل الفنية في العصر الأيوبي، يلاحظ أن الموضوع هو الذي يفرض نفسه على أسلوب الكاتب من حيث الإيجاز أو الإطناب.

فنرى الكتب الصادرة من العمال إلى الأمراء ومن فوقهم تمتاز بالإطناب حتى يبلغ فيه غاية الشفاء والإقناع.

فمن ذلك كتاب كتبه ابن الأثير عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى ديوان الخلافة ببغداد يتضمن فتح بيت المقدس، يقول فيه "**خلّد الله سلطان الديوان العزيز النبوي، وجعل أيام دولته أتراباً، ومناقب مجدها هضاباً، وزادها على مرور الأيام شباباً، وأوسعها توشيةً وإذهاباً، إذا أوسع غيرها تلاشياً وذهاباً، ومنحها في الدنيا والآخرة عطاء وفاقاً لا عطاءً حساباً، ومثل جدودها في عيون الأعداء شيئاً عُجاباً، وأراهم منها وراءهم في اليقظة إرهاباً وإرعاباً ..**" [2].

هذا الكتاب يصور فتح بيت المقدس بأسلوب يتمثل في صياغته بالتطويل والإسهاب، لما للموضوع من أهمية في نفس الكاتب من جهة وفي نفوس المسلمين جميعاً من جهة أخرى، فرسم لوحات حربية في النص تصف الجيوش الإسلامية في صراعها مع الفرنج، وتعرض كذلك في كتابه إلى الخطط الحربية، وأوضاع الجند، والأسلحة المستخدمة في الحرب، حتى أنه يدخل إلى أدق التفاصيل في وصف هذه الحرب.

---

[1]) المثل السائر، ٢/٢٥٨.

[2]) راجع الكتاب في: المثل السائر، ٢/٢٩٣-٣٠١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومنه كذلك كتاب كتبه القاضي الفاضل في فتح بلد من بلاد النوبة، وقد أطـــال فيـــه حيث ابتدأ الكتاب بثلاث آيات من القرآن الكريم ثم قال" **وصلاة يتبعـــها تســـليم، وكـــأس يمزجها تسنيم، وذكر من الله سبحانه في الملأ الأعلى رحمة الله وبركاته، ومعلومة مـــن النشأة الأولى على مولانا الإمام "المستضيء بالله" المستضاء بأنواره، المستضاف بـداره، الداعي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، الراعي للخلق كما يرعى النســيم النســيم، العـــامُ فضله التام عدله المطروق مورد فنائه..**" [1].

تأمل هذا الكتاب تجد أن الإطناب سمة بارزة على مقدمته خاصة وموضوعه بشكل عـــام، من هنا تكون الكتب الصادرة عن السلاطين في الفتوح في هذا العصر غالبـــاً مـــا تمتـــاز بالإطناب دون الإيجاز.

أما الرسائل الإخوانية، فمن اللافت للنظر أنها غالباً ما تمتاز بالإيجاز، لأن ذلك قـــد يبعث الملل والإبرام والتثقيل، وقد يؤدي الإكثار أو التطويل إلى الإضجار والإبـــرام مـــن المُرْسَل إليه.

فمن ذلك كتاب تعزية كتبه القاضي الفاضل يقول "**أعاذ الله المجلس من كل عـــرض ومرض، وانهض عزماته بما سنّ وفرض، وشد عزائم صبره عن كل من درج وانقـوض، وصان عن المكاره قلبه وسمعه، وحماه عن أن يسفح على أثر الأحبـــة دمعـــه، وآنـــس باعتراض التهاني لا بأعراض التعازي محلّه وربعه، وحفظ عليه ذخائر علمـــه، وأجنـــاه ثمرة معرفته بالأيام وحلمه ...**"[2].

---

[1]) راجع الكتاب في: صبح الأعشى، ٥٠٦/٦-٥١١.

[2]) راجع الكتاب في: الدر النظيم، ص٥٢-٥٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

انظر هذا الكتاب ترى أنه يمتاز بالإيجاز وذلك لأن مخاطبة الكاتب لأهل الميت تكون مختصرة ومقتضبة بسبب الحالة والظروف السائدة عند كتابته من جهة ومخاطبته له لفئة محدودة من الناس في مناسبة خاصة من جهة أخرى.

ومن ذلك أيضاً كتاب كتبه ابن الأثير عن نفسه يتضمن تهنئة بمولود يقول: "**أصدر هذه الخدمة إلى الجناب الشريف، وقد جاءت البشرى بفرع نمى من نجره، ولؤلؤة خرجت من بحره، فعبقت الأسماع بهذا الخبر الأريج، واهتزت له الآمال وربت وانبتت من كل زوج بهيج، واستدل الناس بطيب الأصل على طيب الثمر، تفرسوا ما تفرسوا في الهلال بن القمر ...**"[1].

ومن يقرأ الرسائل الإخوانية، غالباً ما يجد أنها تمتاز بالإيجاز والرسائل الديوانية كذلك غالباً ما تمتاز بالإطناب[2].

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

[1]) ديوان رسائل ابن الأثير: ص٩٦-٩٧ (تحقيق نوري القيسي).

[2]) راجع مثلاً: ديوان رسائل ابن الأثير، ص٧٥-١٠٣.
راجع مثلاً: الدر النظيم، ٨-١٥، ٤٢-٦٥.

المبحث السادس: العاطفـة

يقصد بالعاطفة "انفعال شديد ينزع بصاحبه إلى ميل نحو أمر من الأمور ملك عليـــه منافذ حسه فلا يستطيع الانفلات منه ولا التخلي عنه"[1].

وتعد العاطفة عنصراً مهماً في التجارب الأدبية تتوهج بها الألفاظ لتحرك العواطـــف وتدعو إلى الإعجاب في نفس المتلقي ما دامت هذه الألفاظ تثير الانفعال في نفس الأديـــب فيفرغها في قوالب لغوية بشكل أدبي معين بما يختاره أو يرضاه لنفسه وتتجلى فيه القـــوة والجدة والتأثير بالمتلقي.

فقوة العاطفة واستمرارها منذ البداية إلى النهاية يُعدُّ مقياساً لتأثيرها في النفس، وحتـى تؤثر في النفس لا بد لها من الاختلاط بالقلب، والمساس بشغافه.

والقارئ يعدّ كذلك من مقاييس العاطفة، ذلك راجع إلى تذوقه للنص المكتـوب، ومـا يثيره فيه من مشاعر وأحاسيس وانفعالات.

لذلك يمكن القول بأن مقاييس العاطفة في النقد تتمثل في القوة، والصـدق، والتنـوع، والثبات.

أما صدق العاطفة فلا بد أن يكون الأديب متأثراً بالبواعث التي تنشـأ مـن خلالـها العاطفة، فاسترجاع بيت المقدس مثلاً، يكون تأثر الأديب تأثراً حقيقياً لا مصطنعاً وزائفاً.

لذلك كانت الرسائل الإخوانية في العصر الأيوبي -غالباً- ما تتسم بقـــوة النبضـات الشعورية وصدق العاطفة والأحاسيس وعمق التجارب الانفعاليـــة والبعـد عـن الزيـف والتملق، وكما أنها اتسمت ببراعة التصوير وخصوبة الأخيلة أما الرسائل الديوانية فيمكـن

---

[1]) د. رشيد العبيدي، دراسات في النقد الأدبي، مطبعة المعارف، ط١، بغداد، ١٩٦٨-١٩٦٩م، ص١٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

القول أن العاطفة فيها قد اختلفت حسب موضوعاتها فنرى الرسائل السياسية قد مالت إلى فتور العاطفة، وذلك راجع إلى أن الكاتب يكون مقيداً بالأوامر السلطانية تمشياً مع مركزه كرئيس لديوان الرسائل أو ديوان الكتابة.

أما الرسائل الحربية -غالباً- ما كانت تمتاز بصدق العاطفة وقوتها، لأن موضوعها يتعلق في إثارة الشعور ومشاعر الناس والحكام كرسائل البشرى بالفتح أو الاستنجاد، فكانت تشيع فيها روح الكاتب وأحاسيسه ومشاعره، فكانت لها الأثر العميق في التجاوب معها والتأثر بها.

لذا، أستطيع القول أن تأثر الكاتب بغرض الرسالة يجعلها ذات عاطفة قوية وذات معنى، لأنه يبعث بعاطفته الحيوية والقوة للرسالة. وعكس ذلك يجعل الرسالة جافة وغير ذات معنى، لإنها تخاطب العقل وحده دون الوصول إلى مشاعر المتلقي وأحاسيسه.

واستعمال الخيال في الكلام يعد أشد تأثيراً في النفس من الكلام الذي يكون كله حقائق، لذا قال ابن رشيق "المجاز أبلغ من الحقيقة، ورأوه أحسن موقعاً في القلوب والأسماع"[1].

ومن ينظر إلى رسائل العصر الأيوبي، يجد عاطفة قوية وحيّة نتيجة انفعالات الكتاب بما يكتبون، مردهم في ذلك إلى الأوضاع السياسية السائدة في هذا العصر، من مقاومة للجيوش الصليبية، والحث على الجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى شحذ الهمم للذود عن حمى المسلمين ونصرة دين الله فضلاً عن التهنئة بالانتصارات التي تحققها الجيوش الإسلامية، وما ينبع من فرحة وسرور وبهجة من هذه الانتصارات وما يعتريه من شعور وانفعال كمسلم يقف إلى جانب المسلمين بقلمه وفكره ضد استعمار المقدسات وأراضي المسلمين.

---

[1]) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح / محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع، ط٥، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م، ج١، ص٢٦٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فمن ذلك ما كتبه العماد الأصبهاني في حث الناس على الجهاد، واستنهاض همم المسلمين، ويبين الأخطار المحدقة بالعالم الإسلامي من احتلال أراضي المسلمين ومقدساتهم، وتهويل أمر هؤلاء الفرنج، ويلهب عزماتهم، وبيان أثر الجهاد وثوابه، كل ذلك وسط عاطفة قوية جياشة ذات تأثير قوي في نفس المتلقي ذلك لتأثره بالموضوع، حيث يقول "قد أحاط العلم بما عرا من المَلم، وعرض من الخطْب المدلهم، ووصل من العدو الثائر، ونزل من النازلة التي هي أم النوازل، والدائرة التي هي أم الدوائر، وقد آن للإسلام أنْ يُسلم، وللإيمان أن يعدم وللتثليث أن يُعلن، وللتوحيد أن يُكتم، وللكفر أن يقدم وللهدى ان يحجم.

فقد قذف البحر من الفرنج بزبده، والبر أتى أتيّه من كلّ بلد للكفر بسبده ولبده، ووصل الألماني -المخذول- بعدده وعُدده. وهذا خطب قد دهم، وعدو قد هجم، وشرقد نجم، وجمرداهية قد وقد، وجمع طاغية قد وفد .. وهذا أوان تحرك ذوي الحمية، ونهوض أهل الهمم الأبية العلية فإن القوم في كثرة ولا يقاتلون إلاّ بالكثرة .. فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين؛ وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين، وأين المسلمون؟ وحاشا أن يكون للإسلام مسلمين! وأين المُقْدِمونَ في الدين؟ ومعاذ الله أن لا يكونوا في نصرته على الموت مقدمين![1]

تأمل النص تجد أن الأصبهاني قسم الرسالة إلى ثلاثة أقسام، أما الأول فشرح فيه مخاطر وآثار هذا العدوان الذي سيكون أكبر نازلة على المسلمين والدين الإسلامي من زوال وانطماس إذا ما كُتِبَتْ الغلبة للفرنج، أما الثاني فيتبع الأول بالتهويل والوعيد من هذا

---

[1]) الفتح القسي، ص٤٠١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الجيش الصليبي والذي وصفه بزبد البحر لكثرته ثم انتقل إلى القسم الثالث وهو الحث على الجهاد ضد هؤلاء الأعداء، الذين إذا ما تقاعسوا عنه فسوف تنزل الويلات والعواقب الخطيرة المؤلمة لقلب كل مسلم، لأن الأمر يتعلق بأهم شيء في حياة المسلم الحق وهو دينه ومعتقده.

فالعاطفة كانت قوية وجياشة لأن الأصبهاني قد خاطب القلوب قبل العقول وذلك لبث الشعور الديني لدى الناس، ومما أثار الشعور كذلك استخدام الكاتب لبعض الألفاظ والعبارات والأساليب البلاغية كالطباق والجناس وما إلى ذلك، كل ذلك يبعث على إثارة الشعور الديني لدى المسلم **(وقد آن للإسلام أن يسلم، وللإيمان أن يُغدم، وللتثليث أن يُعلن، وللتوحيد أن يُكتم)**.

فهذه العبارات وغيرها ذات التأثير النفسي على القارئ، التي لها الأثر العميق لضرورة الاستعداد لمواجهة هذا الخطر المدلهم بالأمة الإسلامية.

وعاطفة الأصبهاني من خلال النص نراها قد سارت على وتيرة واحدة ولم تخبُ على مدار الكتاب بأكمله، بل بقيت تتصاعد إلى أن وصلت درجة الانصهار في عاطفته.

أما رسائل التهنئة بالانتصارات، فنرى أن الكتّاب يُضمّنون رسائلهم عاطفة جياشة مفعمة بالحبور والسرور والبهجة، لأن الانتصارات التي أحرزها الجيش الإسلامي تشفي غليل المسلم، وتعمل على بعث الحياة الدافقة في قلوبهم. وأكثر ما تكون العاطفة قوية في التهنئة بفتح بيت المقدس، لما له من مكانة خاصة في نفوس المسلمين، وهذا لا يعني فتور العاطفة بالنسبة للانتصارات الأخرى، فمن ذلك كتاب كتبه ابن الأثير يقول فيه "...**وهذا الكتاب أول بشرى وردت على مولانا بفريسة شبله، وأنه وقف بموقفه، وضرب بنصله،**

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد سبق إلى العلم الكريم أنه شحذ عزمه، وراش سهمه، ووطأ أرض العدو وطاة بكـــرا، وقاد إليها المنايا سودا وحمرا .. وخرمها وهدّمها، ورماها بأسود على عقبان، وجلامـــد في عذران، من كل شهم يُجَرِّدُ من قلبه ما يجرده من غضبه، ويسدد من جنانه ما يســدده من سنانه... فخاضوا الأرض يمشون بنجوم صعاد في سماء صعيد، ويعتصمون بـــدروع صبر لا دروع حديد .. وقد فاز المسلمون بالنصر المبتكر، وانقلبوا بحسن الذكر وحســـن الأثر .." [1] وهذه الرسالة كغيرها من الرسائل التي تقوم على التهنئة بالانتصـــارات، فقـد ذكر فيها ابن الأثر وصفاً شاملاً لأطراف الحرب، والملاحظـــة فـــي المواقـــف الحاســـمة والرصد والتيقظ للأعداء، وكذلك محاولة استلهام الأحداث التاريخية الكبـــيرة، أمـــا وقـــد تحققت الانتصارات فتلك هي أمانيهم، فقد كان لهذا الحديث الأثر الأكبر في نفـــس الكـــاتب أولاً ونفوس المسلمين ثانياً، فجاءت تعبيراته متدفقة بالعاطفة الصادقـــة العـــامرة بالفرحـــة والسرور وذلك باستخدام بعض الأحداث التاريخيـــة كمعركـــة بـــدر الكـــبرى وانتصـــار المسلمين، أما هذا الانتصار فعده الكاتب بمثابة معركة بدر الصغـــرى الـــذي رفـــع رايـــة الإسلام خفاقة عالية، وانهزام جيوش الكفر ودحضهم، وهذا ما جعل البسمة مرسومة علـــى شفاه المسلمين التي تفوح بالعطر الشذي.

فالحديث عن الرسائل الديوانية لا تنتهي بل يطول إذا ما أردنـــا تتبـــع كـــل رســـالة بمعزلها.

وللرسائل الإخوانية حظ وافر في نشوء العاطفة لما لها من تأثير بانفعالات وأحاسـيس الإنسان، فمن ذلك ما كتبه القاضي الفاضل في كتاب تشوق ووحشه يقول فيه:

---

[1]) ديوان رسائل ابن الأثير، ص٦٥-٦٦ (تح نوري القيسي).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

"لا تَحْسَبَنَ البعدَ غيَّرَني والبعْد غيرُ مغيِّر عهدَي

فإذا الّذي حَسُنَتْ مَوَدّتَه بالقربِ ضاعَفها على البُعْدِ

هذه المكاتبة صادرة إلى حضرة مولاي معربة عن أشواقه، وعظيم أتواقـــه، ومـــا يعانيه من الرجاء لقرب مشاهدته، وبهيج طلعته .. وكان عاجزاً قاصراً عمّا في النفـــس، فاستغنى بجملته عن التفصيل فقال طالباً لشفاء الغليل:

أيّها الرّاحلونَ عنّي وبِحدو في مطاياهُمُ بقلبيَ حادِي

بنتُمْ بالفؤادِ، والأنسِ، والرّاحةِ، والصّبرِ، والمنى، والرُّقادِ

طِيبُ عيشي فارقتُهُ يوم فارقتُمْ، فهل كنتُـــمُ على ميعادِ

قد سلبتُمْ من الفؤادِ سويداهُ، وكُنتُم من ناظري في السَّوادِ

فأعيدُوا إلى فؤادِي مَنْ غابَ: من الأنسِ، أو أعيدُوا رُقادِي[1]

المتأمل لهذا الكتاب يرى أن عاطفة الفاضل تجيش بالمحبة والشوق والحنين لصديقـــه الذي ابتعد عنه، هذا الشعور الذي يعانيه من البعد، جعله يفقد حلاوة عيشه وأنسه، وعودتـــه إليه يعيد إليه البسمة والحياة من جديد.

هذه اللوحة الجميلة التي رسمها القاضي الفاضل، إنما تبرز عاطفة ملؤهـــا المحبـــة والتفاؤل بعودته إلى حياته وذلك بعودة صديقه، تلك الأمنية والحلم الذي كان يحلم بهما بعـد الفراق ، ويأمل أن تتحقق هذه الأمنية.

تلك بعض الكتب والرسائل التي تُعبّر عن عاطفة الكتّاب في كتبهم والتي استشـــهدت بـــها على سبيل الأمثلة فقط.

---

[1]) الدر النظيم، ص٦٠-٦١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الرابع

البنية الفنية لمضمون الرسائل الأيوبية

المبحث الأول: الاقتباس من القرآن الكريم والاقتباس من الحديث الشريف

أ- الاقتباس من القرآن الكريم.

ب- الاقتباس من الحديث النبوي الشريف

المبحث الثالث: التضمين من الموروث الشعري

المبحث الرابع: الوضوح والغموض

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كان من الجوانب الظاهرة في أدب العصر الأيوبي بشكل عام، ونتيجة للدعوات المستمرة والمتتابعة من الخطباء والكتّاب والشعراء لشحذ همم الأمة الإسلامية وقادتها لتحرير الأراضي المغتصبة من أيدي الصليبيين وطردهم من بلاد المسلمين، وتلبية نداء الجهاد في سبيل الله، أن عمل أهل الأدب كل ضمن مجاله على إيقاظ الحس الديني لدى الناس، وذلك بإنارة نتاجاتهم بنور القرآن الكريم، وأسلوبه البديع، وبلاغته وجمال التعبير.

ولكي نتلمس هذا الأثر وأبعاده، علينا بداية توضيح أسلوب الأدباء في كيفية إثارة وإيقاظ الحس الديني.

المبحث الأول: الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف

أ- الاقتباس من القرآن الكريم:

لا شك في أن الاقتباس من القرآن الكريم له الأثر الأكبر في ترسيخ المعاني المعروضة في الرسائل، مما جعلها تسمو إلى المراتب العليا من حيث الجزالة والفخامة والرونق، لذلك أشار ابن الأثير "بأنه من فوائد حفظ القرآن والأحاديث النبوية لتضمين كلامه بالآيات في أماكنها اللائقة بها ومواضعها المناسبة لها، ولا شبهة فيما يصير الكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق"[1] وكان الاقتباس يساعدهم على توليد المعاني في أفكارهم، ودعم حججهم بالبراهين والأدلة، وقطع النزاع، وإذعان الخصم، فذكر القلقشندي عن حسن التوسل فقال "ومن شرف الاستشهاد بالقرآن الكريم، إقامة الحجة، وقطع النزاع،

---

[1]) المثل السائر، ٦١/١، صبح الأعشى، ١٩١/١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وإذعان الخصم .. وأيضاً فإن الآية الواحدة تقوم في بلوغ الغرض، وتوفيه المقاصد، ما لا تقوم به الكتب المطولة، والأدلة القاطعة"[1].

ويظهر أن الكتّاب تنبهوا إلى أن القرآن الكريم والحديث الشريف مصدران مهمان في إثراء تجاربهم والتعبير عن رؤاهم المختلفة، لذا اتجه هؤلاء الكتّاب إليهما ينهلون من معانيهما وراحوا يعملون على اقتباس الآيات والأحاديث الشريفة تأكيداً لمعنى، أو رفضاً لمقولة، أو نفياً لمعتقد .. الخ.

"وينظر إلى الاقتباس على أنه شكل من أشكال تداخل النصوص، واستلهام التراث وامتصاص له وتفاعل معه .. والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف يمثلان مظهراً من مظاهر تعامل الكتّاب مع التراث الديني، ويوضح هذا التعامل موقف الكتّاب إزاء القرآن بوصفه مصدراً من مصادر البلاغة المتميزة، ومنهلاً عذباً يردونه ويغذون عقولهم وأرواحهم منه، ويفيدون منه في بلورة مواقفهم ووجهات نظرهم"[2]. وقد عدّ عبد القادر الرباعي بأن الموروث الديني هو أهم المصادر الممولة للصورة النفسية وأعظم مصدر للصورة النفسية لأنه يمس أصفى المشاعر وأرقها وأطهرها وأبسطها وهو يخفي وراءه دائماً قوة عزيزة مهيبة ترتفع فوق كل القوى البشرية وغير البشرية هي قوة الله.."[3].

---

[1]) صبح الأعشى، ١٩١/١، حسن التوسل، ص٧٥/٧٦.

[2]) د. تركي المغيض، التناص في معارضات البارودي، مجلة أبحاث اليرموك، العدد الثاني، ١٩٩١م، ص١١٨.

[3]) د. عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في شعر أبي تمام، إربد -- الأردن، ١٩٨٠، ص١٥٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الاقتباس لغة واصطلاحا

الاقتباس لغة: مصدر اقتبس إذا أخذ من معظم النار شيئا.

الاقتباس اصطلاحا: فجمهور البلاغيين يحدونه على أنه تضمين النظم أو النثر بعض القرآن لا على أنه منه، بأن لا يقال فيه: قال الله أو نحوه، فإن ذلك حينئذ لا يكون اقتباسا"[1].

وعرفه شهاب الدين الحلبي بقوله أن يضمن الكلام شيئا من القرآن والحديث ولا ينبه عليه للعلم به"[2].

ألا أن صاحب صبح الأعشى قسمه إلى قسمين:

الأول: يجوز التنبيه عليه.

الثاني: لا يجوز التنبيه عليه[3].

فالغالب في الرسائل الأيوبية أن الكتاب لا ينبهون عليه.

ويبدو أن بعض البلاغيين والنقاد قد أدخلوا الاقتباس ضمن مفهوم التضمين، وذلك لأن التضمين يشمل الأخذ من القرآن الكريم والحديث الشريف، ويتعداهما إلى الشعر وغيره.

---

[1]) د. أحمد مطلوب ورفيقه، البلاغة والتطبيق، وزارة التعلم العالي والبحث العلمي، ط٢، بغداد، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، ص٤٥٧. جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ج١، بيروت، لبنان، ١٩٨٧، ص ٣١٤.

[2]) حسن التوسل، ص٣٢٣.

[3]) انظر: صبح الأعشى، ص١٩٤-١٩٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الاقتباس بين الجواز والمنع

لقد اختلف الفقهاء حول الاقتباس من القرآن الكريم، فمنهم من اتخذ موقف عدم الإجازة على إطلاقه، ولم يفسحوا المجال دون ضوابط أو قيود، حتى لا تسول نفس بعض الكتّاب والشعراء إلى اختلاق آيات من بناة أفكارهم، فمذهب المالكية حرّمه وشددّ نتكيره على فاعله"[1].

ومن الفقهاء من أجازه مثل الشيخ عز الدين بن عبد السلام، واستشهد على ذلك بقول الرسول صلى الله عليه وسلم "اللهم فالق الأصباح، وجاعل الليل سكنا، والشمس والقمر حسباناً، أقض عني ديني واعتقني من الفقر" وحديث أبي بكر "وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون"[2].

إذن، فالذين لم يجيزوا الاقتباس كان خوفهم من تحريف للقرآن الكريم وآياته، وتحويلها إلى معان منحرفة تتعارض مع قيم الإسلام ومبادئه، كقول أحدهم:

قَالتْ وَقدْ أُعرضتْ عن غشْيانها يا جاهلاً في حُمقهِ يتناهى

إنْ كانَ لا يُرضيكَ مِني قُبلَةٌ لأوليّنك قِبلَةً ترضاها[3]

فاقتبس الشاعر في الشطر الثاني من البيت الثاني بعضاً من الآية الكريمة قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولنيك قبلة ترضاها"[4] ووظفها في مكان لا يليق بها من معاني

---

[1]) البلاغة والتطبيق، ص٤٥٧. علي صدر الدين بن معصوم المدني، أنوار الربيع، تح/ شاكر هادي شكر، مكتبة العرفان، كربلاء، العراق، ١٩٦٨م، ج٢، ص٢١٧.

[2]) صبح الأعشى، ١٩٠/١. البلاغة والتطبيق، ص٤٥٧، الإتقان في علوم القران،. ٣١٤/١.

[3]) أنوار الربيع، ٢١٨/٢.

[4]) سورة البقرة: الآية ١٤٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الغزل الفاحش، مثل هذا الاقتباس واشباهه حرمه العلماء وشددوا التنكير فيه. فالورع هو الأساس في التضمين وتنزيه كلام الله تعالى ورسوله عن مثل هذه المواضيع التي لا تليق بهما.

أما الاقتباس الحسن والذي يوضع لمعان فاضلة، ومقاصد حسنة تسير وفق منهج سليم لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية، وعدم الاستخفاف بهذه المعاني، ومن ذلك ما ذكره السيوطي في إتقانه، قال قائل:

يا مَنْ عَدَا ثم اعْتَدى ثم اقْتَرفْ ثُم انتهى ثم ارْعَوى ثُم اعْتَرفْ

أبشر يَقُولُ في آياتِهِ إنْ يَنْتَهوا يَغْفِرْ لَهمْ ما قَدْ سَلَفْ[1]

وقد أشار أبو هلال العسكري إلى المكان المناسب لاستخدام الآيات القرآنية، وذلك بقوله "في الأمور الجليلة للترصيع والتحلية، والاستشهاد للمعاني على ما يقع في موقعه، ويليق بالمكان الذي يوقع فيه ولكنه يذهب إلى الاستكثار منه حتى يكون غالباً على الكلام.[2]

وقال النويري "واعلم أنه لا يجوز في الرسائل استعمال ما أتت به آي القران من الاختصار والحذف، ومخاطبة الخاص بالعام والعام بالخاص، لان الله تعالى خاطب بالقرآن أقواماً فصحاء فهموا عنه - جل ثناؤه - أمره ونهيه ومراده، والرسائل إنما يخاطب فيهم قومٌ دخلاء على اللغة" [3]

---

[1]) الإتقان في علوم القران، ٣١٥/١.

[2]) الصناعتين، ص٢١٠.

[3]) نهاية الأرب، ١٨٦/٧- ١٨٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

من هنا قد يكون اقتباس الآيات القرآنية على جهة التبرك بقول الله تعالى والزينة، ولا اعتقد أن يكون لحشو الكلام.

أقسام الاقتباس:

يمكن تقسيم الاقتباس إلى ثلاثة أقسام:

١.محمود مقبول، وهو ما كان في الخطب والمواعظ والعهود، ومدح الرسول عليه السلام ونحو ذلك.

٢.مباح مبذول، وهو ما كان في الرسائل والغزل والقصص.

٣.مردود مرذول، وهو على نوعين. أحدهما ما نسبه الله تعالى إلى نفسه - والعياذ بالله - كما روي عن أحد الولاة أنه وقّع على مطالعة فيها شكاية من عماله " إنّ إلينا إيابهم ثم ان علينا حسابهم". ثانيهما تضمين آية كريمة في معرض هزل أو سخف[١]، كقول القائل:

أوْحى إلى عُشّاقِهِ طُرْفَةُ [هيهاتَ هيهاتَ لِمَا تُوعَدون]

ورِدْفِهِ يَنْطِقُ مِنْ خَلْفِهِ [لِمِثْلِ ذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُون][٢]

والاقتباس يختلف من كاتب لاخر، فكلما اكثر الكاتب من الاستشهاد بالقران الكريم دلّ ذلك على تمكن الكاتب من كتاب الله، وبراعته في اختيار الآيات المناسبة، لذلك كان من مميزات الكاتب حفظ القدر الأكبر من القرآن إن لم يكن جميعه.

---

[١]) البلاغة والتطبيق، ص ٤٥٨. أنوار الربيع، ص٢١٨.

[٢]) الإتقان في علوم القران، ٣١٥/١، انوار الربيع، ٢١٨/٢، الشيخ تقي الدين ابي بكر علي المعروف بابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الارب، دار القاموس الحديث للطباعة والنشر، د. ت، ص٤٤٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد كان لكتّاب الرسائل في العصر الأيوبي نصيب وافر من الاقتباسات في كتبـــــهم، حيث تأثروا ببلاغة القران الكريم وأحاديث الرسول الكريم. ومن خلال دراسة هذه الرسائل يمكن تصنيف طرق الاقتباس أو التضمين بعدة أشكال:

أولا: الاقتباس المباشر:

وهو ما لا ينقل المقتبس فيه عن معناه الأصلي، وهذا يكون اقتباس اية قد تكون كاملة بنصها.

ثانياً: الاقتباس غير المباشر ويكون على اوجه:

١. إيراد بعض ألفاظ الآية القرآنية، دون الالتزام بالصيغة الكاملة.

٢. اقتباس المعنى وذلك بإيراد القصة القرآنية أو الخبر على سبيل المقارنة او التمثيل.

٣. نثر الآية القرآنية بأسلوب لا يشعر القارئ بأنه قرآن، حتى ليظن انه من كلامه، وهـــذا الوجه من الصعب تمييزه من قبل أمي قارئ ما لم يكن عارفاً ومتمكناً من آيات القـرآن الكريم.

٤. محاكاة أسلوب القرآن الكريم، واستعارة عباراته وألفاظه.

ومن خلال النظر في رسائل العصر الأيوبي، نجد أن الكتّـــاب اســـتخدموا الاقتبـــاس المباشر وغير المباشر في رسائلهم، بل في الرسالة الواحدة نجدها تحتـــوي جميـــع اوجـــه الاقتباس.

لذا، من الصعب علينا أن نفصل بين الاقتباس المباشر وغير المباشـــر عنـــد إيـــراد الأمثلة، ولكنني سأورد أمثلة تمثل الاقتباس بشكل عام.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن أمثلة الاقتباس كتاب كتبه القاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين إلى الخليفة المستضيء بالله ببغداد يبشره بفتح بلد من بلاد النوبة والنصرة فيها، مستهلاً هذا الكتاب بآيات من القرآن الكريم تناسب المعنى الذي كتب من أجله الكتاب وهو استرجاع بلد من بلاد المسلمين، قائلاً: "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون". (سلام قولاً من ربّ رحيم[1]) (فروح وريحانٌ وجنّة نعيم[2]) وصلاة يتبعها تسليم، وكأس يمزجها تسنيم. وذكر من الله سبحانه في الملأ الأعلى ورحمة الله وبركاته .. ويسابق بطاعته إلى جنةٍ وصفها الله تعالى بقوله "وجنة عرضها"، يلثم وجه ترابها ... ولا نقلب إليه البصر خاسئاً حسيراً ... وطغى طوفان الطغيان ولا عاصم وسما بناء البهتان ولا هادم، وضاقت الصدور، ورحلت بغليلها إلى القبور، وظُنّ أن طي دولتهم معدوق بالنشور، حتى إذا جلاّها الله لوقتها، وأنجز جموع الضلال إلى ميعاد شتّها، وأراهم آية مَعْدِلَته (وما نُرِيهم مِنْ آية إلاّ هِيَ أكْبَرُ مِنْ أُخْتِها"[3] (وجاء الحقُ وَظَهَر أمْرُ اللهِ وهم كارِهُون[4]" (وحَبِطَ ما صَنَعوا فيها وباطلٌ ما كانُوا يَعْمَلون[5]) ... وكانوا حميّة حامية من بني حام كالجراد أرجلاً، إلاّ أن الله أصلاها بنيرانه، وكالماء مداً إلا أن الله أغرقها بطوفانه، وكالنمل لوناً وطرقاً إلا أن الله حطمها بسليمانه[6]. فالكاتب ينطلق من منطلق إيماني بأن النصر من عند الله سبحانه وتعالى فاقتبس الآيات بطرق مباشرة أو غير مباشرة، وذلك ليجسد ويرسخ هذا المنطلق، وعمل على استحضار الآيات الكريمة التي تناسب السياق والتلاؤم مع المعنى الذي كتب من أجله الكتاب وهو البشرى.

---

[1]) سورة يس: الآية ٥٨.

[2]) سورة الواقعة: الآية ٨٩.

[3]) سورة الزخرف: الآية ٤٨.

[4]) سورة التوبة: الآية ١٨٧.

[5]) سورة هود: الآية١٦.

[6]) انظر الكتاب في صبح الأعشى، ٦/٥٠٦-٥١١، مفرج الكروب، ٣/٢٧٩-٢٨٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويبدو لي أن الآيات المقتبسة من القرآن الكريم أنها ذات مدلول تقابلي، لذلك اقتبسها ليبين ويقابل بين حالتين، قبل الفتح وبعده. ومن الكتب الحربية كتابٌ كتبه العماد الأصبهاني عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الناصر لدين الله ببغداد يبشره بفتح القدس استهل به آيةً من القرآن الكريم قائلاً: **(ولقد كتبنا في الزبور بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد، على نصرته لهذا الدين الحنيف، من قبل ومن بعد وجعل بعد عسر يسرا، وقد أحدث الله بعد ذلك أمراً، وهون الأمر الذي ما كان الإسلام يستطيع عليه صبرا، وخوطب الدين بقوله (ولقد منناً عليك مرة أخرى).. وإلاّ فإن الحروب إنما عقدت سجالا، وإنما جمعت رجالاً، وإنما دعت خفافاً وثقالاً ..** [1]

فالكاتب في كتابه واثق من تحقيق وعد الله بالنصر للمسلمين، ونصرة هذا الدين. فجاءت الاقتباسات متوالية ومتتابعة، يتلو بعضها بعضاً، حتى يؤكد على المعنى الذي أراده من كتابة هذا الذي يدور بمجمله حول ما كان عليه بيت المقدس أثناء الاحتلال الصليبي والحالة التي أصبح عليه بعد النصر.

فجاءت الآيات المقتبسة متآلفه ومتلائمة مع الموضوع، ومتناسقة مع المعنى الذي أراده الكاتب.

ويتابع العماد في كتابه محاولاً رسم صورتين متقابلتين، صورة المسلمين بشكل عام تغمرهم الفرحة والسرور باسترجاع الأرض المقدسة مقابل تلك الصورة المحزنة البائسة، والمهلكة والمدمرة للصليبين، فاقتبس العماد الآية القرآنية التي تجسد هذا المعنى بحركة قوية زاخرة بالقوة والعنف.

---

[1]) راجع الكتاب في صبح الأعشى، ٦/٥١٧-٥٢٠، الروضتين، ٢/٨٩. مفرج الكروب، ٢/٢٣٢-٢٣٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

(والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم، والنصر الكريم، ما يشرح صدور المؤمنين، ويمنح الحبور لكافة المسلمين، ويكرر البشرى بما أنعم الله به- من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخة- وتلك سبع ليالٍ وثمانية سخرها الله على الكفار فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية، ورايتها إلى الإسلام ضاحكة، كما كانت من الكفر باكية"[1].

أما ابن الأثير فله من الرسائل الإدارية، ذلك التقليد الذي أنشأه لمنصب الحسبة، والذي يمكن القول بأن النصائح التي وردت في هذا التقليد ما يتعلق بالتوبة وأهميتها، ودعوة التائبين والمخالفين إلى الاستتابة، فمن خلال الكتاب وُجِّهَ المحتسب إلى العمل على مساعدة هؤلاء على الاستتابة، قائلاً "ونحن نأمرك أن تتصفح أحوال الناس في أمر دينهم الذي هو عصمةُ مالهم، وأمر معاشهم الذي يتميز به حرامهم من حلالهم. فابدأ أولاً بالنظر في العقائد، وأهد فيها إلى سبيل الفرقة الناجية الذي هو سبيل واحد، وتلك الفرقة هي السلف الصالح الذين لزموا مواطن الحق فأقاموا، وقالوا: ربنا الله ثم استقاموا ومن عداهم شعب دانوا أدياناً، وعبدوا من الأهواء أوثاناً، واتبعوا ما يُنَزِّل به الله سلطاناً (ولَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلعرفْتَهُمْ بسيماهم ولتَعْرِفنّهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم[2]) [3].

فاستخدام ابن الأثير الاقتباس في موضع كان بحاجة إلى دليل ليثبت المعنى المراد، لأن الله تعالى قد خاطب الرسول عليه السلام في الآية بأنه لو أراد معرفتهم لعرّفهُ بهم ولكنه سبحانه وتعالى أراد أن يستر على هؤلاء المنافقين، حفاظاً على أقاربهم وكذلك لعلهم

---

[1]) صبح الأعشى، ٦/٥١٨-٥١٩.

٢) سورة محمد: الآية ٣٠.

[3]) المثل السائر، ٢/٣٠١-٣٠٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يتوبون، ولكنك يا محمد سوف تعرفهم من خلال كلامهم وأسلوبهم، لأن كلامهم ظاهره إيمان، وباطنه كفر، وسيجازيهم الله حسب أعمالهم فهذا وعد ووعيد وهذا المعنى الذي أراده التقليد.

ويتابع ابن الأثير في اقتباساته المتوالية قائلاً: "**وقد جعل الله التائب من أحبابه، ووصفه في مواضع كثيرة من كتابه، ومن فضله أن الملائكة يستغفرون لذنبه، ويشفعون له إلى ربه، فإن أبت هذه الطوائف إلا إصراراً ولم يزدهم دعاؤك إلا فراراً، فاعلم أن الله قد طبع على قلوبهم طبعاً، وألحقهم بالذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكره، وكانوا لا يستطيعون سمعاً**"[1].

فابن الأثير يُضمّن في كتابه بعض الآيات القرآنية التي تناسب موضوع التوبة وما جعل الله للتائب من ثواب، حشده هذه الآيات ليؤكد أن التائب سينال الثواب والأجر من الله تعالى، وهذا التضمين غير المباشر نراه سائداً في رسائل ابن الأثير، ويعده أرفع درجات التضمين.

وفي الرسائل الإخوانية فقد كان الكتّاب يُضمّنون رسائلهم الآيات القرآنية بشكل مباشر وغير مباشر، والتي تعبر عن الموضوع الذي كتبت من أجله الرسالة.

ومن الأمثلة على الرسائل الإخوانية، ما كتبه القاضي الفاضل مستفتحاً بآية من القرآن الكريم "**فانقلبوا بنعمة من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوءٌ واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل**

---

[1]) المثل السائر، ٢/٣٠٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

عظيم[1]. الحمد لله الذي ثبت أركان الإســـلام، وأنـار وجـوه الأيـام، وأوجـب نـذور الخدام" . [2]

فالكاتب يدرك تمام الإدراك بأن رجوع الحاج إلى وطنه وأهله، إنما يرجـــع بنعمـة السلامة وفضل الأجر والثواب، ولم ينلهم مكروه أثناء تأدية الحـــج، فضـلاً عـن أنـهم سينالون رضا الله والسعادة في الدارين، وهذا إحسان من الله وفضل على عباده الطـائعين، فاقتبس الآية التي تعمق وتعبّر عن هذه المبادئ والمعاني الإسلامية تلك.

وكتب ابن الأثير كتاباً عن نفسه إلى بعض الإخوان، بالموصل جوابـاً عـن كتابـه، يقول" .. **وهذا كتاب أصدرته إليه من حصن سميساط وقد هالني صعـوده فـي صببـت، وبوأني معاقد رأسه ما حدث .. ولو رأيته في المنام لم أطعم قراراً، ولجعلت ليلـي فـي اليقظة نهاراً، ولولا سيدنا الذي أزال عني وعكة القلق، وقال "إقـرأ باسـم ربـك الـذي خلق[3]"، لكنت بالهموم متزملا، وعن هذه المدرة الذميمة مترملاً ..**"[1].

فابن الأثير في كتابه اقتبس الآية الأولى من سورة العلق وذلك على ما اعتقد لسـببين أحدهما: للتكلف وهو الإتيان بالآية الكريمة حتى تكتمل لديه الصورة البديعية في

كتابه وثانيهما: التمثل بقصة نزول الوحي عليه السلام، عندما كـان الرسـول عليـه السلام يعاني من حالة الاضطراب النفسي والتفكير المستمر، فنزل الوحي عليه بهذه الآيـة، فأصابته الطمأنينة والسكينة، بنزول القرآن الكريم عليه، وهذا ما حدث لابن الأثير بأنه قبل مجيء كتاب صاحبه كان يعاني من الهموم والمرض ما يعاني، وبمجيء الكتاب أزال عنـه

---

[1] سورة ال عمران: الأية ١٧٤.

[2]) الدر النظيم، ص٦٤.

[3] سورة العلق: الأية ١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كل هذه الأمراض والهموم، وأستطيع القول بأنني وبعد دراسة وافية لأغلب رسائل ابن الأثير أميل إلى الرأي الثاني.

واقتباسه جاء متناسقاً مع الموضوع ومتآلفاً مع المعنى، مما جعل الكتاب يخرج بصورة متجانسة ومنتظمة.

ومن رسائل التهنئة يقتبس ابن الأثير بعض الآيات القرآنية ومن ذلك ما ورد في رسالته إلى الملك الأفضل لتهنئته من المرض، يقول فيها "**ومن سنّة المملوك أنه يستعين فيما أهمّهُ بكثرة السجود، ويستجد من الدعاء الصالح بكثرة الجنود، ويأوي إلى بيوت الله التي أذِنَ أن تُرفَع، ويعلم أنها المفزع الذي يمنع وينفع..**" [٢].

ومن خلال النظر إلى الكتاب فإنه يؤكد على المعنى الذي ذكرته في الكتاب السابق والقائل بأن القرآن شفاء للقلوب وطمأنينة للنفس، وهذا ما أكد عليه الكتاب.

والأمثلة على الاقتباس من القرآن الكريم أكثر من أن تحصى، ولكني خوفاً من الإطالة والتكرار استشهدت ببعض الأمثلة قد تكون شافية ودليلاً على ما ذهبت إليه من آراء وأفكار.

ب- الاقتباس من الحديث الشريف

لقد اختلفت الآراء بين علماء البيان في الأخذ من الحديث الشريف، فانقسم هؤلاء إلى فريقين، فريق ذهب إلى أن الأخذ من الحديث الشريف يعد اقتباساً، وذهب الفريق الأخر إلى جعل الاقتباس محصوراً في القرآن الكريم وحده، ولعل السبب في ذلك أن الاقتباس من

---

[١]) ديوان رسائل ابن الأثير، ص١٣٨ (تحقيق نوري القيسي).

[٢]) ديوان رسائل ابن الأثير، ص٨٩ (تحقيق نوري القيسي).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

القرآن لا يجوز وضع المعنى أو روايته، بل يكون بالألفاظ، أما في الحديث فيجوز فيه الرواية بالمعنى، لذا سموّه تضميناً.

فالتضمين على هذا النحو، يقع في الحديث الشريف، والشعر، والأمثال، باستثناء القرآن الكريم، وهذا ما ذهب إليه معظم علماء البيان.

وكما كان تأثر الكتاب بالقرآن الكريم، كان تأثر الكتاب بالأحاديث النبوية الشريفة والأخبار النبوية، والبلاغة النبوية، وسموّ معانيه، وجمال مبانيه، لذا فقد أولى الكتّاب عنايتهم بالتضمين منه، والإفادة في رسائلهم حتى يزيد الكلام إشراقاً ونوراً، وكما حفظوا القرآن للاستعانة والاستشهاد في رسائلهم، ذهبوا إلى الانكباب لحفظ الأخبار النبوية وللغاية نفسها، وتقوية ملكتهم التعبيرية.

على هذا نوه ابن الأثير عن عنايته وحفظه للأحاديث الشريفة بقوله "وكنت جردت من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاث آلاف خبر كلها تدخل في الاستعمال، وما زلت أواظب مطالعته في كل أسبوع مرة، حتى دار على ناظري وخاطري خمسمائة مرة، وصار محفوظاً لا يشذ عنه منه شيء"[1].

فلا بد للكاتب من حفظ الأحاديث الشريفة حتى يتمكن من الاستشهاد والتضمين أثناء كلامه، وعلى هذا أكد شهاب الدين الحلبي بقوله "لا بد للكاتب من حفظ الأحاديث النبوية الشريفة، وخصوصاً في السير والمغازي والأحكام، والنظر في معانيها وغريبها، وفصاحتها، وفقه ما لا بد من معرفته من أحكامها، لينفق منها عن سعة، ويستشهد بكل شيء في موضعه، ويحتج مكان الحجة، ويستدل بموضع الدليل، ويتصرف عن علم

---

[1]) المثل السائر، ١/١٥٠، صبح الأعشى، ١/٢٠٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بموضوع اللفظ ومعناه، ويبني كلامه على أصل لا يُرْفَع، ويسوق مقاصده إلى سبيل لا يصد عنه ولا يدفع فإن الدليل على المقصد إذا استند إلى النص سلم له وسلم، والفصاحة إذا طُلِبَتْ غايتها فإنها بعد كتاب الله في كلام من أوتي جوامع الكلم"[1].

فعلى الكاتب حفظ الأحاديث للاستشهاد بها في معرض الحديث، لتكون عند احتياجه لها بين يديه، ويسهل عليه الإتيان بها ارتجالياً.

أما تضمين الأحاديث في الكلام فينقسم إلى قسمين:

أحدهما: الاستشهاد: وهو أن يضمّن المتكلم الحديث مع التنبه عليه، كما في قطعة من كتاب كتبه القاضي الفاضل كما قال رسول الله عليه السلام: تناكحوا، تناسلوا فإني مكاثر بكم الأمم وغيرها من الاستشهادات المنتشرة في صفحات الكتّاب.

وسيأتي أمثلة على ذلك في ثنايا الحديث.

ثانيهما: فهو أن يضمن الكلام شيئاً من الحديث الشريف دون التنبيه عليه، وهذا الوجه غالب الاستعمال عند ابن الأثير.

ولا بد لي من التنويه بأن حفظ الأحاديث يتبعه حفظ للأحاديث الصحيحة والمرسلة والضعيفة وكذلك حفظ أسماء الرجال والمشاهير من المحدثين، ولكني أرى لزاماً عليّ أن أوضح مسألة لمستها وهي أن هناك بوناً شاسعاً بين الاقتباس من القرآن الكريم والاقتباسات أو التضمين من الحديث الشريف، وسأبين تعليلاً لعله يكون مناسباً لهذه المسألة ففي تقليد لولاية الحسبة لابن الأثير، يظهر الاستشهاد واضحاً بالحديث الشريف واستشهاده هذا إنما يدل على دقة اختيار الحديث المناسب للموضوع المناسب حيث يقول "**وأما من تحدث في**

---

[1]) حسن التوسل، ص٧٨، صبح الأعشى، ١/٢٠١-٢٠٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

القَدَر، وقال فيه بمخالفة نص الخبر، فليس في شيء من ربقة الإسلام وإن تنسّك بمداومة الصلاة والصيام، قال النبي صلى الله عليه وسلم القدرية مجوس هذه الأمة [1]

ويتابع ابن الأثير في التقليد نفسه، والذي يحث فيه المحتسب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصلاة على وقتها، والمحافظة على الجُمَع والجماعات، وكذلك حث المحتسب على معاقبة المذنب شر عقاب جزاء أفعاله، ولا يجوز التفريق في المعاملة بين شخص وآخر في الحدود، لذلك ضمّن ابن الأثير حديثاً نبوياً يتضمن هذا المعنى، وهو قول الرسول عليه السلام (إنما هلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد"[2].

ويخرج ابن الأثير علينا بهذا التقليد بتضمين آخر وهو التضمين من الخطب المحمدية بقوله "ولا تضع رباً حتى تضعه، وأول ربا تضعه ربا العباس"[3] وهذا التضمين يضع الحكم الشرعي الذي أراده الكاتب، وبهذا التضمين يكون الكاتب قد أعطى المعنى قوة وتأثيراً في المتلقي.

وفي رسالة استنجاد كتبها ابن الأثير في طلب النجدة بالمال من الديوان العزيز، يقول فيه: ".. **وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوّف إليكم وأنتم لا تظلمون، وهذه النوبة هي أخت جيش العسرة ونصرة الإسلام فيها فوق كل نصره، وربَّ همة حملت ما تعجز عنه همم القوم، ولمثلها قال الرسول عليه السلام، ما ضر عثمان ما صنع بعد اليوم فكانت نفقته تلك ممحضة لما يأتي بعدها".**

---

[1]) انظر التقليد في المثل السائر، ٣٠١/٢-٣١١.

[2]) عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي، سنن الدارمي، طبع بعناية محمد أحمد دهمان، دار إحياء السنة النبوية، د . ت، ص١٧٣.

[3]) سنن الدارمي، ص٢٤٦.

٤) ديوان رسائل ابن الأثير، ص٧٤ (تحقيق نوري القيسي).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

في هذا النص رسخ ابن الأثير المعنى المراد باقتباسه مرة بالآية الكريمة، ثم اتبعها بالحديث الشريف، ليدل على أهمية الموضوع المرسل من أجله الكتاب، فضلاً عن فضل الإنفاق في سبيل الله، فاستحضر قصة عثمان مع تجار مكة حين ورود القافلة من الشام.

وفي وصف الانتصارات الإسلامية، نرى الكتاب قد ضمّنوا رسائلهم بعضاً من أحاديث الرسول عليه السلام، فهذا العماد الأصبهاني يظهر لديه التأثر بالحديث الشريف باستقائه منه ما يمس وجدان كل مسلم، فيدخل الحديث الشريف في عباراته بطريقة محكمة فيها دقة، حيث يقول "**عزت سيما الإسلام بمسوّمها، وترادف نصره بمردفها، وأخذت القرى وهي ظالمة فترى مترفيها كأن لم تؤْوَ فيها، فكم أقدم به حيزوم..**" [1] والحديث نفسه ذكره ابن الأثير في وصف الموقعة نفسها "وأقبل حيزوما مقدما" من هذين النصين نجد استحضاراً للحديث الشريف والتي تدور روايته، على أن رجلاً من المسلمين لاقى رجلاً من الكفار في غزوة بدر وأراد أن يضربه فخرّ على الأرض ميتاً قبل أن يصل إليه، وسمع الرجل صوتاً من قومه وهو يقول "أقدم حيزوم" فلما أخبر الرسول عليه السلام قال: صدقت، ذاك من مدد السماء الثالثة"[2].

فاتكاء العماد على الحديث الشريف جاء متناسباً مع المعنى، ويصوره للفتوحات الإسلامية والتأثر بها وبمجرياتها، وما نال المسلمون من كرامات ونصرمبين.

فالعماد استقى الحديث لأهميته التي تلائم الغرض ووضعه في المكان المناسب لكي يؤدي المعنى المراد بوضوح وقوة بعد شحنه بأحاسيسه وعاطفته المؤثرة وفي كتاب كتبه

---

[1]) صبح الأعشى، ٥١٨/٦.

[2]) مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، طبعة وصححه محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥-١٩٩٤، ج٦،ص ٣٥٧-٣٥٩. المثل السائر، ١٥٢/١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

القاضي الفاضل إلى الملك الظاهر صاحب حلب يعزيه بوفاة والده صلاح الدين، حيث يقول: ".. **واسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة ضعيف القوة، راضياً عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبالباب من الجنود المجندة، والأسلحة المغمدة، ما لا يدفع البلاء، ولا يملك رد القضاء، وتدمع العين، ويخشع القلب، ولا تقول إلاّ ما يرضي الرب، وإنا على فراقك يا يوسف لمحزونون**"[1].

فالقاضي الفاضل ضمّن قول الرسول عليه السلام، الحديث الشريف "إن العين لتدمع، وإن القلب ليخشع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون"[2].

وفي قطعة كتاب آخر للقاضي الفاضل أُرسِلَ إلى السلطان صلاح الدين في سنة ٥٨٢هـ يقول فيه ".. **ولو اكتحلت أجفانها بغبار قدميه، ما فيها من يشتكي منه إلاّ التزيد في الطلب، وهو من باب الثقة بكرم المنعم، ولهم أولاد، والمولى مدّ الآمال لهم كما قال مولى الأمة تناكحوا، تناسلوا، فإني مكاثر بكم الأمم**"[3].

وينبه القاضي الفاضل على لقاء الأعداء بأنه من أكبر الواجبات على المسلم، ويبين كذلك فضل الجهاد في سبيل الله، والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، وقد حث المسلمين على اتباع الفروض المفروضة من عند الله وذلك من خلال نسخة العهد المكتوبة من ديوان الخلافة ببغداد إلى السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب يقول فيه "..**فمعلوم أن هذا الغرض أولى ما وجهت إليه العنايات وصرمت، واحق ما قصرت عليه الهمم ووقفت، فإن الله تعالى جعله من أهم الفروض التي كرّم فيها القيام بحقه، وأكبر الواجبات التي كتب**

---

[1]) سير أعلام النبلاء، ٢٨٩/٢١-٢٩٠. النجوم الزاهرة، ٥٢/٦-٥٣.

[2]) أبو دواود سليمان السجستاني، سنن أبي داؤد، دراسة وفهرسة كمال يوسف الحوت، دار الجنان للطباعة والنشر والتوزيع ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان،، ١٤٠٩هـ - ١٩٩٨م، (الحديث رقم ٣١٢٦).مفرج الكروب، ٣٢٢/٣-٣٢٣.

[3]) مفرج الكروب، ٣/ ٣٣٢ - ٣٣٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

العمل بها على خلقه ... قال عليه السلام "غدوه في سبيل الله أو روحةٌ خير مما طلعت عليه الشمس" ... وقال عليه السلام "ألا أخبركم بخير الناس: ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعه طار إليها"[1].

هذا الحديث عن الجهاد في سبيل الله حشد له القاضي الفاضل مجموعة من الآيات والأحاديث الشريفة والتي جاءت متناسبة مع الموضوع الذي يتحدث عنه، ووضعها القاضي القاضي الفاضل في أمكنتها المناسبة لها واللائقة بها مما يؤدي ذلك إلى إضفاء الفخامة والجزالة والرونق على الكتاب أو الرسالة.

وفي كتاب لابن الأثير في عيادة مريض يقول ".. **وكم من آخذ بالخبر النبوي في جعل الصدقة طبيباً، ومن متفائل بأحاديث منامه، ثم لا يحدث بها إلاّ لبيباً أو حبيباً..**"[2].

في هذا النص ضمّن ابن الأثير حديثاً نبوياً وحلّه بألفاظ الكاتب نفسه وبأمر الرسول عليه السلام بمداواة المرضى بالصدقة، وفي اعتقادي أن المداواة المقصودة ليست إلاّ التواصل والتهادي والمحبة.

وبعد، فمن دراسة أغلب النصوص الأيوبية، نلحظ أن الكتاب كانوا قليلي التضمين للحديث الشريف، إذا ما قورن الأمر بالآيات القرآنية، وقد يكون ذلك راجعاً إلى أمرين:

أولاهما: أن القرآن الكريم يعدّ المصدر الأول من مصادر الشريعة الإسلامية فالاستشهاد به يساعد على إيقاظ الشعور الديني لدى السامعين.

ثانيهما: أن محفوظ الكتاب من القرآن الكريم أكثر إذا ما قورن بمحفوظهم من الأحاديث الشريفة.

لذلك لا يجد أحدّ صعوبة في الاستشهاد بآية من القرآن الكريم، وهو يراها تجري على لسانه جريان الماء، على حين يعجزه أن يستحضر الحديث الشريف بلفظه، فيأخذه الإحجام

---

[1]) سنن الدارمي، ص٢١٠.

[2]) ضياء بن الأثير، الوشي المرقوم في حل المنظوم، تح/ د. جميل سعيد، ط٢، (د. ت)، ص٢٠٣.

©Arabic Digital Library-Yarmouk University

عن تضمينه للحديث، ولا شك في أن موضوع الرسالة يمنح الكاتب فرصة التضمين للأحاديث الشريفة أو عدمه.

وقد بين ابن الأثير تعليلاً لهذا بقوله "إن الأخبار النبوية لا تجري فيها الأمر مجرى القرآن، إذ القرآن له حاصر وضابط، وكل آياته تدخل في الاستعمال، كما قال بعضهم "لو ضاع مني عقال" لوجدته في القرآن الكريم، وأما الأخبار النبوية ليست كذلك فهي كثيرة لا تنحصر، ولو انحصرت لكان فيها ما يدخل، ومنها ما لا يدخل"[1].

لهذا كان أكثر الكتاب تضميناً للحديث، وهو الذي كشف أسرارها، وظفر بكنوز جواهرها، هو ضياء الدين بن الأثير[2].

المبحث الثالث: التضمين من الموروث الشعري

كانت الثقافة الأدبية رافداً من روافد الكتّاب في العصر الأيوبي، والتي عملت على تكوينهم العقلي والبياني، وأمدتهم بكثير من الألفاظ والمعاني، فالقاضي كان يحفظ ديوان الحماسة منذ الصغر، وابن الأثير نادراً ما يتمثل بشعر غير الشعراء الثلاثة المتنبي، البحتري وأبو تمام.

لذلك كان التأثر بالموروث الشعري سبباً في ميل هؤلاء الكتّاب إلى حفظ الأشعار والاستكثار منه كشعراء الحماسة والمفضليات والشعراء المشهورين ،مما أثر في أساليبهم ومعانيهم وصورهم الفنية، حيث أصبح كذلك تأثر الكاتب بالشعر من سمات الرسائل الديوانية والإخوانية .

---

[1]) المثل السائر، ١٤٩/١.

[2]) انظر: المثل السائر، ١٤٩/١-١٦٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد وضحّ ماجد جعافرة في مقالة له بأن مصطلحي التضمين والاقتباس من أقرب المصطلحات التراثية للتناص[1]. وقد ذكر بعض النقاد أن مصطلحي الاقتباس والتضمين قد استخدما من قبل النقاد القدامى، ولكن النقاد في العصر الحديث استخدموه بشيء من التوسع تحت اسم التناص. وقد تنبه النقاد العرب إلى التناص والى دوره ووظيفته واستخدموه استخداماً لا يبتعد كثيراً عن مفهومه اليوم، وإن كنّا نلاحظ توسيعاً في المفهوم لاستخدامه اليوم، ولكن العرب لم يقفوا على الاسم نفسه -التناص- فكان اقترابهم من اسم آخر هو التضمين"[2].

فتأثر الكتاب بالموروث الشعري يكاد يكون مألوفاً لما له من تعلق بمواضيع الرسائل في هذا العصر، وقد يكون لزيادة الأفكار أو يراد به توضيحاً أو تأكيد المعنى المراد في الرسالة "وقد يكون من مهام الموروث الشعري توثيق دلالة، أو تأكيد موقف، أو ترسيخ معنى، أو مؤازرة نص، إما بتضمين صريح وإما بتلميح أو تلويح، أو يكون من وجه آخر- رفضاً لمقولة أو نفياً لمعتقد، شريطة أن التناص التضميني متمش في النسق الأدائي، وأن يقام مع مصاحبات أدائية متداخلة، وليس كتلة لغوية فاصلة بين سابق النص ولاحقه، ولا يكون -كذلك- مجرد لصق ونتوءات تسترخي على سطح النص"[3].

ففي جميع الأحوال غالباً ما يكون التمثل بالشعر مختلفاً من موضوع إلى آخر، ومن كاتب إلى آخر، فقد يكون هذا التأثر بيت أو بيتين، وفي بعض الأحيان، يكون أكثر من ذلك.

---

[1]) د. ماجد جعافرة ، التناص بين القديم والجديد "دراسة في النظرية والتطبيق"، مجلة المبرز، ع١٢، ١٩٩٩م، ص٣٨.

[2]) المرجع نفسه، ص٤٠.

[3]) رجاء عيد، النص والتناص، علامات في النقد، ع١٨، مجلد ٥، ١٩٩٥، ص١٨٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما الطريقة التي يستخدمها الكتاب في تمثلهم بالشعر فهي إحدى ثلاث طرق وقد يستخدم الكاتب الثلاث معاً، فهي إما أن يكون في بداية الرسالة، أو وسطها، أو في آخرها، وقد بين صاحب صبح الأعشى طريقة التمثل بالشعر بقوله "أعلم أن للكاتب في استعمال الشعر في كتابته ثلاث حالات هي:

-الاستشهاد وهو أن يورد البيت من الشعر، أو البيتين أو أكثر خلال الكلام مطابقاً لمعنى ما تقدم من النثر، ولا يشترط فيه أن ينبه عليه بقال ونحو كما يشترط في الاستشهاد بآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية.[1]

-التضمين وهو أن يضمن الكاتب البيت الكامل من الشعر أو نصف البيت لبعض القرينة.

-الحل وهو أن يعمد الكاتب إلى الأبيات من الشعر ذوات المعاني فيُحلُّها من عُقُل الشعر، ويسبكها في كلامه المنثور، وهذا لا بد له من حفظ الشعر وفهم معانيه، مما يؤدي إلى أن الحل يكون على اضرب عدة هي:

-أن يأخذ الناثر البيت أو الأبيات من الشعر فينثره بلفظه، فلا يتعرف بتقديم أو تأخير، ولا تبديل إلا مع مراعاة نظام الفصاحة.

-أن يأخذ الناثر البيت أو الأبيات فينثرها ببعض ألفاظه والاستعاضة عن البعض بألفاظ أخر.

-أن يأخذ الناثر المعنى ويكسوه ألفاظاً من عنده، ويصوغه بألفاظ غير ألفاظه"[2].

وحول ذلك قال شهاب الدين الحلبي "وإذا أراد الحل بالمعنى فلتكن ألفاظه مناسبة لألفاظ البيت المحلول غير قاصرة عنه، فمتى قصرت ولو بلفظة واحدة فسد ذلك الحل وعدّ

---

[1]) صبح الأعشى، ١/٢٧٤.

[2]) انظر: صبح الأعشى، ١/٢٨٣-٢٩٥. حسن التوسل، ص٣٢٦. المثل السائر. ١/١٠٣- ١٠٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

معيباً[1]، فالحل إذن هو باب واسع المجال، لذا لا بد من الكاتب المتصدي للحل أن يكـــون كثير الحفظ للشعر والأحاديث الشريفة والآثار والأمثال، ليتصرف بها عند الحاجة إليها. فظاهرة التمثل بالشعر -التناص- في رسائل العصر الأيوبي كـــانت تـــهدف إلـــى تـــأجيج العواطف ووسيلة للإقناع لما يتمتع به الشعر من مكانة مرموقة عند العرب.

ومن الأمثلة على تأثر الكتّاب بالموروث الشعري، كتاب لابن الأثير كتبه عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى ديوان الخلافة ببغداد بمناسبة فتح بيت المقـــدس يقول فيه "... **وهي فتح البيت المقدس الذي تفتحت له أبواب السماء، وكـــثرت بأحـــاديث مجده كواكب الظلماء .. وإذا أنصف واصفه قال إنه لليوم البدري في اقـــتراب النســـب؛ وإنه العجيبة التي لم تجفل عنها الأيام في صفر، وإنما أجفلت عن رجب .. ولما ظفر بـــه الخادم لم يكن لأهل النجّامة، فيه قول يرد كذابه، ولا يقبل صوابه، والشهب الطالعة علـــى ذوات السروج أصدق نبأ من الشهب الطالعة من ذوات البروج**"[2].

تأمل هذه الألفاظ المنثورة داخل هذا النص، والمعاني التي بثها في ثناياه، ليحـــاكي بها الشاعر العباسي أبا تمام في أشهر قصائده المدحية في المعتصم، والتي كانت بمناســـبة فتح عمورية، فالموقعتان لما لهما من أثر في نفوس المسلمين من جهة وفي تاريخ الدولـــة الإسلامية من جهة أخرى. لذا لجأ ابن الأثير إلى أخذ المعـــاني وبعـــض ألفـــاظ الأبيـــات الشعرية ونثرها بأسلوبه الرائع وألفاظه الموحية والجزلة، فابن الأثير بعودته إلـــى ديـــوان الشعر العربي نراه قد نظر في أبيات أبي تمام:

---

[1]) حسن التوسل، ص٣٢٦.

[2]) انظر: المثل السائر، ٢/٢٩٤-٢٩٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

السيفُ أصْـــدَقُ أنْباءً من الكُتُـــبِ ... في حَدِّهِ الحدُّ بينَ الجِدِّ واللعِـــبِ

بيضُ الصَّفائحِ لاسودُ الصحائف في ... مُتُونِهِنَّ جَلاءُ الشّـكِّ والرِّيَـــبِ

أيْنَ الروايــة بل أين النجوم ومـــا ... صاغوه من زخرف ومــن كـذب

فَتْحٌ تَفَتَّح أبوابُ الســماءِ لـــهُ ... وتَبْرُزُ الأرضُ في أثوابِها القُشُـبِ

عجائباً زعموا الأيـــام مجفلـــة ... عنهن في صفر الأصفار أو رجب

فَبَيْنَ أيَّامِكَ اللاتي نُصِرتَ بِهَـــا ... وبَيْنَ أيامِ بَدْرٍ أقرب النُّسَـــبِ[1]

هذه الأبيات التي تثير الموقف الانفعالي الذي كان يمليه الشاعر عند نظم القصيـــدة ويتكرر الموقف الانفعالي نفسه عند ابن الأثير والذي حقق من خلاله كسر الخوف وقطـف الثمرة الطيبة التي يتمتع بها المسلمون جميعاً من جراء طرد الفرنج من أرض المســلمين، فهو بهذا يخرج من الصامت صوراً حية تفيض بالحياة وتحول المعنـــى إلـى محسـوس، والحي إلى مدرك حيّ تهتزله النفس.

وكتاب آخر للعماد الأصبهاني بالمناسبة نفسها يصف فيه فتح بيـت المقـدس عنـد استرجاعه على يد القائد صلاح الدين يقول فيه "**والحمد لله الذي نصـر سـلطان الديـوان العزيز وأيّده، وأظفر جنده الغالب وأنجده، وجلا جلابيب الظلماء وجدّد جُدُده**"[2]، فنظـر في هذا النص إلى محاكاة أبي تمام في بيت من الشعر من قصيدة فتح عمورية:

حتّى كأنَّ جَلابيبَ الدُّجى رَغِبتْ ... عَنْ لَونِها وكأنَّ الشمسَ لَمْ تَغِبِ[3]

---

[1]) د. محي الدين صبحي، شرح ديوان أبي تمام، دار صادر، ط١، بيروت، لبنـــان، ١٩٩٧، ج١، ص٩٦-١٠٤.

[2]) صبح الأعشى، ٥١٧/٦.

[3]) ديوان أبي تمام ٩٩/١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وفي الكتاب نفسه يقول:" **وصارت البيع مساجدهم بها من آمن بالله واليوم الآخـر، وصارت المنابر مواقف لخطباء المنابر..**" [1].

انظر إلى قول المتنبي:

مُخليّ لَهُ المرْجُ منصوباً يصارِخهُ لَهُ المنَابِرُ مشْهوداً بها الجُمَعُ[2]

يتحدث العماد هنا عن علو شأن الإسلام وانحطاط الصليبيين وأهله، وقد جعـل لـهذا الفتح أهمية كأهمية فتح عمورية بالنسبة للمسلمين في عصر المعتصم.

وفي موضع آخر يحاكي أبا تمام في المعنى، وأخذه ونثره بألفاظه الخاصـة حيـث يقـول "**وخطبنا من الله الكريم فتح بكرٍ جعلنا بذل المهج لها مـهرا .. ونازلنـا قلعتـها البكـر الحصينة**"[3] نرى أن العماد الأصبهاني قد بين أن الله سبحانه وتعالى أعاد بيـت المقـدس للمسلمين فكانت الفرحة العارمة والسرور الذي يشاطره جميع الناس، فهذه المدينـة التـي يتصارع من أجلها قوة الإيمان من طرف والكفر من طرف آخر، ولكن الغلبة لقوة الإيمان، فرأى العماد أن هذه المدينة هي كالمرأة الحسناء البكر والتي يحلو نيلها وترخص من أجلـها النفوس، ولكننا لا نرى أن أبا تمام قد قصد هذا المعنى الذي يجسد اللذة الجامحة، بـل أنـه يقصد إلى امتلاك الغاية الجميلة الصعبة التي تهون النفوس دونها.

أما البيت الذي أخذ منه المعنى هو:

بِكْرٌ فما افترعَتْها كفُّ حادِثَةٍ ولا ترَقَّت إليها هِمَّةُ النُّوَبِ[4]

---

[1]) صبح الأعشى، ٥١٩/٦.

[2]) أبي البقاء العكبري، شرح ديوان المتنبي، طبعه وصححه ووضع فهارسه / مصطفى السقا وآخرون، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د. ت)، ص٢٢٥.

[3]) الفتح القسي، ص١٩٣.

[4]) ديوان ابي تمام، ٩٨/١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هذه التضمينات وغيرها في كتب العماد الأصبهاني ما هي إلا دلالة على سعة ثقافته التي يتمتع بها، والتي أمدته بالمعاني والألفاظ المتوشحة مكانها المناسب.

وفي رسالة تعزية كتبها ابن الأثير عن نفسه معزياً بوفاة الأمير مجاهد الدين في الثامن من المحرم سنة ٥٩٩هـ، إثر قتله في المسجد الجامع في سنجار[١] يقول فيها متمثلاً بعض أبيات شعرية لأبي تمام يقول "وهذا الخطب أعظم من أن يرضى له بامتناع الرقاد، وانصداع الفؤاد وإسبال المدامع، وافتضاض المضاجع، بل هو صيحة ضمت البلاد لها حشاها، وفوجئت منها بما غشاها، فما للأرض ثابتة وقد خف عنها جبلها، وما للشمس طالعة وقد أحاط بها طُفْلُها! وما للرياض مخضرة وقد نضب عنها منهلها! ومما حفض على النفس أن فقيدها مات ميتة كانت الجنة لها ثمنها .. ولقد ارتدى أثواب موته حمرا، فأمست وهي من سندس خضرا.." [٢].

تمثل ابن الأثير بأبيات شعرية لأبي تمام في قصيدته الرثائية بمحمد بن حميد الطوسي وهو أحد قواد الخليفة المأمون، فاستحضر ابن الأثير المناسبة لما بين المناستين من ترابط، أما الأبيات التي تمثل بها:

كَذا فَلْيجِلَّ الخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأمْرُ ... فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لم يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ

فَتىً ماتَ بينَ الضَّرْبِ والطَّعْنِ ميتَةً ... تَقُومُ مقامَ النَّصْرِ إذْ فَاتَه النَّصْرُ

تردَّى ثيابَ الموتِ حُمراً فما أتَى ... لها الليلُ إلاّ وهي مِنْ سُنْدسٍ خُضْرُ

مضَى طاهِرَ الأثْوابِ لم تَبْقَ رَوْضَةٌ ... غَداةَ ثَوَى إلاّ اشتَهتْ أنّها قَبرُ[٣]

---

[١] مدينة تقع غرب الموصل بالعراق.

[٢] ديوان رسائل ابن الأثير، ص٨٨ (تحقيق نوري القيسي).

[٣] ديوان ابي تمام، ٢/٣٠٣- ٣٠٤ (باب المراثي).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فاستحضر ابن الأثير ببراعة فائقة المعاني التي طرحها أبو تمام في الأبيات في مدح محمد الطوسي، وقام بنثرها بأسلوب يتحقق معه الأثر النفسي لموضوع التعزية.

ونلحظ في أسلوب ابن الأثير أنه لم يكتف بأخذ المعاني من أبيات أبي تمام فحسب، بل أضاف إليها معاني أخرى تحمل داخلها عمق الأثر العاطفي والتأثر النفسي أو الوجداني. فاستخدم ابن الأثير الأسلوب الإنشائي المتمثل في الصيغ التعجبية في النص.

يقول: "**فما للأرض ثابتة وقد خف عنها جبلها، وما للشمس طالعة وقد أحاط بها طُفَيْلُها! وما للرياض مخضرة وقد نضب عنها منهلها!**" فجاءت الألفاظ والصور المكونة لهذه الرسالة مترابطة ومعبّرة عن نفس الكاتب، وتأثره بهذه الفجيعة التي أصابت المسلمين بمقتل الأمير مجاهد الدين.

أما تضمين الأمثال السائرة، فهو قليل إذا ما قورن بالنسبة للموروث الشعري والاقتباس من القرآن الكريم والأخبار النبوية، فبعض الكتّاب نجدهم قد وضعوا شروطاً لتضمين الأمثال فابن الأثير مثلا يضع شروطاً لتضمين الكاتب للأمثال حيث يقول:" فإذا أريد حله لزم منه إلاّ يخرج عن اللفظ إلاّ أن يعكس المعنى [1] وذلك بسبب شيوعه بين الناس باللفظ نفسه، ومجيء الأمثال في الكلم قليل لا يستطيع الكاتب الظفر منها بشيء عَسُرَ غيره أن يأتي بمثله، وإنْ وافاه في المعنى عَسُرَ أن يوافيه في اللفظ.

فمن الأمثلة التي عثرت عليها، ذلك قول العرب: **إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً** فقد حله ابن الأثير في كتاب يتضمن هزيمة يقول فيه:" **لقونا وقد اشرعوا الأسنّة ... إذا وردت أروتهم من غليل الحقد، كما ترتوي من شرب الدماء، لكن زادها عهد الورود هو**

---

[1]) الوشي المرقوم، ص٥٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

اصلب عودا، في يد أمضى منهم حَدّاً وأسعد جدوداً، وإذ لاقت الريح إعصارا، زالت عن طريقه وضاق ذرعها بمضيقة" [1] .

وقالت العرب: سبق السيف العذل فابن الأثير ضمن هذا بكلامه على ما جاءت صورة المثل، فقال:" لست بمن تستبيح إبلي بنو اللقيطة، ولا الذي إذا همّ بأمر كانت الآمال إليه وسيطة، ولكنني أحمل وأقرّبُ الأمل، وأقول بأسبق السيف العذل"[2]

أما العماد الأصبهاني، فانه يضمن إحدى رسائله - عن صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى " ... وإلا فان الحروب إنما عُقِدَتْ سجالا، وإنما جُمِعَتْ رجالاً، وإنما دعت خفافاً وثقالاً" [3].

في هذا الكتاب نظر العماد إلى قول العرب : الحروب سجالاً .

ويبدو من خلال الدراسة للرسائل الأيوبية أن الكتاب المتمثلين بالشعر، منهم من كان يستشهد بأشعار عدد محدود من الشعراء كابن الأثير الذي تغلب عليه صفة الاستشهاد لثلاثة من الشعراء وهم، المتنبي، أبو تمام، والبحتري، ولكنه في حالات نادرة يأخذ بشعر غير هؤلاء.

أما القاضي فهو على عكس من ابن الأثير حيث أنه يضمّن شعراً من شعره ومن تأليفه، فنادراً ما نجد لشعراء آخرين.

وبعد، كانت تلك أهم المصادر الموروثة التي استقى الكتّاب بعض أفكارهم ومعانيهم عن طريق التضمين، فالكاتب إذن لا بد له من حفظ هذا الموروث – إن لم يكن جميعه

---

[1]) المصدر نفسه، ص٦٤- ٦٥.

[2]) المثل السائر، ١٠٤/١.

[3]) صبح الأعشى، ٥١٨/٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فأكثره – والذي أمدهم بالمعرفة والثقافة، وعرفهم بتجارب السابقين مما أتاح لهم بالاضطلاع على الطبائع المختلفة للناس الذين سبقوهم.

وهذه العملية التكاملية بين الكاتب والشاعر ما هي إلاّ عملية إبداع، فالكاتب بتضمينه أشعار غيره لا يعقل أن يُضَمِّنَ شيئا لغيره إلا إذا كانت متناسبة مع الموضوع ومتناسبة معه، فضلاً عن إضافة بعض العناصر من تشكيل عمله، لذلك قال عبد القادر الرباعي " أن يُدْخِلَ في تشكيل عمله عناصر من القديم والحديث ومن الشرق والغرب، ومن الشمال والجنوب، ولكنه مع ذلك يبتدع عملاً مغايراً لما أخذه من عناصر، ها هنا تكمل أصالة الشاعر الذي يمكن أن يكون قادراً على الإضافة والتخطي أي الإبداع " [1].

والتأثر بالموروث كان موجوداً في العصور السابقة، ولكنه في هذا العصر اصبح واضحاً وجلياً بشكل لافت للنظر، حتى أننا نجد في بعض الأحيان أن الأبيات الشعرية نراها تتزاحم مع النثر، حتى وصل الأمر بابن الأثير أن يطلب من الكاتب حل الأبيات الشعرية ونثرها بألفاظ الكاتب الخاصة أو بشيء من ألفاظ الكاتب نفسه، ودعا كذلك إلى حل الآيات القرآنية وتفسيرها، ومرد ذلك كله إلى الإعجاب بالقديم فتمسكوا به لتأكدهم بأصالة القديم.

---

[1]) عبد القادر الرباعي مقالات في الشعر ونقده، ، مكتبة عمان، عمان، ط١، ١٩٨٦م، ص١٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الرابع

الوضوح والغموض

بداية يجب على الكاتب أن يكون واضحاً ومفهوماً فيما يريد أداءه فهماً دقيقاً جليـــاً، والحرص على هذا الأداء. فالتعبير اللغوي الذي يتخذه الكاتب يتطلب منه ثـــروة لغويـــة، والقدرة على التصرف بالألفاظ والتراكيب لتلائم أفكاره وطريقة تعبيره، لذلك لا يعقـــل أن تكون كلماته أو جمله بحاجة إلى جهد وعناء.

لذلك رأى فريق من النقاد والأدباء منهم "أناتول فرانس" الذي يرى أنه كلمـــا انعـــم النظر بدا له أنه لا جميل إلاّ السهل، يقول "قد فرغت من ذوق الغوامض، وصـــرت أرى أن الشاعر أو القاص الذي لا يعاب هو الذي يتجنب أن يكلف قراءه أي تعب، ولـــو كـــان يسيرا، وأن يجشمه أية صعوبة ولو كانت طفيفة. ومن الخير له أن يفاجئ التفات القارئ لا أن ينتزعه منه انتزاعاً، وأن يحذر التعويل على صبر القراء، وأن يعتقد انهم لا يقرءون إلا إذا كان ما يقرءون سهلا"[1]

فالوضوح المقصود هو أن يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى المراد دون لبـــس أو خفاء، وهو مقياس من مقاييس جودة العمل الأدبي، وطريق مباشر لكي يهز المشـــاعر، ويثير الوجدان، ويصل إلى القلب في سرعة وسهولة"[2]

وعلى هذا يمكن القول بأن الوضوح لابد له من عوامل منها: بعـــد الكلمـــات عـــن الغرابة فإذا كانت الكلمات المألوفه لديها إلامكانية في تأدية الأفكار التي تدور فـــي ذهـــن الكاتب، ولا يحار القارئ في فهمها والبحث المضني عن دلالاتها، وأن تكون هذه الألفـــاظ

---

[1]) بدوي طبانة، قضايا النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١م، ص١٤١.

[2]) أنظر: د. عصام قصبجي، أصول النقد العربي القديم، جامعة حلب، حلب، ١٩٨١م، ص١٦١ – ١٦٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بعيدة عن الدلالات المشتركة وهو ما يسمى" بالمترادفات" ، ذلك يجعل المعنى ذاهب المعالم.

وقد أدرك الجاحظ مسألة الوضوح، فقال فيها: وهذه الخصال التي تقربها من الفهم وتجليها للعقل، وتجعل الخفي فيها ظاهراً، والغائب شاهداً والبعيد قريباً. وهي التي تخلص الملتبس وتحل المنعقد ... وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، ودقة المدخل يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع"[1]

وقد انتقد ابن الأثير الكتّاب الذين يتخذون غريب الألفاظ سبيلاً لهم، بقوله: "وقد رأيت جماعة من مدعي هذه الصناعة – الكتابة – يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذي يعزُّ فهمه، ويبعد متناوله، وإذا رأوا كلاماً وحشياً غامض الألفاظ يعجبون به، ويصفونه بالفصاحة، وهو بالضد من ذلك لأن الفصاحة هي الظهور والبيان لا الغموض والخفاء"[2]

وقد بين الجرجاني في أسراره أنه يلزم الأديب أن يهذّب لفظه، ويجعل اللفظ قريباً إلى قلب السامع، يقول "ما كان معناه إلى قلبك اسبق من لفظه إلى سمعك، أن يجتهد المتكلم في ترتيب اللفظ وتهذيبه وصيانته من كل ما أخل بالدلالة وعاق دون الإبانة"[3] وهذا لا يعني أن الألفاظ تكون مبتذلة من أجل الوضوح ولا سهلة لأجله، فخير المعاني ما خالط وضوحها شيء من الغموض فلا هي مبتذلة، ولا هي معقدة، وإنما تبتغي بين ذلك سبيلا يمكنها من التلميح دون التصريح.

---

[1]) ابو عثمان بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح / د. درويش جويدي، المكتبة العصرية، ط١، صيدا، بيروت، ١٩٩٩م، ج١، ص٥٦.

[2]) المثل السائر، ١/١٨٥.

[3]) أسرار البلاغة، ص١٠٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد التفت الجرجاني إلى المعنى الذي يبحث عنه القارئ، ويحصل عليه بعد التأمل والطلب فهو كالصورة الفنية التي قد تستعصي على القارئ لأول مرة ثم ما يلبث أن تعود عليه بعد أن يطلبها مرة أخرى، فيقول "أن المعنى إذا أتاك ممثلاً فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة، وتحريك الخاطر له والهمة في طلبه، وما كان منه ألطف كان امتناعه عليك أكثر، وإباؤه أظهر، واحتجابه أشد، ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، كان نيله أحلى، وبالميزة الأولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف، وكانت به أضن واشغف"[1]

ويبدو من ذلك كله، أن مقياس الوضوح وحده لا يكفي في تقدير الأعمال الأدبية من حيث حسنها وجمالها وقوتها، ولا يعد كذلك مقياساً ثابتاً، بل يمكن اعتباره مقياس اعتبارياً، بمعنى أنه يختلف من شخص إلى آخر كل حسب ثقافته الفنية والحس الفني الذي يتمتع بهما الشخص نفسه، وتذوق الأدب يحتاج إلى قدر من التأمل والتأثر بالتجارب، فاستخراج المعاني واستعمالها في الكلام على قدر طبقاتهم وتفاوت درجات ثقافتهم وعلمهم.

لذلك يمكن القول بان سطحية الأفكار وابتذالها ليست دلالة على وضوح المعاني والبعد عن الغموض.

لذا، يمكن القول من خلال ذلك كله، أن رسائل العصر الأيوبي قد انمازت بوضوح المعاني وسهولة الألفاظ – إلا القليل، فمن ذلك ما كتبه ابن الأثير في وقعة تل حطين ومدينة طبريا، يقول "**ولما فصلت الحرب حاز المسلمون من المغانم أوقارا، ومحوا من الصحائف أوزارا، فغدوا أثقالاً – من الأسلاب، حفافاً مما خط في الكتاب، وكان الخادم**

---

[1]) المصدر نفسه، ص١٠٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

نذر دم طاغية الكرك، وهو ممن أثخن في بلاد الإسلام قتلاً وأسرا، وسلفت له وقائع كلها ينطلق عليها اسم الكبرى، ولا يقال فيه الصغرى، فلم يرقب في مؤمن إلاً ولا ذمة، ولم يأل في أذاهم رأياً ولا يداً ولا همة، ولطالما ساق منهم وسيقا، وقطع عليهم طريقاً، وشرد منهم فريقاً، فقتله الخادم بيده، وقدمه ذخراً لغله، وجعله أضحية لعيد النصر لا أضحية لعيد النحر، ويرجو أن يطهر بدمه كتابه، ويغسل به حسابه"[1]

فالكاتب في هذا النص يشير من أول وهلة إلى نتيجة المعركة التي أنعم الله عليهم بهذا النصر، وأعانهم على طرد الفرنج منها، ووصف في الكتاب كذلك الجيوش الصليبية المهزومة التي كانت تعيث فساداً في الأرض، فأصابها الذل والهوان وأصبحت جيوشهم مهزومة ومتفرقة، وقد صور مقتل قائدهم على يد القائد المسلم الذي جعله مثلاً لغيره ممن تسول له نفسه في الاعتداء على حرمات المسلمين، فجاءت المعاني واضحة من أول وهلة لقراءة النص (**وكما فصلت الحرب حاز المسلمون من المغانم أوقاراً ... فغدوا ثقالاً من الأسلاب..**) وهو المراد من هذا الكتاب، فكان الوضوح من سمات هذا الكتاب.

وقد أظهر الكتّاب عن معانيهم، وحرصوا على إيصال المعاني إلى قلوب السامعين وتجاوبهم مع ما يظهرون من معانٍ.

ففي كتاب كتبه القاضي الفاضل عن صلاح الدين إلى المنصور يعقوب بن يوسف يستجيشه على الفرنج، يقول في الكتاب "... **فهنالك غُلِبَ الشرك وانقلب صاغرا، واستجاش كافر من أهله كافرا، واستغضب أنفاره النافره، واستصرخ نصرانيته المناصرة، وتظاهروا علنيا وإن الله مولانا، وطاروا إلينا زرافات ووحدانا، فلم يبق**

---

[1]) ديوان رسائل ابن الأثير، ص٦٩ (تح نوري القيسي).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

طاغية من طواغيهم ولا أتفية من أتافيهم؛ إلاّ ألجم وأسرج، وأجلب وأرهج، وخرج وأخرج، ونازلت ثغر عكا في أسطول ملك بحره، وجمع سلك بره فنهضنا إليه، ونزلنا عليهم وعليه، فضرب معنا مصاف قُتِّلتْ فيه فرسانه وجُدِّلتْ شجعانه، وخُذِلَتْ صلبانه... لم نر لمكاثرة البحر إلا بحراً من أساطيله المنصورة فإن عددها واف، وشطرها كاف، ويمكّنه – أدام الله تمكينه – أن يمد الشام منه بِعَدٍّ كثيف، وحدٍّ رهيف، ويعهد إلى واليه أن يقيم، أن يرتبع ويصيف، ويمكنه أن يُكّفَ شطراً لأسطول طاغية صقلّيَّة ليَحُصّ جناح قلوعه ان تطير..." [1]

ففي هذا النص يصف الجيوش الصليبية بأعدادهم وعددهم وهم متكالبون على المسلمين ومتآلفون في البر والبحر، ووصف كذلك مجريات المعركة التي خاضها المسلمون ضد الفرنج ولذلك كان طلب النجدة والجيوش من الأمير وإرسال الأساطيل الحربية لرد هذا العدوان الغاشم الذي إن مُكّن له بالأرض سيعيث فساداً فيها.

فأورد القاضي هذه المعاني بصورة واضحة وجلية للوصول إلى قلب الخليفة وأحساسه بالمسؤولية لإرسال الجيوش المنجدة، وإثارة الحمية في نفسه، ورغم الصور الموجودة في النص، إلا أنها جاءت معبرة عن نفسها بوضوح وجلاء وإبانة.

أما الرسائل الاخوانية فلها نصيب من الوضوح، فمن ذلك كتاب كتبه ابن الأثير عن نفسه معزياً بوفاة النقيب شرف الدين نقيب العلويين، يصف حالته وما أصابها من حزن ولوعة على الفقيد بمعان واضحة، وفي الوقت نفسه استخدام الصور المعبرة عن نفس الكاتب الحزينة، فجاءت معبرة تعبيراً عن المصاب الجلل الذي صوره الكاتب بأن رحيله

---

[1]) صبح الأعشى، ٥٢٨/٦ – ٥٢٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أصبح كرحيل الماء عن الأرض، حيث يقول "ولقد أوحشت منه المعالي كما أوحشت المنازل. وآمت المكارم كما آمت الخلائل، وعمت لوعة خطبه فما يشتكى ثَكْلٌ إلا إلى ثاكل... وما أقول فيمن عدمت الأرض منه حياها، والمحامد محياها، فلو نطق الجماد بلسانٍ، وتصور المعنى لعيانٍ، لأعربت تلك عن ظمأ صعيدها، وبرزت هذه حاسرة حول فقيدها، ولئن مضى على رغم الآمال، ورغم الإحسان والإجمال، فلقد ردّت حياته شيمه، ولم يمت من عاش فضله وكرمه"[1]

يستطيع القارئ العام عند قراءة هذا الكتاب من أول وهلة أن يتفهم معناها، دون عناء أو جهد، أو للبحث عن معانٍ غائرة وذاهبة، فهي معانٍ واضحة وجلية.

ويمكن القول بأن أغلب الرسائل الأيوبية جاءت متوافقة مع معايير النقاد الذين أوضحوا الشروط التي يجب أن تتوافر في أسلوب الرسائل، من سهولة العبارات ووضوح المعاني وبساطة التعبير وتجنب الغريب والوحشي من الألفاظ كل ذلك من خلال الوقوف على شواهد من كتاباتهم.

---

[1]) ديوان رسائل ابن الاثير، ص٨٤- ٨٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الخاتمـــة

بعد هذه الجولة والشاقة والممتعة بين الرسائل الإخوانية والديوانية فـــي العصـــر الأيوبي، الذي امتد لحقبة من الزمن (٥٦٧-٦٤٨هـــ) والتي كانت البـــلاد الإســلامية تعاني في تلك الحقبة ما تعاني من فقر وظلم وحروب متواصلة، وأطماع للصليبين.

فهذه الحروب الصليبية التي كانت في ذروتها خلال هذا العصـــر، فامتـــاز هـــذا العصر بالصحوة والإفاقة من الظروف السائدة بشتى أنواعها، من هنـــا كـــان للأدبـــاء والكتاب الدور الأكبر في إذكاء روح النهضة، ومقاومة الاحتـــلال الصليبـــي، وكـــانوا يبذلون الجهود الكبيرة للحفاظ على تراث هذه الأمة، وها هي ثمرات تلك الجهود مـــن الرسائل والكتب التي لا زالت بين أيدينا ولها القيمة الأدبية العالية، على الرغم من تأثير هذه الحروب على الأدب.

لقد أثرت الحروب الصليبية في الأدب العربي شعراً ونثراً، وكان من مظاهر هـذا التأثر -كما ذكرت- ظهور الرسائل المتبادلة بين الملوك، وفرضت عليهم ألواناً جديـدة من الموضوعات، كفتح حصن، وبشارة بفتح، أو طلب نجدة، أو تهنئة بمولود، أو بشارة بفتح ... الخ.

ويظهر الأثر كذلك لهذه الحروب تحول الأدب في العصر الأيوبي من أدب همّتـه الأول الدفاع عن الدعوة الفاطمية وتثبيت أركانها، ومحاولة الكتـــاب والأدبـــاء إقامـــة البراهين والحجج لتبيان صحة معتقداتهم، حتى يصل بهم إلى درجة الإقناع، إلـــى أدب أصبح همّهُ الأول إذكاء روح الجهاد ضد المعتدين، والحفاظ على التراث الإسلامي.

وللحفاظ على التراث في هذا العصر، تمتع العلماء والأدباء بالمنزلة الرفيعة مـــن قبل السلاطين والملوك الأيوبيين، فقد مُنِحَ القاضي الفاضل المنزلة التي كـــان يتمناهـــا

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويظهر هذا في قول صلاح الدين: "ما ملكت البلاد بسيوفكم ولا برماحكم ولكن بقلم القاضي الفاضل.

أضف إلى ذلك، أن الحروب الصليبية كانت الدافع الأقوى لإثارة الشعور الديني لدى المسلمين من أفراد وحكام وملوك، فكانت النتيجة لهذا ظهور الرسائل التي عملت على إذكاء روح الجهاد والكفاح والتضحية في سبيل الله من أجل تحرير الأرض والمقدسات الإسلامية منها، لما لها من وقع وتأثير نفسي على أذن السامع، فكان الكتاب يستخدمون الآيات والأحاديث ذات الصلة القوية بالجهاد في سبيل الله وأجره وثوابه، وكذلك ما يتعلق بالحساب والعقاب يوم القيامة، لذا يمكن القول أن الكتاب كانوا يعدونه -التضمين للآيات القرآنية- من مقتضيات الرسالة، فكانت ناصحة محذرة، وحاثة على الصبر والشدائد التي قد يتعرض لها المسلمون أمام الجيوش الصليبية، وقد ظهر من الكتاب ثلاثة يعدّون من أعمدتها وهم: القاضي الفاضل، وابن الأثير، والعماد الأصبهاني.

فقد صدرت الرسائل من هؤلاء الكتاب بأسلوبٍ بليغ وعبارات تمتاز بدرجة عالية من الفصاحة، فازدهرت الكتابة بشكل عام والرسائل بشكل خاص على النحو الذي رأيناه من الكثرة، وطرقها المختلفة، فاعتنى الكتاب برسائلهم من حيث استخدامهم المحسنات البديعية كالجناس والطباق والسجع...الخ هذه المحسنات التي كانت منتشرة في العصر الفاطمي، وبمجيء القاضي الفاضل جعل استخدامها بشكل مسرف أكثر من العصور السابقة حتى عرف عنه أنه استخدم طريقة ومنهجاً جديداً سمي "الطريقة الفاضلية" مما حدا ببعض الدارسين لأدب هذا العصر وسمه بسمة الانحطاط والجمود، إلا أنه وبالنظر إلى الرسائل الأيوبية الديوانية والإخوانية -موضوع الدراسة- لم تخل من المحسنات البديعية، ولكنها - قد لا تصل إلى درجة التصنع والتكلف، كرسائل

© Arabic Digital Library Yarmouk University

القاضي الفاضل وابن الأثير، ولكني أميل إلى أن هناك رسائلٌ وصل بها الأمر حد التكلف والتصنع كما في بعض رسائل العماد الأصبهاني في كتابه "الفتح القسي في الفتح القدسي".

هذه الرسائل التي امتازت بالعاطفة الدينية الجياشة، نظراً للظروف السياسية التي كانت سائدة في ذلك العصر، تشيد بمزايا الإسلام وما سيجازى به المسلم إذا ما استجاب لدعوة الجهاد، فكان الكتاب يصورون في رسائلهم حالة الصليبيين وما يلحق بهم من خسائر ودمار وانكسار أمام جيش التوحيد.

أما البناء الفني للرسائل فبقي كما هو عليه في العصر الفاطمي -كما ذكرت سابقاً- فكانت تلتزم قواعد معينة في كتاباتها، فجاءت المقدمة والتي تكون مبدوءة بآي من القرآن الكريم كالرسائل الديوانية أو بيت من الشعر وقد يكون بيتين كما في الرسائل الإخوانية، هذه المقدمات تكون في كثير من الأحيان ذات دلالة على موضوعها، بحيث يمكن معرفة موضوع الرسالة لأول وهلة عند قراءة المقدمة. أما موضوع الرسالة فغالباً ما تمتاز الرسائل بالموضوع الطويل، فالذي يفرض الطول على الرسالة هو الموضوع، فموضوعات الرسائل الديوانية تمتاز على الأغلب بالإطناب، لما لها من تأثيرات على السامعين والمتلقين، فالإيجاز لا يجدي نفعاً في هذا النوع من الرسائل، أما الرسائل الإخوانية فتمتاز بالإيجاز -نوعاً ما- نظراً لمخاطبتها فئة قليلة ومعينة من الناس، مما يؤدي إلى الإقلال من الصور المستخدمة فيها.

وإذا ما انتقلنا إلى الخاتمة فنرى أن الرسائل غالباً ما تكون مختتمة بالدعاء إلى المرسل إليه.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فالموضوع هو الذي يملي على الكاتب استخدام الأسلوب الذي يناسبه -الموضوع- كاستخدام الصور الفنية والإيجاز أو الإطناب، والمحسنات البديعية .. الخ.

وموضوعات الرسائل في العصر الأيوبي وبالمقارنة مع العصور السابقة، وجد أن هناك موضوعات جديدة قد استخدمت ودخلت ميدان المنافسة فيما بينها كموضوع المفاضلة بين المدن، ويبدو لي أن زعيم هذا الاتجاه هو القاضي الفاضل حيث أنه فاضل بين الشام ومصر، ففضل مصر على الشام، ورد عليه العماد الأصبهاني بذكر فضائل الشام على مصر، وكذلك فضل ابن الأثير مصر حين ذكر فضائل نيل مصر.

هذا يقودنا إلى القول، بظهور بعض الرسائل بين الكتاب على شكل معارضات كتلك المعارضات الشعرية التي انتشرت في العصور السابقة لهذا العصر، ومن هذه الرسائل، تلك الرسالة التي عارض بها ابن الأثير القاضي الفاضل بمناسبة فتح بيت المقدس[1].

فالرسائل، قد تكون تسجيلاً للأحداث ومتابعتها، لما احتوت من الوصف الشامل للأهداف وخاصة وقت اللقاء أو الرصد، فالمجاهدون يراقبون جنود الأعداء بتيقظ امتثالاً لقول الرسول عليه السلام، عينان لا تمسهما النار، عين باتت تحرس في سبيل الله وعين بكت من خشية الله".

ومن جهة أخرى نجد أن أغلب رسائل الفتوحات كانت تمتاز بإشارة الكاتب إلى الخطط المعدة وأوضاع الجند، والأسلحة المستخدمة وصورها وتأثيرها أثناء المعركة.

فالحمد لله على ما أوصلني إليه

وأعانني عليه إنه نعم المولى والنصير

---

[1]) انظر: ديوان رسائل ابن الأثير، ص٦٦-٧٠، ٧١-٧٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المصـــــــادر والمراجـــــــــع

١. ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السـائر فـي أدب الكـاتب والشـاعر، قدمـه وعلـق عليه/ أحمد الحوفي و بدوي طبانه، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة،(د.ت).

٢. ابن الأثير،ضياء الدين محمد بن عبد الكريم، ديوان رسائل ابن الأثـير، تـح/ نـوري حمودي القيسي وهلال ناجي، منشورات جامعة الموصل، ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٣. ابن الأثير،ضياء الدين، الوشي المرقوم في حل المنظـوم،تـح/ جميـل سـعيد، ط ٢، (د.ت).

٤. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التـاريخ،دار صـادر، بيروت، ١٩٧٩م.

٥. ابن الأثير،نجم الدين،جوهر الكنز،تح / د. محمد زغلـول سـلام، منشـأة المعـارف، الإسكندرية، ١٩٨٠م.

٦. ابن أبي الإصبع،زكي الدين بن عبد العظيم بن عبد الواحد المصري،تحرير التحبير فـي صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن،تح/ حفني محمد شرف، لجنـة إحيـاء الـتراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.

٧. الأصبهاني، العماد، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم /محمد محمـود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، (د. ت).

٨. الأصبهاني،عماد الدين،خريدة القصر وجريدة العصر، تح/ محمد بهجة الأثري وجميـل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٥ م.

٩. الأصبهاني،عماد الدين،ديوان الأصبهاني، جمعه وحققه وقدم له/ ناظم رشـيد، مطـابع جامعة الموصل، العراق، ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١٠. الأيوبي، محمد تقي الدين عمر بن شاهنشاه، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تح/ حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٨م.

١١. باشا، عمر موسى، الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ، المكتبة العباسية، ط٢، دمشق، ١٩٧٢م.

١٢. البحتري، ديوان البحتري، تح/ حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، مصر، ١٩٧٢م.

١٣. بدوي،أحمد أحمد،الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام،دار نهضة للطباعة والنشر، القاهرة، (د. ت).

١٤. بدوي، أحمدأحمد،أسس النقد الأدبي عند العرب ،نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٩م.

١٥. ابن بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلّق عليه/ محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية،بيروت، ١٩٩٢م.

١٦. البهاء زهير،ديوان البهاء زهير،شرح وتح/ محمد طاهر الجبلاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط ٢، القاهرة، ١٩٨٢م.

١٧. أبو تمام، ديوان أبي تمام، تقديم وشرح/ محي الدين صبحي، دار صادر، ط١، بيروت، ١٩٩٧م.

١٨. ج. شوفيل، صلاح الدين بطل الإسلام، ، ترجمة/ جورج أبو صالح، دار الأميرة، بيروت، ١٩٩٢.

١٩. الجاحظ، أبو عثمان بن بحر،البيان والتبيين، تح/ درويش الجويدي، المكتبة العصرية، ط١، صيدا – بيروت، ١٩٩٩م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٢٠. الجاحظ،أبوعثمان عمرو بن بحر،الحيوان، تح/ عبد السلام هـــارون، دار الجيـــل ودار الفكر، ٤٠٨هـــ – ١٩٨٨م.

٢١. الجرجاني، علي عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه،تح وشرح/ محمـــد أبـــو الفضل إبراهيم ورفيقه، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ١٩٩٦م.

٢٢. الجرجاني، عبد القاهر،أسرار البلاغة،تح/ محمد الفـــاضلي، المكتبـــة العصريـــة، ط٢، صيدا، بيروت، ١٤٢٠هـــ – ١٩٩٩م.

٢٣. الجرجاني،عبد القاهر،دلائل الإعجاز فـــي علـــم المعـــاني، صححـــه وعلّـــق علـــى حواشيه/السيد محمد رشيد رضا،دار المعرفـــة للطباعـــة والنشـــر،بـــيروت، ١٣٩٨هـــ ـــ١٩٧٨م.

٢٤. ابن جعفر،قدامة ،كتاب نقد النثر، المكتبة العلمية، بيروت،١٤٠٠هـــ – ١٩٨٠م.

٢٥. الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس، الوزراء والكتاب، قدم له/ حســـن الزيـــن، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٨م.

٢٦. أبو حاقه، أحمد،البلاغة والتحليل الأدبي، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٨٨م.

٢٧. حجاب،محمد نبيه،بلاغة الكتّاب في العصر العباسي، المطبعة الفنيـــة الحديثـــة، ط ١، القاهرة، ١٩٦٥م.

٢٨. ابن حجة الحموي،تقي الدين أبو بكر بن علي محمد،ثمـــرات الأوراق،صححـــه وعلـــق عليه/ محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الخانجي، ط١، مصر، ١٩٧١م.

٢٩. ابن حجة، تقي الدين أبو بكر علي، خزانة الأدب وغاية الأرب، دار القاموس الحديـــث للطباعة والنشر، (د. ت).

٣٠. حسين ، طه، من حديث الشعر والنثر، دار المعارف بمصر، ط١٠، ١٩٦٩م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٣١. الحلبي،شهاب الدين،حسن التوسل الى صناعة الترسل،تح/ أكرم عثمان يوسف، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٤٠٠هـ.

٣٢. أبو حمدان،سمير،الإبلاغية في البلاغة العربية،منشورات عويدات الدولية،ط١ ، بيروت وباريس،١٩٩١م.

٣٣. حمزة،عبد اللطيف،الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م.

٣٤. الحنفي، محمد بن أحمد بن إياس،بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح/ محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، القاهرة، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

٣٥. الخضري، محمد، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية -الدولة العباسية، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٩-١٩٩٨م.

٣٦. ابن خلدون، الإمام عبد الرحمن بن محمد، مقدمة بن خلدون، تح/ درويش الجويدي، المكتبة العصرية، ط١، صيدا، لبنان، ١٤١٥هـ -١٩٩٥م.

٣٧. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان، تح/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت،(د.ت).

٣٨. الدارمي،عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل،سنن الدرامي،طبع بعناية/ محمد أحمد دهمان، دار إحياء السنة النبوية، (د. ت).

٣٩. دهمان، أحمد علي، الصورة البلاغية عند عبد القاهرالجرجاني ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط١، دمشق، ١٩٨٦.

٤٠. الذهبي،شمس الدين محمد أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء،تح/ بشار عواد معروف ورفيقه، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٩٨٤م.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

٤١. الرباعي، عبد القادر، الصورة الفنية في شعر أبي تمـام، نشـر بدعـم مـن جامعـة اليرموك، ط١، إربد ، الأردن، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٤٢. الربّاعي، عبد القادر،مقالات في الشعر ونقده، مكتبـة عمـان، ط١، عمـان - الأردن، ١٩٨٦م.

٤٣. ابن رشيق ،أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تح/محمد محـي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع، ط٥، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٤٤. رضا، غانم جواد،الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، نشـر جامعة بغداد، بغداد، ١٩٧٨م.

٤٥. رنسيمان،ستيفن،تاريخ الحروب الصليبية،ترجمة/ السيد الباز العريني، دار الثقافـة، ط١، بيروت، ١٩٦٨م.

٤٦. الزبيدي،المرتضى،ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب،تح/ صلاح الديـن المنجـد، دار الكتاب الجديد، ط٢، بيروت،١٩٨٣م.

٤٧. الزركلي، خير الدين،الأعلام،ط٣، ١٩٦٩م.

٤٨. زغلول، حمزة الدمرداش، الألوان البديعية، دار الطباعـة المحمديـة، ط٢، القـاهرة، ١٩٧٨م.

٤٩. الزمخشري،جار الله أبو القاسم محمود، أساس البلاغة، الهيئة المصرية العامة للكتـاب، ١٩٨٥م.

٥٠. سالم، السيد عبد العزيز ورفيقه، دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك،مؤسسـة شـباب الجامعة، الأسكندرية، ١٩٩٢م.

٥١. السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب أبي تقي الدين، طبقات الشافعية الكـبرى، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، بيروت، (د.ت)

© Arabic Digital Library Yarmouk University

٥٢. السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي، طبقات الشافعية الكبرى، تـح/ عبـد الفتاح محمد الحلو ورفيقه، ط١، طبع بمطابع عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

٥٣. السجستاني،أبو داؤود سليمان،سنن أبي داؤد، دراسة وفهرسة/ كمال يوسف الحوت، دار الجنان للطباعة والنشر والتوزيع ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م.

٥٤. سلام، محمد زغلول ،الأدب في العصر الأيوبي،منشأة المعارف، ط٤،الأسكندرية، ١٩٩٧م.

٥٥. سلام، محمد زغلول، ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد، نهضة مصر، (د. ت).

٥٦. سلطاني، محمد علي،البلاغة العربية في فنونها،مطبعة زيد بن ثابت، ١٩٨٠م.

٥٧. سناء الملك،عز الدين أبو القاسم هبة بن جعفر سناء الملك، ديوان بن سناء الملك،صححه وعلق عليه/ محمد عبد الحق، وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، ط١، ١٩٥٨م.

٥٨. السيوطي،، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن ،تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٧م.

٥٩. السيوطي،جلال الدين عبد الرحمن،حسن المحاظرة في تاريخ مصر والقاهرة،تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٦٨م.

٦٠. الشايب، أحمد ،الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، ط٩، القاهرة، ١٩٩٥م.

٦١. ابن شداد، بهاء الدين، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تح/ جمال الدين الشيال، ط١، الدار المصرية للتأليف والترجمة،١٩٦٤م.

٦٢. شرف ، حفني محمد، الصور البيانية بين النظرية والتطبيق، ، دار نهضة مصر، ط١، الفجالة، مصر، ١٩٦٥م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٦٣. شلبي، أحمد،التربية الإسلامية، نظمها وفلسفتها وتاريخها، مكتبة النهضة المصرية، ط٦، القاهرة، ١٩٧٨م.

٦٤. ابن شيث، عبد الرحيم بن علي، معالم الكتابة ومغانم الإصابة،حققه وضبطه/ محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٦٥. الشيخ، عبد الواحد حسن،دراسات في البلاغة عند ضياء الدين بن الأثير، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الأسكندرية، ١٩٨٦م.

٦٦. ضيف، شوقي، في النقد الأدبي، دار المعارف، ط٣، القاهرة، ١٩٦٢م.

٦٧. ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، دار المعارف، ط٢، القاهرة، ١٩٨٢م.

٦٨. ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف بمصر، ط ٦، ١٩٧١م.

٦٩. طبانة، بدوي، قضايا النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١م.

٧٠. عاشور، سعيد عبد الفتاح،أوروبا العصور الوسطى التاريخ السياسي، مكتبة الأنجلو مصرية، ط١٠، القاهرة، ١٩٨٦م.

٧١. عاكوب، عيسى علي ورفيقه، الكامل في علوم البلاغة العربية، الجامعة المفتوحة، عمان، الأردن، ١٩٩٣م.

٧٢. عباس، إحسان،تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٨٦م.

٧٣. عبد الظاهر،محي الدين،الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم،تح/ أحمد أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٩م.

٧٤. عبد المهدي،عبد الجليل،بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية،دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٧٥. ابن عبري،تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت، (د. ت).

٧٦. عبيدي، رشيد،دراسات في النقد الأدبي، مطبعة المعارف، ط١، بغداد، ١٩٦٨-١٩٦٩م.

٧٧. أبو العدوس، يوسف، المجاز المرسل والكناية "الأبعاد المعرفية والجمالية"، الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، عمان، الأردن، ١٩٩٨م.

٧٨. العسكري،أبو هلال،الصناعتين، حققه وضبط نصه/ مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٧٩. العلوي، يحيى بن حمزة بن علي، كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق إعجاز، طبع بمطبعة المقتطف، مصر، ١٩١٤م.

٨٠. علي، نبيل خالد رباح، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي ٦٥٦هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د. ت).

٨١. العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي،شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح/ لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د. ت).

٨٢. عمران، محمود سعيد،تاريخ الحروب الصليبية،دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت،١٩٩٠م.

٨٣. فروخ، عمر،تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط٥، بيروت، ١٩٨٤م.

٨٤. قاسم، قاسم عبده ورفيقه،الأيوبيين والمماليك (التاريخ السياسي العسكري)،عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط١، القاهرة، ١٩٩٥م.

٨٥. القاضي الفاضل، ديوان القاضي الفاضل، تح/ أحمد أحمد بدوي، مراجعة/ إبراهيم الإبياري، دار المعرفة، ط ١، القاهرة، ١٩٦١م.

٨٦. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم،أدب الكاتب،تح/ محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٨٧. القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن،الإيضاح في علوم البلاغة،قدم له وبوبه وشرحه/ علي أبو ملحم، منشورات دار مكتبة الهلال، ط٢، بيروت،١٩٩١م.

٨٨. قصبجي،عصام ، أصول النقد العربي القديم، جامعة حلب، حلب، ١٩٨١م.

٨٩. القلقشندي،أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، (د. ت).

٩٠. الكاتب، علي بن خلف، مواد البيان، تح/ حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاتح، ١٩٨٢م.

٩١. ابن كثير،أبو الفداء الحافظ، البداية والنهاية،تح/ أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت،١٩٩٧م.

٩٢. الكلاعي ،أبوالقاسم محمد بن عبد الغفور، أحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس،تح/ محمد رضوان الداية، عالم الكتب، ط٢، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٩٣. كيلاني،محمد سيد،الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام،دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٤٩م.

٩٤. متز،آدم، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري،ترجمة/ محمد الهادي أبو ريدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٥م.

٩٥. المتنبي، ديوان المتنبي، وضعه/ عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠م.

٩٦. المدني، علي بن معصوم،أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق/ شاكر هادي شكر، مكتبة العرفان، كربلاء، العراق، ١٩٦٨م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٩٧. مطلوب،أحمد ورفيقه،البلاغة والتطبيق،وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ط٢، بغداد، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٩٨. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مطابع دار المعارف، ج. م. ع، ١٩٨٠م.

٩٩. المقدسي، شهاب الدين،الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، حققه وعلق عليه/ إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٩٩٧م.

١٠٠. المقدسي،شهاب الدين أبو عبد الرحمن بن إسماعيل، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجبل، بيروت، (د. ت).

١٠١. المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، دار صادر، بيروت، (د. ت).

١٠٢. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، السلوك، قام بنشره/ محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م.

١٠٣. الملطي، عبدالباسط بن خليل ،نزهة الأساطين فيمن ولي من السلاطين، تح/ محمد كمال الدين عز الدين علي، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، القاهرة، ١٩٨٧م.

١٠٤. ابن منظور،أبو الفضل جمال الدين بن محمد،لسان العرب،دار صادر،بيروت، (د. ت).

١٠٥. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، نسخة مصورة عن دار الكتب، القاهرة، (د. ت).

١٠٦. النيسابوري، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج،صحيح مسلم،ضبطه و صححه/محمد سالم هاشم،دار الكتب العلمية ،ط١ ،بيروت،١٤١٥هـ١٩٩٥م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١٠٧. الهاشمي،السيد أحمد،جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).

١٠٨. هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٧م.

١٠٩. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب،تح/ جمال الدين الشيال،نشر لأول مرة من مخطوطات كمبرج وباريس واستنبول، ١٩٨٠م.

١١٠. الوردي، زين الدين عمر، المختصر في تاريخ أخبار البشر،تح/أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط١، بيروت، ١٩٧٠م.

١١١. ابن وهب،اسحق بن إبراهيم بن سليمان،البرهان في وجوه البيان،تح/ أحمد مطلوب وخديجه الحديثي، جامعة بغداد، ط١، ١٩٦٧م.

الرسائل الجامعية

١. سالم، عبد الله، النثر الفني في مصر وبلاد الشام في القرن السادس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٣م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الدوريـــات

١. جعافره، ماجد، التناص بين القديم والجديد" دراسة في النظريـــة والتطبيـــق"، المـــبرز، عدد١٢، ١٩٩٩م.

٢. عيد، رجاء، النص والتناص، علامات في النقد، ع١٨، مجلد ٥، ١٩٩٥م.

٧. المغيض،تركي، التناص في معارضات البارودي، مجلة أبحاث اليرموك،العدد الثاني، ١٩٩١م.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

Abstract

The Art of Letters in al-Ayyubbi Period –An Artisitic rhetorical Study-

Prepared by:
Rakan Husein Ali Bakkar

Suppervised by:
Professor: Yousof Abu Al-U'dous

This study aimed at dealing with the art of letters through focusing on the Divan (official) letters and fraternal (non official) letters in Al-Ayyubbian period. This study –first of all- focused on describing the political and belligerent status which had prevailed in that time which had witnessed contineous fightings between muslims and crusaders, that's this period has been called. Later the crusades.

As aresult of, the Divan letters had emerged and developed rather than ones which were being prevailed in the past. This development may be noticed in the rulers interst in these letters by managing the divan of the letters according to special norms as well as we can notice this development in writers letters whose expressions are eloquent and meanings are deeply islamic. Therefore these letters had played an important role in precisely protraying (iconologizing) the nature of the belligerent and political events and the social relationships between people in that period.

The study demonstrated the role of Al-Ayyubbians in interest in writing and the letters specially and in science in general. This interest led to emerge books and works from which the Arabic

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

library benefited such as: al mathal al sa'er fi Adab Al-Katib washa'er, Karidat Al-Qasr Wajaridat Al-Asr, Wannwader Al sultaneyya, wakitab Al-E'etibar...etc. as well as it also led to the advent of some literary men who had interested in science and literature such as: Al-Qadi Al-Fadel who had the most important influence on developing this art, consequently the founded a school called Al madrasa Al-Fadeliyya.

The study dealt with types of the letters, that's they had been divided into two types: Divan (official) letters and fraternal (non officicial) letters. It also included subtypes of each one proved by the examples presented in the Arabic resources, that's these letters were as follows: Congratulation letters, condolence letters, apology letters, longing letters, intercession letters, and custody letters.

These letters –Divan and fraternal –were the subject of the applied study which led to show some their characterstics such as: their morphological construction including: preface, Presentation and epilogue as well as their expressions characterized by eloquency, simplicity.

The study showed the stylistic and rhetorical icons of the letters such as: assonance, paronomasia, comparison, and antithesis, that's these icons were prominent in that period.

The study also showed the rhetorical structure of ayyubbian letters content, that's these letters included quotation from holy Quran verses and prophetic tradition whose influnce had beèn prominent in Al-Jihad against the crusaders and instigating the religious feeling among Muslims. Ayyubian letters also included implication from Arabic poetry and the famous poets' poems such

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

as: Al-Mutanabbi, Abu Tammam, and AL-Buhteri. This reflects the artistic appreciation in Arabic old poetry in that period.

The study also dealt with clarity, obscurity, affection, verbosity and laconism. Therefere it showed that Ayyubbian letters had been characterized by agitated affection, Clarity, laconsim and verbosity but they had been sometime characterized by properties that it is difficult to decode them.

In summary, the letters in Ayyubbian period had witnessed a noticeable development made them different from the letters which had prevailed in the past periods. This development included the advent of the letters pastiches along the lines of the poctic pastiches, and advent of new kinds of the letters as congratulation on the occasion of conquest of a castle, stronghold or city ...etc.

Therefore this period hadn't any retrogradation and stagnancy as described by some researchers in literature.

© Arabic Digital Library Yarmouk University